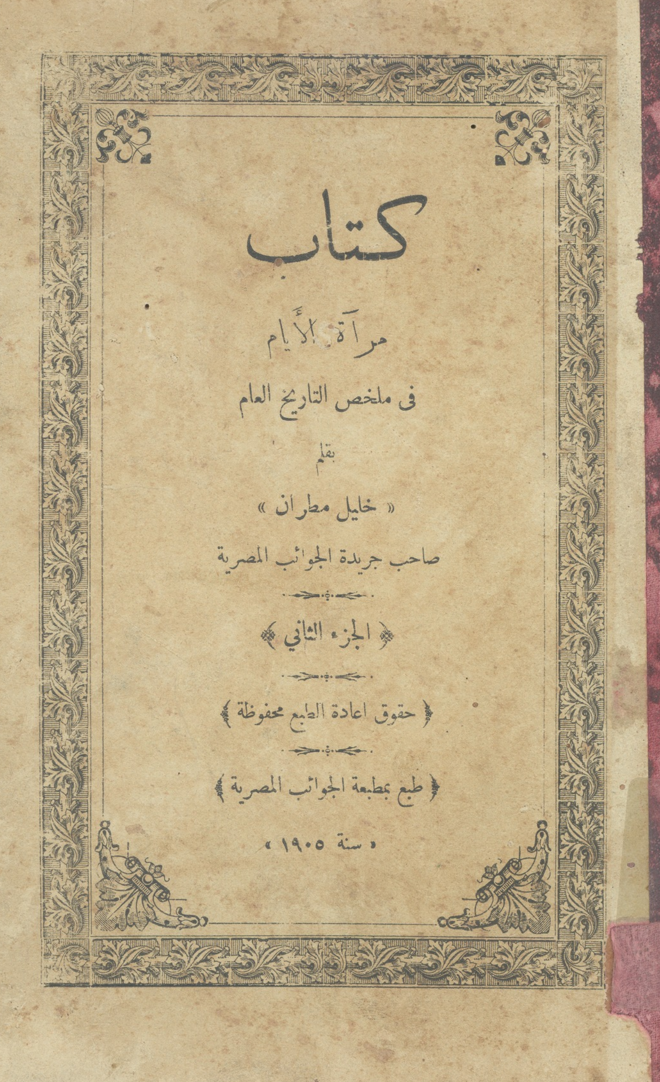


كتاب

مرآة الأيام

في ملخص التاريخ العام

بقلم

« خليل مطران »

صاحب جريدة الجوائب المصرية

﴿ الجزء الثاني ﴾

﴿ طبع بمطبعة الجوائب المصرية ﴾

« سنة ١٩٠٥ »

كتاب

مرآة الأيام

في ملخص التاريخ العام

بقلم

« خليل مطران »

صاحب جريدة الجوائب والمجلة المصرية

﴿ الجزء الثاني ﴾

﴿ طبع بمطبعة الجوائب المصرية ﴾

« سنة ١٩٠٥ »

الباب السابع والثلاثون

﴿ العهد الاقطاعي ﴾

تمهيد

رأينا السلطنة فيما سبق تنقسم الى ممالك وسنرى الممالك تنقسم الى اعمال مستقلة يستبد بها الذين يتولونها لتساهل الملوك الكارلوفنجيين المتأخرين وتخويلهم عمالهم حق توارث مناصبهم والاقطاعات المتعلقة بها . فلم تلبث كل ارض ان اصبحت ملكا لسيد شريف كما اصبح كل سيد تابعا لاعظم منه ينتمي اليه ويشد ازره به . وعلى هذا النمط تم استقلال الاعمال المذكورة لازدياد صولة أربابها ونمو شكوتهم بقدر ماضعفت قوة الملوك وقلت أموالهم وجنودهم . وكان من أعظم الممهدات لقيام الدول الاقطاعية الصغيرة مامنحه الملوك لاكثر اصحاب الاقطاعات من حق جباية الضرائب لانفسهم وتولى القضاء بين تابعيهم فضلا عن حق الايراث .

وكان كل رجل ينتمي الى سيد بان يقسم له يمين الامانة فيقطعه مولاه أرضاً ويتطلب منه مقابلة لذلك واجبات معنوية منها احترامه واكرامه ومساعدته بنصائحه وواجبات حسية أولها تجنيد فلاحيه للخدمة العسكرية مدة معلومة في كل سنة وعند الاقتضاء وثانيها امداد السيد بالرأى عند جلوسه للقضاء وثالثها تأدية مال لافتداء السيد ان كان معتقلاً واهداء النقود اليه حين تقلد ابنه سيف الفارس

ويزوج ابنته البكر . وكان التابع يقدر على استتباع آخرين .

اما السيد فكان من واجباته ان لا يحرم التابع الارض التي اقطعه اياها بلا موجب وان يدافع عنه اذا سطا عليه عدو وان يقضي له أو عليه بالعدل . وكان التابع يستأنف حكم السيد الى من هو اعلى منه اذا لم يرض به وكان له فضلاً عن ذلك حق المبارزة او التقاضي مع خصمه بالسيف وقد كثر استعمال التقاضي بالمبارزة حتى ان الكنيسة عينت اياماً من الاسبوع سمتها هدنة الله أمرت ان لا يكون فيها براز تخفيفاً لويلات هذه العادة الوحشية (١٠٤١) . وكان القضاء على انواع . أعلى ومتوسط وادنى . وكان الاعلى يتناول الحكم بالاعدام ولم يكن ممنوحاً الا لذوي الاقطاعات الكبرى . وكان من الحقوق السيادية ضرب النقود وسن القوانين . وكان الاساقفة ينالون احياناً القاب الكونتية ويكونون السادة على المدينة وجميع الشرفاء التابعين لابرشياتهم . وقد ملكت الكنيسة في ذلك العهد نحو خمس الاراضي في فرنسا وانكلترا وثلثها في المانيا .

وكان تحت طبقة الشرفاء والمحاربين الفلاحون والشركاء . اما الفلاحون فكانوا يحرثون الارض للسيد ولا يحق لهم امتلاك شيء وان امتلكوه فللسيد ان يسلبهم اياه حين يشاء واما الشركاء فكانوا يلزمون الارض التي يحرثونها للسيد ويقدمون له ايراداً معيناً في السنة ولو زاد ايراد تلك الارض عن القدر المتفق عليه

وكان لهم حق الامتلاك وكانوا يعاملون باللين قليلاً من معاملة الفلاحين .

﴿ فصل ﴾

﴿ في الاقطاعات الكبرى بفرنسا والمانيا وايطاليا ﴾

لم يتم النظام الذي نسميه اصطلاحاً بالاقطاعي الا في آخر القرن الحادي عشر وقد ساد في جميع ولايات السلطنة الكارلوفنجية غير ان اسماء ممالك فرنسا والمانيا وايطاليا بقيت محفوظة وانما كانت اسماء رنانة كبيرة بلا مسميات

ومن هذه الممالك الثلاث واحدة لم تلبث ان زالت سنة ٩٢٤ وهي ايطاليا وأخرى انحطت انحطاطاً شديداً وهي فرنسا واما الثالثة وهي المانيا فقد ازهرت ونمت وعزت حتى جعلها ملكها اوتون الأول بما اضافه اليها من الاملاك الواسعة سلطنة اشبه بسلطنة كارلوس الكبير .

وكانت لملك فرنسا دوقية فرنسا وحواليها املاك متسعة لجملة من السادة الذين كانوا يضارعونه صولة وثروة . ثم كانت بين اللوار والبيريناي اربع عمالات كبيرة كالمتقدم ذكرها وكان اصحاب هذه الاملاك يدعون بانداد الملك وكان لستة من الاساقفة هذا اللقب ايضاً .

أما مملكة جرمانيا فكانت منقسمة الى تسعة أقسام كدوقية ساكس ونظيراتها وأما مملكة آرل فالى ثلاثة وأما ايطاليا فالى جملة أعمال مستقلة منها لومبارديا وتوسكانا والاقسام الكنسية والأقسام الاربعة النورماندية .

وكانت في الجانب المسيحي من اسبانيا مملكة قشتالة وليون وكونتية البورتغال التابعة لها ومملكتا نافاريا واراغون. وفي بريطانيا العظمى مملكتا انكلترا وغاليا. وبين بحر الشمال والباطيك الثلاث الايالات السكانديناقية وهي اسوج ونروج والدنيمرك وللسلافيين مملكتا سلافونيا وبولونيا وغراندوقية روسيا التي كانت مقسومة الى أمارات كثيرة وغراندوقية ليتوانيا . وفي سنة الف أهدى البابا تاج ملك المجر الى القديس اتيان الذي نصّر أهلها .

{ فصل }

{ في حالة الحضارة من القرن التاسع الى القرن الثاني عشر }

لم تقم قائمة للمعارف بعد كارلوس الكبير الذي عمل على انهاضها . وفي القرن العاشر اشتدت المصائب على الناس حتى ظنوا انهم في نهاية العالم فامتنعوا عن البناء ولم يعملوا عملاً يذكر فلما انقضت سنة الف ورأوا ان الدنيا باقية عادت اليهم حركة الحياة وابتنوا كنائس كثيرة ثم استنهضتهم دعوة سيلفستروس الثاني الى الحرب

الصلبية . وفي أواخر القرن الحادي عشر أقبل الناس قليلاً على الآداب والعلوم وتساجلوا في الآراء والافكار. وأحسن ما برع فيه الصناع في هذه الازمان صناعة الهندسة البنائية .

الباب الثامن والثلاثون

{ في الامبراطورية الجرمانية وما جرى من التنازع بينها وبين الكهنوت }

فصل

{ في ذكر المانيا من سنة ٨٨٧ الى سنة ١٠٥٦ }

عند ما خلعت المانيا ملكها كارلوس السمين { ٨٨٧ } جلس على عرشها ارنولف من نسل شارلمان واهم اعماله ان ملك ايطاليا استنجد به لمقاومة احد المطالبين بسريره فسير اليه جيشاً ثم غدر به فخلعه ووضع على رأسه تاج ايطاليا ولقب نفسه بالامبراطور (٨٩٦) وبعد ذلك خلفه ابنه لويس الملقب بالطفل وبوفاته انقرضت سلالة شارلمان الالمانية . ومن ذلك الوقت أخذ الالمانيون ينتخبون ملكهم انتخاباً . وفي سنة ٩١١ انتخب كونراد الاول سيد فرنكونيا فاخذ يناوئ الشرفاء الكبار لينتزع منهم املاكهم ويضمها الى املاكه فانتصر عليه احدهم وهو هنري دوق ساكس في اهرسبورغ فعدل عن محاربته وجرد على دوق لورينا فسلبه الالزاس وقتل مديري مقاطعة النواب واستولى عليها .

وقبل وفاته اوصى بانتخاب دوق ساكس المنتصر عليه ملكاً فحصن بلاده من كل جانب وفي سنة ٩٢٦ وضع القانون القاضي بالخدمة العسكرية على كل شاب تجاوز السادسة عشرة من العمر وانشأ القلاع والمعاقل وظهر على المجر في مرسبورج { ٩٣٤ } فكان ذلك اكبر ممهد لراحة بلاده منهم. ولما خلفه ابنه اوتون الاول الملقب بالكبير حاربهم وفاز عليهم في موقعة اوجسبرج (٩٥٥) وحماهم على السكنى في الارض التي هم فيها الى الآن

وكان دوق بافاريا ودوق فرنكونيا قد ثارا عليه بمساعدة لويس الرابع ملك فرنسا فدحرهما ودخل الى باريس . وأعظم عمل قام به انه أعاد السلطنة الالمانية فان تاج ايطاليا الذي تتوج به أرنولف كان قد وقع لبيرنجه الاول واستقل به في ايطاليا زمناً ثم قتل غيلة في خلال فتنة عظيمة ولم يفكر أحد من الشرفاء المتحاربين في تقلد التاج مدة الاضطراب . ولكن رجلاً يدعى المركيز ديغراي أراد ان يكره أرملة بيرانجه على التزوج بابنه ليجلس على العرش فأبت واستجارت باوتون فأجارها وتزوج بها هو نفسه وتتوج ملكاً على ايطاليا في ميلانو وامبراطوراً في رومه (٩٦٢) وتعهد للبابوية بان يبقي لها ما وهبها اياه شارلمان من الاملاك فتعهد له شعب رومه بان لا ينتخب أحداً للبابوية الا بحضور رسول من قبله. وبعد ذلك زوج ابنه من ابنة قيصر القسطنطينية واستمنحه جنوبي

ايطاليا وكان باقياً للروم . فكبر شأنه في أوروبا ولكن خلفاءه أوتون الثاني والثالث وهنري الثاني {٩٧٣ — ١٠٢٤} . لم يحتفظوا بارثه. وفي سنة ١٠٢٤ عاد التاج الامبراطوري الى آل فرانكونيا وتقلده كونراد الثاني فضرب الجزية على اللاتيزيين ونصرهم واكره ملك بولونيا على الاعتراف بسيادته واسر ملك بوهيميا وضم ولايتي بورغونيا الى سلطنته بموجب اتفاق عقده مع ملك آرل . ثم اضعف شوكة الشرفاء في ايطاليا حيث اصدر أمراً بجعل كل صاحب اقطاع تابعاً مباشرة له فانقطعت وساطة الاكابر منهم بينه وبين الاصاغر. وفي سنة ١٠٣٩ خلفه ابنه هنري الثالث فضرب الجزية على ملك بوهيميا . وارجع ملك المجر الى الب روايال وكان قد طرد منها فاعترف بسيادته واعاد السطوة الدوقية الى بافاريا وسواب وكارنتيا ليصلح بها شؤونها التى فسدت ومد سيادته على البابوية نفسها في ايطاليا .

{ فصل }

{ في القسيس هيلدبرند }

كان هذا الراهب مستشاراً لجملة من البابوات راغباً في انقاذ ايطاليا من الحكم الالماني وفي سنة ١٠٥٩ حمل نيقولا الثاني على اصدار امر يقضي بان الكرادلة المقيمين في الاراضي الرومانية

هم الذين ينتخبون البابا وان سائر الكهنة والشعب الروماني يوافقون موافقة على الانتخاب . وان الامبراطور يكون له حق التثبيت وانه يفضل اختيار البابا من الكهنة الرومانيين . ثم استصدر أمراً آخر يحظر على الكهنة قبول إقطاع كنسي من غير اهل الكهنوت . وبهذين الامرين تحرر البابا من التابعية الفعلية للامبراطور وجعل في يده زمام الادارة الزمنية للكنيسة

{ فصل }

{ في غريغوريوس السابع وهنري الرابع (١٠٧٣ – ١٠٨٥) }

انتخب هيلدبرند الكرسي البابوية تحت اسم غريغوريوس السابع (١٠٧٣) فاراد اتمام مقاصده وكانت اربعة: تحرير البابوية من السيادة الالمانية . اصلاح الكنيسة في نظامها واخلاقها . تحريرها في كل مكان من السلطة الزمنية الحاكمة . تسويدها على الملوك والشعوب بدعوى تخليص نفوسهم من عقاب الآخرة .

اما الاول فكان قد تم بموجب الامر المصدر له البابا نقولا الثاني على ما رأيناه آنفاً واما الثاني فأتمه غريغوريوس بنفسه . واما الثالث فكان عقدة الاشكال وعليه قام الخلاف الشهير المتعلق بالاقطاعات . وبيانه أن الكهنوت الالماني فسد وحدث فيه تشويش كبير حين كان هنري الرابع قاصراً فنسب غريغوريوس

ذلك الفساد الى هنري المذكور وكتب اليه يمنعه في المستقبل عن منح الاساقفة اقطاعات كنسية ويدعوه الى رومه للاجابة عن سوء تصرفه . فغضب الامبراطور وعقد مجمع ورمس مؤلفاًمن ٢٤ اسقفا (١٠٧٦) واستصدر منه حكماً بتنزيل البابا فاصدر البابا أمراً بعزل الامبراطور وحرمانه الديني ولما كان السكسونيون والسوابيون ذوي عداوة قديمة لآل فرانكونيا عقدوا مجتمع تريبور فقرر كف الامبراطور عن تأدية وظيفته وتهديده بالعزل ان لم يصالح البابا. فانصاع هنري وذهب الى رومه وانتظر حافياً مع شدة البرد ثلاثة ايام حتى اذن له البابا بمقابلته وعفا عنه فرجع متميزاً غيظاً وشهر الحرب على السوابيين فقتل رودولف سيدهم الاكبر وكسر جنوده واستتبت له الشوكة في جميع المانيا (١٠٨٠) فعاد الى ايطاليا وأخذ رومه وعين اسقف رافينا خليفة لبطرس الرسول تحت اسم اكليماندوس الثالث وكاد يقبض على غريغوديوس لو لم ينقذه النورمانديون الذين كانوا قد افتتحوا ايطاليا الجنوبية . وتوفي هذا البابا في منفاه سنة ١٠٨٥

﴿ فصل ﴾

﴿ في اتفاق ورمس (١١٢٢) ﴾

بعد هذا الفوز العظيم لهنري الرابع حرشت الكنيسة عليه

ابنه فقتله ولقب نفسه بهنري الخامس وأنهى خصومة الاقطاعات الكنسية بما عقده من اتفاق ورمس (١١٢٢) القاضي بان يمنح الامبراطور الاقطاع من وجهه الدنيوي ويمنحه البابا من وجهه الديني.

وكانت في ايطاليا خاتون نبيله ذات أملاك واسعة وثروة فاحشة تدعى الكونتة ماتيلدا فتوفيت في عهد هنري الخامس فورثها بحق القربى والسلطة الامبراطورية ثم أدركه أجله وانقرض بموته آل فرانكونيا (١١٢٥)

﴿ فصل ﴾

﴿ في آل هوهنستوفن ﴾

فوقع التاج لكونراد الثالث (١١٣٨) من آل سواب فانتصر على خصمه هنري الملقب بالمتعاظم دوق ساكس وبافاريا ثم سافر للحرب الصليبية وتوفي على أثر عودته فخلفه ابنه فريدريك الاول باربروس (١١٥٢) فأيد سلطته في ايطاليا وقسم اقطاعاتها الكبرى الى اقطاعات صغيرة ومدائن ذات نظامات جمهورية . فقام في رومه رجل يدعى ارنالدو دي بريسيا وطرد البابا منها ليحررها فأحرقه فريدريك وأعاد البابا ثم استبد فثارت عليه ميلانو فدمرها (١١٦٢) ووزع أرضها على جاراتها ثم عاد الى المانيا فتألفت على الاثر العصابة اللومباردية لمحاربته بتعضيد البابا فرجع لينكل بالقائمين بها فظهروا

عليه في ليغنانو (١١٧٦) وبعد ذلك بسبع سنين حسمت معاهدة كونستانس خصومة ايطاليا والسلطنة وعادت ايطاليا الى نظاماتها الاولى ولم تبق للامبراطور فيها الا بعض الحقوق القايلة

على ان باربروس لم يصبه من الفشل في خارج ايطاليا ما اصابه فيها بل اكره ملكي الدانيمرك وبولونيا على الاعتراف بسيادته واغتصب أملاك هنري الملقب بالاسد دوق ساكس وبافاريا وكان يزوره السفراء الاجانب لحضور المجتمعات الشوروية الحافلة التي كان يعقدها واشهرها مجتمع مايانس الذي احتشد فيه اربعون الف فارس نسيب (شفالية) في سنة ١١٨٤

ثم غرق باربروس في نهر الشالوف بالشام مدة الحرب الصليبية الثالثة فخلفه ابنه هنري السادس (١١٩٠) وكان متزوجا بكونستانس ابنة ملك صقليا ووارثته . ولما كان آل سواب قد فقدوا ما بقي لهم من السلطة في شمال ايطاليا منحهم املاكا واسعة في جنوبها وحصر املاك الكرسي المقدس بين أملاكه فخاف البابا اينوسان الثالث من هذا الجواب وعزم على الانتقام (١١٩٨ — ١٢١٦) . ولما أمكنته الفرصة أخذ بنصرة أوتون من آل برونسويك على فيليب السوابي وارث هنري السادس فكان حينئذ بدء الحرب الشهيرة بين الكلفيين اعوان الكنيسة والجيبليين أعوان الامبراطورية . غير ان أوتون لم يتخلص من مناظره حتى أخذ

يؤيد بسلطته على ايطاليا فغضب البابا وكان يظن انه يتنازل عنها ورجع الى آل سواب فأقام على الامبراطورية فريدريك الثاني بن هنري السادس على شرط ان يتخلى عن جزيرتي صقليا فاخلف وعده وعبأ جيشاً من العرب ليؤيد بهم عرشه فيما لو حرمه البابا وخذله الجنود المسيحيون ولكن البابا دعاه للحرب الصليبية فتردد عن الاجابة فانذره بالحرمان فسافر وعقد معاهدة مع السودان فتحت له أبواب القدس فدخلها وتتوج ملكاً عليها وعاد بدون قتال (١٢٢٨) وكان البابا غريغوريوس في غيابه قد عصب عليه العصابة اللومباردية وحرض عليه ابنه ورمى مملكة نابولي بجيش لاحد صنائعه . ففاز فريدريك على الجميع فحرمه البابا ومنح تاجه لروبرت دارتوا اخي ملك فرنسا فابى لويس التاسع ان يأذن بذلك واجاب البابا على ما كتبه اليه في هذا المعنى « انك ستدوس جميع الملوك بقدميك اذا فزت على الامبراطور » فدعا غريغوريوس رؤساء الدين لعقد مؤتمر في سنة ١٢٤١ فالتقت سفائن فريدريك باسطول جينوا وكان آتياً بالمدعوين للمؤتمر وكسرته واسرت نفراً منهم . فمات غريغوريوس حنقاً وخلفه اينوسان الرابع سنة ١٢٤٢ ففر الى ليون وعقد فيها مؤتمراً اوقع به الحرمان على فريدريك ودعا المؤمنين لمحاربته (١٢٤٤) فكتب فريدريك الى ملوك اوروبا « اني اذا هلكت هلكتم جميعاً » واطلق العرب على وسط

ايطاليا وحليفه حاكم بادو على شمالها فاسال انهاراً من الدماء ولكن الكلفيين تساحوا في كل جهات ايطاليا وهبوا اجابة لدعوة القسوس فعرض فريدريك على البابا انه يستقيل ويحقن الدماء على ان يخلفه اولاده فابى واستمر القتال الى ان قضي نحب فريدريك بعارض فجائي (١٢٥٠) وكانت وفاته مبدأ تحرر ايطاليا من التابعية لالمانيا

الباب التاسع والثلاثون

(في الحروب الصلبية في الشرق والغرب)

﴿ فصل ﴾

(في الحرب الصلبية الاولى في الشرق (١٠٩٦ — ١٠٩٩))

كان عالم القرون المتوسطة منقسماً الى فريقين اهل الانجيل واهل القرآن ففي آخر القرن الحادي عشر اصطدماوا اقتتلا ودعيت تلك الحروب بالصلبية . وقبل الدخول في وصف المواقع التي جرت نقول على سبيل التمهيد ان الاتراك كانوا في عهد الب ارسلان (١٠٦٣) وملك شاه (١٠٧٥) قد فتحوا الشام وفلسطين وآسيا الصغرى كما رأينا بسط ذلك وان ملك شاه عند ما دنت منيته قسم مملكته الى خمس ذكرناها وكانت احداها جزءاً من سلطنة الروم ويظهر من هذا التقسيم ان امبراطورية الشرق في القسطنطينية كانت

قد ضعفت الى حد انها لم تقو على صد غازة الاتراك عن احدى عمالاتها ففتحوها واستبدوا بها وجعلوها احدى تلك الممالك الخمس. لا جرم أنه قام في القسطنطنية لذلك العهد ملوك حكماء باسلون من السلالة المقدونية كنيسافور فوكاس وجان ذيميسيس وبازيل الثاني وانتصروا على البلغاريين والروس والعرب غير ان احد خلفائهم وهو رومان ديوجوين وقع في ايدي الاتراك بعد ان ظهر عليهم ثلاث مرار ظهوراً باهراً فاقر خلفه القيصر اليكسيس بضعفه وعجزه عن مقاومتهم والتمس النجدة من الغرب

وكان البابا سيلفستر الثاني قد خاطب الشعوب الغربية منذ بدء القرن الحادي عشر بضرورة انقاذ القبر المقدس (١٠٠٢) فكثر عدد الذاهبين الى حج القدس وكانوا يرجعون ويشكون ظلم الاتراك وقسوتهم في تلك الارض. ثم قام غريغوريوس السابع يدعو الناس الى الجهاد كدعوة سيلفستر ولكن المسيحيين لم ينهضوا نهضة حقيقية الا في عهد أوربان الثاني فعقد مجمعين حضر أولهما سفراء من قبل اليكسيس كومنين امبراطور الشرق وازدحم ثانيهما بالوافدين من كل جانب فأثرت فيهم فصاحة البابا وخطابة بطرس الناسك وكان عائداً حديثاً من حج القدس فما افترقوا الا وقد نادوا «كذا أراد الله» ووضعوا الصلبان الحمراء على ملابسهم علامة الجهاد الصليبي (١٠٩٥) فانطلقت التجريدة الاولى تحت قيادة

بطرس الناسك وكانت مؤلفة من العامة والفقراء والاطفال والشيوخ والنساء فتوفي معظمها في بلاد المجر ولم يجتز سائرها القسطنطينية حتى توفاهم الله في آسيا الصغرى .

وفي السنة التالية { ١٠٩٦ } اجتمعت أربعة جيوش كبيرة للشرفاء يقود أحدها غودفروا دي بويون وأوستاش دي بورغوني وبودوين دي بورج وثانيها هو غوس الكبير كونت فرماندوا واتيان دي بلوا وروبرت بن غليوم الفاتح وثالثها ريموند دي سنجيل كونت تولوز ورابعها بوهيموند أمير تارنتا. وسارت هذه الجيوش في ثلاث طرق مختلفة متواعدة على اللقاء في القسطنطينية ومنها تقدمت براً وحاصرت نيقا بمدخل آسيا الصغرى ثم التقت عساكر قليج أرسلان صاحب مملكة الروم فقهرته وتوغلت في صحراء فريجيا فأصابها فيها الجوع والظمأ فأهلكا السواد الاعظم منها وأماتا الخيول كلها ومع ذلك أخذ بودوين قادس {اورفه} على الفرات الاعلى وتقدم معظم الجيش الى طرسوس ففتحها ثم حاصروا انطاكية (١٠٩٨) حصاراً طويلاً ذاقوا فيه كل ضروب الآلام ولم تفتح أبوابها لهم الا بعد ان استنفد بوهيموند جميع الحيل والدسائس فلقبه اخوانه أميراً عليها ولم يلبثوا ان حاصرهم فيها مئتا الف مقاتل أرسلهم الخليفة من بغداد فانتصروا عليهم وساروا الى القدس وكان غير باق منهم الا خمسون الفاً فدخلوها في ١٥ يوليو من سنة ١٠٩٩ بعد حصار شاق لحصار

انطاكية . وانتخب غودفروا ملكا عليها فأبى ان يضع التاج على رأسه في المكان الذي « كلل فيه ملك الملوك بالشوك » وبعد ذلك بقليل ظفر في عسقلان على جيش مصري اتى لمحاربته . ولما رجع حصن القدس ونظمها على الطريقة الاقطاعية واسس امارتي قادس وانطاكيه وكونتية طرابلس ومار كيزية صور الخ .

وفي سنة ١١٠٠ تأسست رهبنة القديس يوحنا الاورشليمي لتمريض العساكر وفي سنة ١١١٨ رهبنة الهيكليين (تامبليه) وكلف رجال هتين الرهبنتين بالدفاع عن البلاد . وعند وفاة غودفروا خلفه بودوين الاول (١١٠٠ — ١١١٨) ثم بودوين الثاني دي بورج (١١١٨ — ١١٣١) واستوليا على القيصرية واللاذقية وصور وصيدا وعكا وبيروت وغيرها الاّ ان الشقاق لم يلبث ان وقع بين الصليبيين فشغلهم فزحف نور الدين سلطان سوريا الأتبكي على قادس وذبح سكانها (١١٤٤) .

﴿ فصل ﴾

(في التجريدتين الثانية والثالثة (١١٤٧ — ١١٨٩)

وحملت هذه المذبحة اوربا على تجديد الحرب الصليبية فنهض لها لويس السابع ملك فرنسا تكفيراً عما جناه من قتل ١٣٠٠ نفس احراقاً بالنار في كنيسة فيتري . وقامت معه امرأته ايليونورا دي

غويانه وجمهور من الشرفاء الفرنسويين وكونراد الثالث امبراطور المانيا . اما كونراد فتوغل بجيشه في اسيا الصغرى وفقده كله في مضايق جبل طورس وعاد في نفر عدّ الاصابع الى القسطنطينية وكان ملك فرنسا قد وصلها فلما علم بما جرى لزميله لزم الشاطىء ولكن الاتراك قتلوا برمي السهام عدداً كبيراً من جيشه في سيليسيا ومع ذلك ادرك انطاكية وزحف منها على دمشق وحاصرها فلم يحل بطائل ثم عاد الى مملكته ولم يجن من عنائه كله الاطلاق امرأته

وفي سنة ١١٨٧ فتح صلاح الدين الايوبي القدس بعد جعل مصر والشام مملكة له . فاهتزت اوروبا لهذا النبأ وفرض البابا على جميع الاراضي حتى الكنسية منها ضريبة عشرية لمقاومة صلاح الدين وأعدت تجريدة جسيمة يتقدمها اقوى ملوك الغرب وهم فيليب اوغسطس وريكاردوس قلب الاسد وفريدريك باربروس (١١٨٩) اما فريدريك امبراطور المانيا فدخل آسيا عن طريق البر والقسطنطينية وغرق في الشالوف وسحق جيشه . واما فيليب ملك فرنسا وريكاردوس ملك انكلترا فركب البحر احدهما من جينوا والاخر من مرسيليا والتقيا في صقليا واخذا يختصمان فيها ثم قصد ريكاردوس جزيرة قبرس لاخضاع رجل اغتصب سرير الملك فيها ولحق بفيليب الى عكاء فحاصراها مدة سنتين ثم غضب ملك فرنسا لما كان بين الصليبيين من التخاذل والشقاق فرجع الى

ممالكه وبقي ريكاردوس في فلسطين فلم يستطع ان يسترجع القدس وبينما هو راجع الى بلاده هبت عاصفة طرحته على شواطئ دلماسيا فمر من المانيا فاعتقله فيها ليوبولد دوق النمسا لانه كان قد القى رايته في احد خنادق عكاء ولم يطلقه الا بفدية فاحشة

﴿ فصل ﴾

﴿ في التجريدة الرابعة (١٢٠٢) وتولى اللاتين سلطنة الشرق ﴾

هذه التجريدة دعا اليها اينوسان الثالث وفولك كاهن نويلي فلما استعدت للسفر طلبت سفائن من البندقية فأعطتها اياها على شرط ان تفتح لها بها حصن زارا الذي كان في قبضة المجر فأجيبت الى ما سألته . ثم ان رجلا يدعى الكسيس وهو ابن امبراطور رومي معزول أوهم قواد التجريدة ان القسطنطينية مفتاح القدس وانه اذا أعيد الى سرير أبيه بلغهم اربهم فقصدوها واذ رأوا ما هي عليه من الفوضى دخلوها عنوة واقتسموا السلطنة ممالك ودوقيات وماركيزيات ولقب المتقدم في الحملة بودوين كونت دي فلاندر بامبراطور رومانيا . واستمرت هذه السلطنة في أيدي اللاتين سبعا وخمسين سنة (١٢٠٤ — ١٢٦١) على ما سبق لنا تفصيله.

﴿ فصل ﴾

﴿ في التجريدات الاخيرة (١٢٢٩ — ١٢٧٠) وذكر القديس لويس ﴾

نتج من العبث الذي تقدم ذكره ان القدس لم تخلص وان بارونية الارض المقدسة استمروا يوالون الاستغاثة والاستنجاد فارسل اندراوس ملك هنغاريا تجريدة خامسة على مصر فلم تفلح فاتى فريدريك الثاني امبراطور المانيا في مقدمة التجريدة السادسة وعقد هدنة عشر سنين مع الملك الكامل على ان يسلم له القدس وبيت لحم والناصره وصيدا وانما فعل ملك مصر ذلك بدون قتال لتخوفه من قرب اغارة القبائل الخوارزمية عليه . وذهب فريدريك الى القدس فوضع تاجها على رأسه (١٢٢٩) . ثم لم يكد يقفل راجعاً حتى سار التركمان في فرارهم من وجه المغول وجانكيزخان الى الشام فسحقوا جيشاً صليبياً لقوه بغزه واخذوا المدينة المقدسة فلما علم البابا اينوسان بما حلّ من البلاء الجديد دعا اوروبا فلم يجبه الا القديس لويس وكان قد نذر في مرض اشتدّ عليه ان ينقذ القدس اذا شفي . فركب البحر في مقدمة جيش عظيم (١٢٤٨) وقضى الشتاء في قبرس . وادرك فيها ان اولياء امر القدس في مصر فقصدهم واستولى على دمياط ولكن حركته البطيئة اولدت الشقاق والعصيان بين العساكر كما دفعتهم الى الفاحشة والعربدة فتفشت بينهم الامراض بسببها ونشأ عن ذلك كله انهم قهروا بقرب المنصورة وعادوا على أعقابهم يفترسهم الطاعون ويوقع بهم المسلمون حتى استأسروا الملك فافتدى نفسه بمليون دينار قسطنطيني ذهباً

وسار الى فلسطين فقضى فيها ثلاث سنين ينفق ماله على تحصين المدائن ويبذل نفوذه في التوفيق بين المتناظرين. وبعد هذه الحملة بست عشرة سنة جرد حملة ثانية فاقنعه اخوه كارلوس دانجو ملك صقلياً في سنة ١٢٧٠ بوجوب محاربة مسلمي تونس لانهم كانوا يهددون مملكته الحديثة العهد فحاصر تونس واصاب جيشه الجوع والطاعون تحت أسوارها ومات لويس نفسه بهذا الوباء فباع امراؤه الصلح للمسلمين وكان اكثرهم ربحا في هذا السوق ملك صقليا وكانت هذه التجريدة خاتمة الحروب الصليبية في الشرق.

على ان هذه الحروب مع ما جرته من البلايا العظيمة جاءت بنتائج حسنة منها حصول الاتصال بين اوربا وآسيا ومنها ضعف شوكة الشرفاء ونهضة العامة من فلاحين وشركاء للخروج من الرقّ الذي كانوا فيه ومنها اتساع نطاق التجارة واجتلاب انواع جديدة من المزروعات والسلع الى اوربا.

﴿ فصل ﴾

﴿ في الحروب الصلبية التي وقعت في الغرب ﴾

تبينا مما تقدم ان الحروب الصلبية التي جرت في الشرق لم يفلح فيها القائمون بها بخلاف ماوقع من مثلها في الغرب فقد نشأت عنها مملكتان جديدتان هما بروسيا واسبانيا وتمت بها وحدة فرنسا

ولقد عرفنا فيما سبق قيام رهبنة المرضين المتجندين في القدس فانها سميت برهبنة التوتونيين ولم تلبث ان أثرت ونمت نمواً عجيباً فجعل فريدريك الثاني أميراً من أهل بيته رئيساً لها.وفي سنة ١٢٣٠ حرض وصي ملك بولونيا هؤلاء الرهبان على تنصير البروسيين فيما بين نهري النيامن والفيستول فاعملوا فيهم السيف وادخلوا من بقي منهم في دينهم . وفي ذلك الوقت كان الرهبان المسمون بحملة السيف آخذين في تنصير أهل البلاد المجاورة للبروسيين فوقع الاتفاق بينهم وبين التوتونيين على ان ينضم الفريقان وتتألف منهما رهبنة واحدة وادخلوا بروسيا واستونيا وليفونيا وكورلاندا في سلسلة البلاد الاوروبية المسيحية المتمدنة وبقيت لهم السطوة الكبرى في الشمال الى القرن الخامس عشر .

وكان سكان غرب فرنسا قد ذهبوا في الدين مذاهب أبعدتهم كثيراً عن الاورثوذكسية وسموا بالالبيجو نسبة الى مدينة البي التي كانت محور رحاهم فتخوف اينوسان الثالث من سريان عدوى هذه الافكار وأنفذ رسولا الى ريموند السادس كونت دي تولوز ليأمره بان « يدوس برجله ذلك العش الذي يخرج منه الفساد » فأبى وذهب أحد أتباعه بدون علم منه فقتل رسول البابا (١٢٠٨) فقام عند ذلك جمهور من الرهبان يعظون بوجوب اقامة حرب دينية « صليبية » على أولئك الاشرار وافذ انهم فوثب كثيرون من

نبلاء الشمال وأتوا غربي فرنسا في سبيل الله والانعامات الروحية التي منحهم اياها البابا كما منحها للمجاهدين في حروب الشرق الصليبية فذبح خلق كثير في المعارك التي حدثت ونزعت أملاك كثيرين من الشرفاء الغربيين وآل الى لويس بن فيليب اغسطس ملك فرنسا مع انه لم يشترك في هذه الحرب الا في أواخرها وكانت هذه النتيجة خطوة عظيمة في طريق وحدة فرنسا.

ومن الحروب الصليبية التي كان لها الشأن الكبير في الغرب حرب إسبانيا التي مر بك ذكرها في تاريخ الاندلس. فان كارلوس مارتل وبيبن القصير لما طردا العرب من فرنسا اكتفيا باقصائهم الى ماوراء البرانس الى شبه جزيرة ايبيريا أو اسبانيا فانحصر فيها المسلمون وأهلها المسيحيون كأنهم في ميدان مسور واستمرت بينهم الحروب ستة قرون. وكانت موقعة شريش التي انتصر فيها طارق على رودريك ملك الويزيقوط سنة ٧١١ أول ما وطد السيادة العربية على اسبانيا توطيداً مكيناً فاضطر بلاج ملك استوريا ورفاقه ان يلجأوا الى ما وراء كانتابر وهي فرع من جبال البرانس باسبانيا وشيدوا جيهون قاعدة لمملكتهم وفي سنة ٧٦٠ تقدموا خطوة الى الجنوب فاتخذوا مدينة اوفيدايو عاصمة أخرى لهم ثم مدينة ليون وسميت المملكة التي قامت فيها باسمها. ولما عظمت شوكة شارلمان حمى هذه البلاد من أعدائها وكان قد

أسس عمالات شمالي نهر الابر فنشأت منها في سنة ٨٣١ بلدان مسيحية مستقلة كمملكة نافاريا وكونتية برشلونه ثم نشأت فيها بين هذين البلدين بلدان أخرى ذات صولة فكان مجموع هذه الممالك والولايات المستقلة المسيحية نظير سلسلة مستندة الى الجبل معززة به . وفي آخر القرن التاسع وصل الفونس الكبير ملك اوفيدايو الى نهر الدورو وتجاوزه. الا ان خلافة قرطبة استرجعت صولتها في القرن العاشر بسيف عبد الرحمن الثالث الذي غلب المسيحيين وردهم على اعقابهم ثم بسيف المنصور الذي أخذ مراكزهم على نهري الابر والدورو وظهر عليهم في خمسين موقعة ولكنه انكسر في موقعة كبيرة بعد سنة ٩٩٨ وزالت بزواله عظمة الخلافة وفي القرن الحادي عشر انقسمت خلافة قرطبة وتقدم النصارى. وكانوا قد تحالفوا وعادوا الى الجهاد فاستولى الفونس السادس على طليطله (١٠٨٥) وأعادها كرسيا للملك كما كانت في عهد الويزيقوط. وبعد ذلك بخمس سنين زحف هنري دي بورغوني شقيق روبرت ملك فرنسا فاستولى على مصابّ الدورو فاقطعه الفونس اياها كونتية، وفي الوقت نفسه كان رودريك دي بيفار المشهور بالسيد يتقدم غانما منصوراً على ساحل البحر المتوسط حتى أخذ فالانس (١٠٩٤) وفي سنة ١١١٨ فتح الفونس الاول ملك ارغوان مدينة سرغسطه. فاستنجد العرب بالمغاربة الافريقيين سنة ١٠٨٦ فاتوا بقيادة يوسف صاحب

مراكش ومزقوا الجيش النصراني في موقعة الزلقه واخذ الخلافة يوسف ثم استرجع فالانس بعد وفاة السيد (١٠٩٩) وفتح جزائر باليار وانتصر على الفونس السادس انتصاراً عظيماً في اوكاس سنة ١١٠٨ ولما حاصر طايطه ردت جنوده على اعقابهم مراراً وظفر عليهم الفونس بن هنري دي بورغوني ظفراً مبيناً في اوريك (١١٣٩) فأضاف ضفاف نهر التاغوس وبعض المراكز مما وراءه الى البورتغال وكان قد لقب نفسه ملكاً عليها قبل منازلته للمغاربة

وفي القرن التالي (١٢١٠) دخل اسبانيا ٤٠٠٠٠٠ من المراكشيين الموحدين فتحالف الملوك الاسبانيون عليهم واوقعوا بهم في معركة لاس نافاس دي تولوزو . ولم يلبثوا ان اخذوا منهم قرطبة (١٢٤٦) واشبيليا (١٢٤٨) ومرسيه (١٢٦٦) بعد ان فتحوا جزائر باليار (١٢٤٤) وهكذا حصروهم في مملكة غرناطه الصغيرة فتركوهم فيها قرنين كاملين لاشتغالهم بمسائل خارجية طرأت عليهم ولم يعودوا الى محاربتهم الا في سنة ١٤٩٢ وقد أعدنا وصف هذه الحوادث بالايجاز ليعلم وجه قيام الافرنج بها .

الباب الاربعون

﴿ في الحالة الاجتماعية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ﴾

﴿ فصل ﴾

(في تقدم سكان المدن)

نتج من استقلال الشرفاء باقطاعاتهم والنزاع الذي قام بين البابا والامبراطور والحروب الصليبية المختلفة ان عامة سكان المدن التي كانت مسترقة كما كان الفلاحون والشركاء مسترقين في القرى تنبهت ونهضت وأخذت تثور تارة وتجامل أخرى لتستمنح من الامتيازات ما يؤمنها على أرواحها وأموالها وأعراضها فنالت مطالبها شيئاً بعد شيء ونشأت طبقة جديدة من الناس هي طبقة الرجال الاحرار على مثل ما كانوا في رومه فجدوا في طلب العلم والمكاسب بالتجارة والصناعة والزراعة وتألفت منهم شركات ذات اموال طائلة وبأس مرهوب وأصبح لهم شأن في الممالك ففي فرنسا تألف منهم فريق في مجلس النيابة عن الامة وكان يعرف بالفريق الثالث لمجيئه في الترتيب بعد الكهنة والشرفاء وفي انكلترا انتدب منهم نواب للبرلمان منذ سنة ١٢٦٤ وفي ايطاليا الفوا الجمهوريات والعصابة اللمبردية التي انتصرت على باربروس .

وفي القرن الثاني عشر أفادت هذه النهضة المسترقين من

فلاحين وشركاء في المزارع فاخذ السادات يعتقونهم وشرعت المحاكم تقبل شهادتهم واصبحت لهم حقوق كما كانت عليهم واجبات

﴿ فصل ﴾

﴿ في التقدم العقلي ﴾

لما زادت الثروة وانتشرت كثرت الحاجات النفسانية ففتحت المدارس والكليات الكبرى نظير كليات باريس (١٢٠٠) ومونبليه واورليان وكمبردج واوكسفورد وسالامنك ونبغ جماعة من اكابر العلماء في اللاهوت كتوما الاكويني وبوناونتورا وفي الفلسفة والعلوم الطبيعية وغيرها كالبرت الكبير الالماني وروجر باكون الانكليزي ودنس سكوت الانكليزي وفنسان بوفي صاحب موسوعات العلوم في ذلك العصر وكان باكون قد اكتشف البارود والزجاج المجسم للمرئيات وهذا جل ما بلغه أهل زمانه من التقدم في المعارف الطبيعية

وكذلك وجدت جماعة من كبار الادباء والكتاب والشعراء في فرنسا والمانيا وانكلترا وأيطاليا .

أما الهندسة البنائية وتزويقها وزخارفها فبلغت الكمال في القرن الثالث عشر. تشهد بذلك اكثر الكنائس والقصور الباقية في اوروبا الى هذا اليوم

الباب الواحد والاربعون

في انضمام اشتات مملكة فرنسا (٩٨٧ -- ١٣٢٨)

فصل

في المتقدمين من آل كابت (٩٨٧ - ١١٠٨)

كانت أسرة كابت على ضعف شديد في أول أمرها وقد قضى هوغوس كابت تسع سني ملكه (٩٨٧ — ٩٩٦) في منازعة آخر سليل للكارلوفنجيين والسعي لاخضاع أهل الجنوب. وقبل وفاته توج ابنه روبرت ليتحقق وراثته له. وقد عرض بعد ذلك على روبرت تاج ايطاليا فرنضه ليتفرغ لشؤون مملكته واستولى بالارث على دوقية بورغانيون (١٠٠٢)

وخلف روبرت هذا هنري الاول (١٠٣١) ثم فيليب الاول (١٠٦٠) فلم يفعلا فعلاً يذكر ولكن اتباع فيليب من الاقطاعيين حاربوا الصليبيين وافتتحوا انكلترا بغير ان يشترك معهم. وبقيت المالكية من القرن التاسع الى القرن الثاني عشر اسما بلا مسمى ثم بدأت الثورة التي توحدت معها السلطة في البلاد بيد فيليب أوغسطس. ومعلوم ان الوحدة الحقيقية لم تتم الا في عهد لويس الرابع عشر.

فصل

في لويس السمين (١١٠٨ — ١١٣٧)

ان عهد لويس السادس كان بدء النهضة الملكية في فرنسا بعد تولي آل كابت

وقد حارب هذا الملك الباسل أكثر الشرفاء الصغار الذين كانوا يقطعون الطريق على التجار فقهرهم وأيد نهضة الشعب لطلب استقلال المدائن في غير أملاكه وحارب ملك انكلترا هنري الاول ليحمله على اقطاع نورمانديا لابن أخيه غليوم كليتون فلم يفلح (١١١٩) وفي سنة ١١٢٤ حارب هنري الخامس امبراطور المانيا ففاز عليه وأكره الفلمنك على قبول كلفتين كونتاً عليهم (١١٢٦) وجعل غليوم التاسع دوق اكيتانيا تحت سيادته. وزوّج ابنه لويس من ابنة هذا الدوق التي كانت وارثته الوحيدة .

﴿ فصل ﴾

﴿ في لويس السابع (١١٣٧ — ١١٨٠) ﴾

ولما تم هذا الزواج للويس السابع أضاف الى أملاك أبيه اكيتانيا وبواتو وليموزين وبوردليز واجانسيس ودوقية غسقونية وأصبحت له السيادة على بويغور وأوفرنيه ومارشه وسنتونج وانغوموا وغيرها . وحدث انه في محاربته لكونت شامبانيا أحرق ١٣٠٠ نفس في كنيسة فتري فندم على ما فعل وسافر الى الحرب الصليبية للتكفير عن جنايته غير انه لما رجع طلق امرأته وردلها أملاكها الواسعة فأخر بذلك تمام توحيد السلطة في فرنسا الى ثلاثة قرون . وتزوجت الملكة الطالق بهنري بلانتجنه كونت

دانجو ودوق نورمانديا ووارث تاج انكلترا فانحصرت أملاك لويس السابع بين هذه الاملاك الواسعة ولكنه كان له حق السيادة عليها ولم يكتف بذلك بل حالف الكهنة ليكونوا أعوانا له على خصمه عند مسيس الحاجة .

﴿ فصل ﴾

﴿ في فيليب ارغسطس — ١١٨٠ ﴾

هذا الملك آخر من توج من آل كابت قبل جلوسه على العرش . واول ما فعله انه طرد اليهود وسلبهم اموالهم وسلم الهراطقه للكنيسة ليستميلها اليه وأخذ يشهر حروباً صغيرة على الشرفاء الصغار فاكتسب بها عمالات فرماندوا وفالوا واميانوا ثم ذهب للحرب الصلبية ورجع منها بعد قليل واتفق مع يوحنا سان تير شقيق ريكاردوس ملك انكلترا على خلعه ولكن ريكاردوس عند ما خرج من الحبس رجع الى انكلترا مغضباً ثم أتى فرنسا وأثار الحرب في جنوبيها فتداخل البابا اينوسان الثالث وجعل الملكين يتهادنان خمس سنين وبعد الهدنة بشهرين اصاب ريكاردوس وهو يحاصر احد حصون ليموزين سهم قتله (١١٩٩)

وكان الحق بتاج انكلترا لابن أخ ليوحنا سان تير فاغتصبه يوحنا وقتل ابن أخيه (١٢٠٣) فكاف فيليب اوغسطس القاتل

ان يمثل لدى محكمته للاجابة عما جناه فأبى فعاقبه فيليب بان أخذ كل مراكزه في نورمانديا والحق بريتونيا باملاكه (١٢٠٤) وعلى أثر ذلك احتل البواتو وتورينو وأنجو فتحالف عليه سان تير وصهره اوتون دي برونسويك امبراطور المانيا وشرفاء هولانده فالتقاهم فيليب بجيش جرار وانتصر عليهم في بوفين انتصاراً دوى في أطراف البلاد دويا عظيما (١٢١٤) وقبل وفاته (١٢٢٣) اعترف له بالسيادة أموري دي مونفورفامتدت بذلك أملاك تاج فرنسا من البيريناي الى البحر المتوسط . وفي عهد فيليب تحولت مدرسة باريس الى كلية ووضعت المملكة تحت نظام وقيود قانونية وسورت مدينة باريس وحليت في داخلها .

وكان فيليب قد تزوج (١١٩٣) بانجبورج من آل دنمرك ثم هجرها وأحل محلها معشوقة له فغضب البابا وأنذره طويلا ثم حرمه فعاد الى زوجته المحللة بمقتضى قرار مجمع سواسون (١٢٠١) وفي آخر حرب البيجوا الصابية التي تقدم ذكرها أرسل فيليب ابنه ليشترك فيها واما هو بنفسه فلم يدخل فيها .

﴿ فصل ﴾

﴿ في لويس الثامن (١٢٢٣) والقديس لويس (١٢٢٦) ﴾

قبل ان يركب هذا الملك تخت فرنسا حاول يوحنا ملك

انكلترا انتصاراً لجماعة البارونية الذين كانوا ثائرين عليه ثم أرسله ابوه للاشتراك في حرب الجنوب (البيجو) فافتتح افينيون ونيم والبي وكاركاسون وعند رجوعه توفي باصابة وبائية (١٢٢٦) . وكان ابنه لويس طفلاً فاراد البارونية ان ينزعوا الوصاية من يد امه بلانش دي كاستيليا واعتصبوا عليها ثم انتهت المشكلة بفوز الملكة (١٢٣١)

وكان ريموند السابع في سنة ١٢٢٩ قد وقع على معاهدة باريس وترك بمقتضاها كل ولاية لنجدوك السفلى لفرنسا . وجعل الولاية العليا مهراً لابنته الوحيدة التي كانت خطيبة الفونس شقيق الملك كونت دي بواتو واوفرنيا . ومنح قسماً من بروفنسا العليا للبابا . وكان روبرت الشقيق الآخر للملك لويس صاحب كونتية ارتوا في سنة ١٢٣٧ ثم استزاد عليها انجو ومانه . وفي سنة ١٢٤٦ استزاد بروفنسا بتزوجه من ابنة صاحبها وفي سنة ١٢٦٨ جلس على سرير مملكة نابولي بعد انتصاره على آل سواب فازدادت بهذه الاملاك الجديدة عظمة آل فرنسا

﴿ فصل ﴾

﴿ في موقعة تايابرج (١٢٤٢) ﴾

وفي سنة ١٢٢٤ أخمد القديس لويس ثورة قام بها الشرفاء

وعضدهم فيها هنري الثالث ملك انكلترا وعلى أثرها عقد مع هذا الملك معاهدة رد له بمقتضاها ليموزين وبريغور وكيرسي واجينوا بشرط ان تكون له السلطة العليا عليها واستبقى لنفسه نورمنديا وتورينوانجوا وبواتو ومانه . وعلى هذا المثال عامل ملك أراغون فانه ترك له كونتية برشلونه مقابل تنازله له عن جميع حقوقه في املاكه الموجودة في فرنسا (١٢٥٨) .

وان فضائل لويس جعلته المتقدم بين ملوك اوروبا وقد تولى الوساطة بين اينوسان الرابع وفريدريك الثاني ثم بين ملك انكلترا وبارونيته الذين ثاروا عليه عند ماوضع دستوراوكسفورد .

وقد ذكرنا ما كان من شأن هذا الملك في تجريدتيه الصليبيتين . اما في داخليته فقد صرف همه لدفع المظالم وصد فتن الشرفاء وأمر بكف البراز القضائي في أملاكه وسن القوانين ونشط الادباء وأرباب الفنون وكان أول من دعا المتقدمين من الشعب الى مجلس استشارته .

﴿ فصل ﴾

﴿ في فيليب الثالث (١٢٧٠) وفيليب الرابع (١٢٨٥) ﴾

لما رجع فيليب الثالث من تونس الى فرنسا بجثة أبيه كان عمه الفونس قد مات فورث املاكه الواسعة وضمها الى املاك التاج

ثم زوّج كبير ابنائه من وارثة نافاريا وشامبانيا تمهيداً لضمهما الى التاج أيضاً

وفي عهد هذا الملك ذبح الفرنسويون في صقليا وكانت علامة هذه المذبحة قرع الاجراس للدعوة الى صلاة المساء (١٢٨٢) واذ كان ملك اراغون احد المحركين لهذه الثورة أقام عليه فيليب حربا لم تنته الا في سنة ١٢٩١ بعقد معاهدة للصلح .

وفي سنة ١٢٨٥ توفي ملك فرنسا . وخلفه ابنه فيليب الرابع الملقب ليبل وعزز المملكة في داخلها . ووقعت خصومة بين فلاحين فرنسويين وانكليز فجرت حربا بين الدولتين غنم فيليب فيها مقاطعة فلاندر وحبس حاكمها في قلعة اللوفر .

﴿ فصل ﴾

﴿ في الخصومة بين الملك والبابا ﴾

واحتاج فيليب الى النقود لمتابعة هذه الحرب وللقيام بنفقات حكومته التي زادت حاجاتها بمقدار ما اتسع نطاقها فاستباح أموال اليهود . وجعل يخفض قيمة النقود ويرفعها وفرض عوائد على الكهنة فاحتج عليه البابا بونيفاس الثامن وحرم كل كاهن يؤدي ما عليه من الضريبة بدون اذنه كما حرم من يضع ضريبة كهذه « ايا كان » (١٢٩٦) . فعاقبه فيليب على هذه المقاومة بان حظر على جميع الناس اخراج النقود من المملكة بدون اذنه وبهذه الوسيلة قطع عن البابا

دخله فارسل اليه في سنة ١٢٠٠ اسقفاً يدعى برنارساسه ليخاطبه في هذا الشأن فشمخ بانفه امام الملك وأهانه فالقى القبض عليه فحرمه البابا(١٣٠١) فعقد فيليب أول جمعية للنواب (١٣٠٢) وكانوا ثلاثة أقسام الشرفاء والكهنة ومندوبي الشعب فوافقته على مافعل وما أراد فاصدر منشوراً يقضي بخضوع السلطة الروحية للسلطة الزمنية وتهدد البابا بانه يعطي تاج فرنسا لامبراطور المانيا وفي سنة ١٣٠٣ قام رجل متشرع يدعى غايوم نوغاره واتهم البابا بالخروج عن المذهب الصحيح ثم متشرع آخر وعرض على الملك ان يعقد مجمعاً يدعو اليه بونيفاس الثامن لمحاكمته . ولكن الملك ارسل غليوم نوغاره الى البابا ليناقشه في الدين بشدة ويخيفه وكان هذا الرسول مصطحباً رجلاً ايطالياً فلما اشتدت المحاورة بين البابا وغليوم ضرب الايطالي البابا بقفازه الحديدي على وجهه فلم يلبث ان مات من حنقه (١٣٠٣)وتوصل الملك الى استخلافه باحد صنائعه وهو بنوا الحادي عشر ثم بآخر وهو اكليمندوس الخامس الذي نقل الكرسي المقدس من رومه الى افينيون (١٣٠٩)وكانت مدة اقامته واقامة خلفائه فيها سبعين سنه دعوها باسر بابل لشدة ما احتملوا فيها من مضايقات فرنسا .

﴿ فصل ﴾

﴿ في اهلاك الرهبان الهيكليين (تامبليه)

عندما جاس اكايمندوس الخامس على الكرسي البابوي استصدر منه فيليب حكماً قاضياً بتقبيح ذكر البابا بونيفاس المتوفى وحكماً آخر قاضياً بتذنيب الرهبان الهيكاليين وفي ١٣ اكتوبر من سنة ١٣٠٧ قبض عليهم في جميع انحاء فرنسا وحوكموا وعذبوا حتى اذا أخذت منهم الاقرارات بالجرائم المنسوبة اليهم عقد الملك جمعية النواب في مدينة تور (١٣٠٨) فقضت عليهم بانهم يستحقون القتل فاحرق منهم ٥٤ في سنة ١٣٠٩ واهلك رئيسهم جاك موله في سنة ١٣١٤ واستولى على ما كان لهذه الرهبنة من الاملاك الواسعة والاموال الطائلة .

﴿ فصل ﴾

﴿ في ثورة أهل فلاندر ﴾

كان فيليب قد استعمل على أهل هذه المقاطعة رجلا قاسياً ظالما فثاروا وفي مقدمتهم جاك دي شاتيليون على النبلاء وكسروهم في كورتراي (١٣٠٢) غير ان الملك فيليب انتقم منهم باستظهاره عليهم في موقعة أخرى (١٣٠٤) ولكنه مع ذلك لم يبق له من فلاندر الا مدائن ليل ودواي واورشيه .

﴿ فصل ﴾

﴿ في آخر الكابتيين من السلسلة الاصلية (١٣١٤ — ١٣٢٨) ﴾

لما رأت العامة في عهد لويس العاشر ان الملوك اصبحوا يميلون عنها الى الشرفاء تحركت وقتلت وزراء فيليب الرابع انتقاماً وانذاراً . وفي سنة ١٣١٦ توفي لويس وخلفه اخوه فيليب اغتصاباً اذ كان الحق بالتاج لابنة اخيه ولكنه استصدر قراراً من النواب بان لا تجلس انثى على عرش فرنسا . وكان هذا القرار من القواعد الاساسية التي جرت عليها فرنسا وسمي بالقانون السالي . ثم ان فيليب هذا توفي عن ابنة له فخلفه دونها اخوه كارلوس الرابع ليبل (١٣٢٢) وهذا توفي عن ابنة ايضاً فانتقل التاج الى ابن أخ لفيليب الرابع وكان رأس الفرع الكابيتي من آل فالوا (١٣٢٨) غير ان ادوارد الثالث ملك انكلترا حفيد ليبل ادعى انه الوارث الشرعي وكان ذلك سبب الحرب الجسيمة التي عرفت بحرب المئة السنة

﴿ الباب الثاني والاربعون ﴾

﴿ في نشأة الدستور الانكليزي ﴾

﴿ فصل ﴾

﴿ في الغارة النورمندية ﴾

رأينا فيما سبق تنازع السكسونيين والدنيمركيين في انكلترا . وبعد وفاة كانوت الكبير (١٠٣٦) . دخل في

هذا النزاع عنصر ثالث وهو عنصر النورمانديين. وذلك ان الامراء ذوي الاصل السكسوني كانوا قد لجأوا الى نورمنديا بفرنسا بعدما انتزعت منهم سلطتهم وأموالهم فلما جلس ادوارد الملقب بالمعترف على عرش انكلترا استدعى كثيرين من النورمنديين وقربهم اليه ووزع عليهم الابرشيات الكبرى فغار السكسونيون منهم وتوصلوا الى طردهم بصولة زعيمهم غودوين. ولما مات غودوين خلفه ابنه هارلد وسافر الى نورمنديا فاعتقله غليوم الى ان وعده بانه يساعده على ركوب سرير انكلترا بعد ادوارد. غير ان الانتخاب وقع على هارالد (١٠٦٦) فتناسى وعده وذهب الى الشمال لردغارة النروجيين فاستعد غليوم في هذه الاثناء لفتح انكلترا وأذن له بذلك البابا لانه كان مستاء من عدم تأدية الانكليز للضريبة المسماة بضريبة القديس بطرس فانتصر على هارلد وقتله في موقعة هاستنس (١٠٦٦) واستولى على البلاد فاستمر السكسونيون يقاومونه مستعينين تارة بأهل غاليا البريطانيين (١٠٦٧) وطورا بالنروجيين (١٠٦٩) الى ان خابت آمالهم فلجأ كثيرون منهم الى الغابات كراهة ان يحملوا ربقة النورمنديين

﴿ فصل ﴾

﴿ في صولة الملوك النورمنديين في انكلترا ﴾

قسم غليوم انكلترا بين رفاقه على اختلاف اقدارهم ومنهم

وأمر بمسح الاراضي فتم ذلك من سنة ١٠٨٠ الى سنة ١٠٨٦ لتتميز به الاملاك بعضها من بعض وكان عدد الذين وزعت عليهم ست مئة بارون يليهم ستون الفاًمن الفرسان (شفاليه) وفوق الجميع الملك الذي استبقى لنفسه ١٤٦٢ قصراً بتوابعها وجميع المدائن الكبيرة. وكان هؤلاء الملاك المستحدثون من كبار وصغار تابعين مباشرة للملك يقسمون له يمين الطاعة والامانة. وسنرى ان هذا التقسيم المحكم والنظام الذي لم يوجد مثله في أوروبا هو الذي قامت به قوة انكلترا.

﴿ فصل ﴾

﴿ في غليوم الثاني (١٠٨٧) وهنري الاول (١١٠٠) واتيان (١١٣٥) ﴾

توفي غليوم الفاتح سنة ١٠٨٧ في حملة له على ملك فرنسا فيليب الاول لانه كان قد فتح القسم الفرنسوي من مقاطعة فكسين فخلفه ابنه غليوم الثاني على انكلترا وابنه روبرت «ذو الفخذ القصير» على نورمنديا. وقد حاول روبرت ان ينتزع من أخيه تاج انكلترا فلم يفلح فسافر للاشتراك في الحرب الصليبية وفي أثناء غيابه مات أخوه غليوم الثاني فجلس أخوه الاصغر هنري الاول على عرشه فلما طالبه روبرت بحقه الذي اختلسه ظهر عليه هنري في موقعة تينشبري (١١٠٦) وضم نورمنديا الى

انكلترا ثم حارب لويس السمين وقد حاول ان يستخلف ابن روبرت غليوم كايتن على دوقية نورمنديا كما سبق الالماع الى ذلك فنكل بجيشه (١٠١٩) ولما انتقل هنري الاول الى الدار الاخرى كان الحق بخلافته يأول الى ابنته ماتيلده ارملة الامبراطور هنري الخامس وامرأة جوفروا بلانتجنه كونت انجو غير أن اتيان دي بلوا ابن أخي الملك المتوفى اغتصب تخت الملك فحاربته الاميرة مستعينة عليه بحلفائها اهل اسكتلنده فاستظهر على جيشهم ولكنه لما لاقى جيش الاميرة غلب وأسر ومع ذلك وقع الاتفاق بين الفريقين على أن اتيان يستمر متقلداً زمام الملك ثم يخلفه هنري دانجو ابن الاميرة المشار اليها .

{ فصل }

{ في هنري الثاني — ١١٥٤ }

وكانت أم هنري بلانتجنه قد تنازلت له عن نورمنديا ومانه سنة ١١٥١ بعد ان ورث من أبيه انجو وتورينو فلما تزوج في السنة التالية ايليونورا مطلّقة لويس ملك فرنسا ضم املاكها الواسعة الى أملاكه وكانت مقاطعات بوانيه وبوردو وأجن وليموج عثاراً لها ومقاطعات اوفرنيا واونيس وسانتونج وانجوموا ومارشه وبريفور تحت سيادتها وكل ذلك اخذه هنري مهراً من قرينته وفي سنة

١١٥٤ جلس على أريكة انكلترا في الواحدة والعشرين من عمره ولما شب أحد ابنائه زوجه من وارثة اقطاعة بريتونيا . فاصبح بذلك ذا قوة هائلة ولكنه أضاعها في محارباته الكثيرة ولابنائه الذين عصوه .

وكان غليوم الفاتح قد اعفى القسوس من المحاكمة في غير المحاكم الكنسية فنتجت عن ذلك منكرات كثيرة أراد هنري الثاني ان يضع لها حداً فعين أحد مقربيه توماس بيكت رئيساً للاساقفة في كانتوربري . ثم عقد جمعية في كلاراندون قررت ان يحاكم أهل الكهنوت امام المحاكم الاهلية كسائر الناس وانه لا يجوز لكاهن ان يخرج من انكلترا بدون اذن الملك وان الملك يكون صاحب السلطة على كل ابرشية أو اقطاع كنسي بموت متوليها وانه يستغل ايرادها مدة خلوها من خلف للمتوفى . فلم يوافق بيكت على هذا القرار وفر الى فرنسا من وجه الملك ثم أصلحهما ملك فرنسا فعاد رئيس اساقفة كانتوربري الى انكلترا مصراً على رأيه فعيل صبر هنري وهدده بمسمع من بعض الفرسان فظنوا التهديد ارادة حقيقية للملك وقتلوا بيكت في داخل الكنيسة (١١٧٠) ولما رأى هنري ما كان من الكدر العام الذي احدثته هذه الجناية عدل عن قرار كلاراندون وتاب وصلى على قبر « الشهيد » . على أنه كان ولا ريب يأبى ان يتذلل الى هذا الحد لو لم يخف ان يقع عليه

حرم رومه بينما هو مستغرق الوقت في محاربته لابنائه . أما أبناؤه فهم هنري كورت مانتل دوق مانه وانجو وريكاردوس قلب الاسد دوق آكيتانيا وجوفروا دوق بريتونيا وفي المدة الاخيرة من عصيانهم لوالدهم انضم اليهم أخوهم يوحنا سان تير . وتوفي ذلك الملك الشقي في أثناء هذه الحرب التي أقامها على بنيه وعلى ملك فرنسا الذي كان آخذاً بنصرتهم . وكان في سنة ١١٧١ قد فتح شرقي ارلندا وجنوبيها .

﴿ فصل ﴾

﴿في ريكاردوس (١١٨٩) ويوحنا سان تير (١١٩٩)﴾

خلف ريكاردوس أباه وعرفنا ما كان منه في الحرب الصليبية وفي عوده منها وحين أدركه أجله خلفه أخوه يوحنا سان تير وكان خلوا عن كل فضيلة حتى الشجاعة . وقد فقد تورينو وانجو ومانه ونورمنديا وبواتو (١٢٠٣ — ١٢٠٥) لجناية ركبها وعاقبه عليها فيليب اغسطس كما رأيناه ثم شرع في تجديد منازعات أبيه للكنيسة بدون تعقل فحرمه البابا وأذن لاغسطس ان يفتح انكلترا فتذلل يوحنا له ووعده بحمل الجزية اليه واعترف بانه تحت سيادته (١٠١٣) ثم أراد الانتقام من فرنسا فحاربها مع الحلفاء الذين استنصر بهم عليها فكسروا في موقعة بوفين على ما علمناه ولما رجع يوحنا الى

جزيرته وجد البارونية ثائرين عليه واضطروه الى التوقيع على ماسمي بالتعهد الكبير (١٢١٥) وهو تعهد كان أساس النظام الدستوري الانكليزي ضمن به الملك بقاء امتيازات الكنيسة على ما كانت عليه ووعد بانه لايتجاوز ما وضعه هنري الاول من الرسوم على الزواج والحماية وغيرها وان لايفرض ضريبة بدون موافقة المجلس العام عليها وان يمنح الحرية الشخصية والاستقلال للقضاة والمحلفين بما يكفل للمتهمين العدل في الاحكام . ومن مقتضى هذا التعهد أيضاً ان تتألف لجنة من ٢٥ بارونا تناط بها مراقبة تنفيذ الدستور الجديد واستخدام جميع الوسائل لحمل الملك على تلافي كل خلل .

ولما انقضى الخطر اراد الملك ان يمزق التعهد وأذن له بذلك البابا فاستعان البارونية عليه بابن فيليب اغسطس وكادوا يملكونه على بلادهم لو لم يمت يوحنا (١٢١٦) فآثروا عند ذلك استخلافه بابنه وكان طفلاً قاصراً على ولي عهد فرنسا مع ما هو عليه من السطوة وما له من ضخامة الملك .

﴿ فصل ﴾

﴿ في هنري الثالث (١٢١٦) ﴾

كان هذا الملك بعد خروجه من الوصاية كثير البدوات وتقلب الافكار مستبداً بارادته لا يلوي على نظام او دستور

في أعماله . وقد غلبه القديس لويس في تايلبرج وفي سانت كما عرّفنا ولما انتخب أخوه ريكاردوس دوق كورنوايل امبراطوراً لالمانيا حمّل انكلترا من النفقات ما لا يطاق فنتج من كل ذلك ان ضاقت الصدور وحنق الناس عليه

﴿ فصل ﴾

﴿ في اول برلمان انكليزي (١٢٥٨) ﴾

وفي اليوم الحادي عشر من شهر يونيه سنة ١٢٥٨ انعقد الاجتماع الوطني الكبير في اوكسفورد للمرة الاولى وسمي فيها بالبرلمان رسمياً فأقنع البارونية الملك بان يعهد في اصلاح شؤون المملكة الى ٢٤ منهم اثنى عشر يعينهم هو واثنى عشر ينتخبونهم هم. ثم نشر هؤلاء المندوبون الاربعة والعشرون دستور اوكسفورد ومن مقتضاه ان يثبت الملك التعهد الكبير الاول وان المندوبين يعينون في كل سنة الوزير الاكبر ووزير المالية والقضاة وسائر الموظفين المنوطة بهم شؤون عامة وحكام القصور الخ . وان المخالفة لقراراتهم تكون جريمة من الجرائم الكبرى وان البرلمان يدعى للاجتماع كل ثلاث سنين . فاحتج هنري على هذا الدستور وحكم في الامر القديس لويس حكماً له فأبى البارونية قبول هذا الحكم وثاروا عليه مسلحين تحت قيادة كونت لايستر سيمون دي منفور

فأسروه بعد موقعة ايوس { ١٢٦٤ } وقام سيمون بالنيابة عن الملك فاصدر منشور سنة ١٢٦٥ القاضي بان ينتخب للبرلمان أثنان من الفرسان في كل كونتية واثنان من العامة في كل مدينة او قرية من الكونتية المذكورة . وكان ذلك أول نظام انتخابي في انكلترا

ولما تولى ادوارد الاول (١٢٧٢) احترم هذا الدستور وافتتح بلاد الغال (١٢٧٤ — ١٢٨٤)

ثم حارب زعماء أنصار الاستقلال الاسكتلندي في اسكتلنده فاستظهر على أولهم (١٢٩٧) وعلى ثانيهم (١٢٩٨) وعلى ثالثهم في السنة نفسها ولكن هذا الزعيم الثالث عاد فثار في عهد ادوارد الثاني الضعيف (١٣٠٧) وعلت كلمته وانتصر على جيوش الملك في موقعة بانوك بورن (١٣١٤)ففاز باستقلال بلاده .

وكان المتملقون والمتربون هم الذين يحتكمون في بلاط ادوارد الثاني بدلاً منه فنقم النبلاء واماتوا بعضهم شنقاً ثم قتلت ادوارد امرأته (١٣١٧). على ان القلاقل التي جرت في السنين الاخيرة جاءت مؤيدة للدستور الجديد الذي تأسس وتشيد وتوطد في أقل من قرن وكان الفضل في ذاك لاتحاد الخاصة مع العامة وتناصر الفريقين .

الباب الثالث والاربعون

في القسم الاول من حرب المئة السنة (١٣٠٨ ١٣٨٠)

فصل

في اسباب هذه الحرب وذكر فيليب دي فلوا « ١٣٢٨ » وادوارد الثالث « ١٣٢٧ »

كان ادوارد الثالث على ما قدمناه حفيداً من أمه لفيليب ليبل يتجاهل القانون السالي ويدعي ان له الحق بالملك على فرنسا . غير انه لما جلس فيليب دي فالوا على عرش تلك البلاد تظاهر بالاقلاع عن دعواه وكظم غيظه الى ان ثار الفلمنك بقيادة خماريدعى جاك آرتفات وخلعوا كونتهم الذي كان صديقاً لفرنسا وجعلوا ادوارد ملكاً شرعياً عليهم .

فصل

في المواقع التي جرت في فلمنك وبريتانيا[١] (١٣٣٧)

فابتدأت الحرب سنة ١٣٣٧ واستمرت ثماني سنين لم يحدث

(١) هو اسم مقاطعة فرنسوية نكتبه بهذا الرسم تمييزاً له عن لفظة بريطانيا التي هي اسم آخر لانكلترا .

فيها حادث ذو شأن سوى انكسار الاساطيل الفرنسوية في موقعة
بقرب مدينة اكلوس الهولندية { ١٣٤٠ }

وجرت ايضاً منازعة في بريتانيا بين كارلوس دي بلوا زعيم
الحزب الفرنسوي وجان دي مونفور صديق الانكليز فدارت
الدائرة على الاول مع أن جالك ارتفلت رئيس الثورة كان قد مات
وبقيت الصولة لانكلترا في بريتانيا وفلمنك

﴿ فصل ﴾

﴿في موقعة كريسي (١٣٤٦)﴾

وفي سنة ١٣٤٦ اشتد القتال فدخل ادوارد فرنسا ماراً بشبه
جزيرة كوتانتينا ووصل الى وسط نورمنديا وعزم ان يزحف منها
على باريس غير انه أعوزته الميرة فرجع نحو الشمال ليدنو من فلمنك
وكان فيليب دي فالوا في مقدمة ٦٠٠٠٠ مقاتل فلم يقطع الطريق
عليه لجهله ثم قاتله بقرب كريسي فانتصر الانكليز مع قلة عددهم
وقتلوا كثيرين من الفرنسويين واستخدموا المدافع في هذه المعركة
وكان ظهورها في ميادين القتال لاول مرة . ثم تراجع هنريـ
متقهقراً الى مدينة كاله ففتحها بعد حصار استمر سنة (١٣٤٧) وحفظها
الانكليز قرنين كاملين . ومن توفيقات هنري انه فاز فوزاً ثانياً
في اسكتلنده وبريتانيا وسجن رئيس حزب الاستقلال في الأولى

ورئيس الحزب الفرنسوي في الثانية .

﴿ فصل ﴾

﴿ في يوحنا الصالح (١٣٥٠) وموقعة بواتيه (١٣٥٦) ﴾

ولما استوى يوحنا الصالح على العرش (١٣٥٠) كانت فرنسا في حالة سيئة ناشئة عن الفشل السابق وفقد كاله ودعوى ملك نافاريا انه ذوحق بتاج فرنسا ورثه من أمه . وجاءت فوق ذلك مطالبة جمعية النواب التي عقدت في سنة ١٣٥٥ باصلاحات جمة أشبه بما تضمنه التعهد الكبير الانكليزي منها. ولكن انفاذها كان يستحيل في ذلك الوقت بالنظر الى حرج موقف فرنسا امام انكلترا.

وكان في جملة الاصلاحات المطلوبة مالا يرضي الشرفاء فتآمروا تحت رئاسة ملك نافاريا كارلوس الملقب بالرديء فقبض الملك يوحنا على كثيرين منهم كانوا مدعوين الى مأدبة في قصر ابنه كارلوس وقتلهم فانتهز الانكليز فرصة هذه الحركة الداخلية وأرسلوا دوق لانكاستر الى نورمنديا والامير المعروف بالاسود الى غويانه فتقدم الاسود الى اللوار فقطع عليه الملك الطريق بخمسين الف مقاتل ولكنه استعمل من الحكمة والدهاء ما جعله يفوز مع قلة رجاله فوزاً تاماً على الفرنسويين وذلك بقرب بواتيه

سنة ١٣٥٦ وأسر ملك فرنسا في هذه الموقعة .

﴿ فصل ﴾

﴿ في نهضة الشعب ﴾

وأحدث توالي الفشل وأسر الملك والسواد العظيم من النبلاء هرجاً بين الامة نخوّلت ادارة الشؤون العامة لنوابها تحت رئاسة وليّ العهد كارلوس. وكانوا قبل ذلك قد أبوا أن يأذنوا بفرض ضريبة جديدة وجمع اعانة للحرب حتى يطرد جمهور من كبار عمال المالية ورجال القضاء ويحاكموا على سوء سيرهم . ويؤلف مجلس منتخب من نواب الطبقات الثلاث الشرفاء والكهنة والعامة لادارة حركة الحكومة . ثم ان النواب عقدوا جمعيتهم في سنة ١٣٥٧ فزادت جرأتهم فالفوا لجنة اعضاؤها ستة وثلاثون لمراقبة كل عمل يجري في الحكومة وحملوا ولي العهد على اصدار مرسوم بلائحة الاصلاح الكبرى التي تعهد فيها بان لا يضرب ضريبة الاّ باذن النواب وأن يعهد في جباية الضرائب وانفاق دخلها الى المندوبين لذلك من قبلهم وأن يهذب القضاء ويمتنع عن التلاعب بالنقود وما شاكل ذلك . ثم ان ولي العهد لم ينفذ تعهده فثار أهل باريس لحمله على انفاذه ولكن أهل المدن الفرنسوية الاخرى لم يشتركوا معهم في ذلك لان الوقت الذي اختير لتلك الاصلاحات

كان غير مناسب فيئس اتيان مارسل لسان نواب العامة لاصرار ولي العهد على ابائه وذبح اثنين من وزرائه تحت عينيه لارهابه فكان فعله هذا والجنايات التي ارتكبها الفلاحون حين ثاروا بسبب المجاعة التي عضتهم بانيابها في أثناء الحرب مما أضعف سطوة حزب العامة ثم حدث ان مارسل المتقدم ذكره اتفق سراً مع ملك نافاريا على ان يسلم له باريس فكشفت دسيسته وقتل وبسقوطه سقط حزبه (١٣٥٨).

﴿ فصل ﴾

﴿ في معاهدة بيتيني — ١٣٦٠ ﴾

واذ تخلص ولي العهد من مارسل عقد معاهدة مع كارلوس الرديء ضمن بها ابتعاده وحياده ثم اتفق مع النواب على الغاء معاهدة وخيمة العواقب كان الملك قد وقع عليها للنجاة من أسره غير انه وقع على معاهدة أسوأ منها تعرف بمعاهدة بيتيني (١٣٦٠) وكان من مقتضاها ان يتخلى ادوارد عن المطالبة بتاج فرنسا وفي مقابلة ذلك يمنح ملكية اربع عشرة مقاطعة ومدينة بفرنسا. ومن متممات النحوس في عهد الملك يوحنا ان دوقية بورغونيا آلت الى التاج بانقراض اصحابها (١٣٦١) فاقطعها ابنه الرابع فيليب الجسور وتوفي سنة ١٣٦٤

{ فصل }

{ في كارلوس الخامس (١٣٦٤) ودوكيكاين }

فخلفه ولي العهد وسمي كارلوس الخامس ولقب بالحكيم (١٣٦٤ — ١٣٨٠) فاخرج فرنسا من وهدة الشقاء التي كانت فيها اذ أنه بعد ان ترك الاعداء في حالة النار تأكل نفسها وتحصن واستعد بحزم وتروّ حارب ملك نافاريا فقهره في كوشريل (١٣٦٤) وكان الفضل في هذا الانتصار لضابط بريتاني يدعى دوكيكاين رقاه الملك بعد ذلك الى رتبة كونيتابل وهي من أعلى رتب المملكة ثم أرسله الى بريتانيا ليضمها الى أملاك التاج فلم يوفق فيها بل أسر واضطر الملك ان يعترف بيوحنامونفور دوقاً عليها .

وفي سنة ١٣٦٩ تكدر الغسقونيون من مظالم الامير الاسود فاستغاثوا بكارلوس الخامس. فاستصدر حكماً بانتزاع هذه المقاطعة منه وكان ذلك اعلان حرب. وكان ادوارد غير مستعد لها وكارلوس على تمام الاهبة ومع ذلك ارسل ادوارد جيشاً انكليزياجراراً الى كاله في سنة ١٣٧٣ فاجتاز فرنسا الى بوردو ولكن لم يسلم منه الا ستة آلاف جندي ثم ان الانكليز لم يبق لهم من فتوحاتهم في فرنسا الا بايونه وبوردو وكاله عند ما توفي ادوارد الثالث (١٣٧٧)

وقد وفق كارلوس الخامس هذا التوفيق لدهائه وحكمته ومن

مزاياه انه كان محبا للعدل منشطا لاهل الآداب والمعارف، وهو الذي شيد المكتبة الملكية فكان فيها ٩٠٠ مجلد عندما ادركه اجله سنة ١٣٨٠

الباب الرابع والاربعون

« في فرنسا وانكلترا بعد ادوارد الثالث وكارلوس الخامس »

﴿ وذكر القسم الثاني من حرب المئة السنة ﴾

{ ١٣٨٠ — ١٤٥٣ }

﴿ فصل ﴾

﴿ في كارلوس السادس (١٣٨٠) وهبّة سكان المدائن ﴾

حالت الفتن والاضطرابات الداخلية دون استئناف الحرب مدة ٣٥ سنة (١٣٨٠ — ١٤١٥) بين فرنسا وانكلترا . وعندما ملك كارلوس السادس كان قاصراً فناب عنه في تولي الحكم أعمامه الاربعة وكانوا يظلمون ويقتسمون دخل المملكة حتى اذا ثقلت وطأة ما وضعوه من الضرائب الجديدة على العامة ثارت في باريس وفي مدائن أخرى كثيرة فقاتلها الاوصياء وعاقبوا بعض الثائرين عقوبات هائلة أخمدت أنفاس الباقين .ثم رجعوا الى باريس واستنزروا يعوّدون الملك على عيشته الرخاء والدعة والانهماك في الشهوات

حتى أصابه جنون فاختصم دوق بورغونيا عمه ودوق أورليان أخوه على خلافته الى أن أمات الاول الثاني بدسيسة (١٤٠٧). وعلى أثر هذه المنازعة وقعت حرب أهلية بين حزب من الشرفاء سموا بالارمنياك انتسابا الى زعيمهم كونت ارمانياك وحزب من الدوقة سموا بالبورغونيين انتساباً الى دوق بورغونيا ففاز هذا الفريق أولا وذبح كثيرين من الاعيان ثم فاز الارمانياك سنة ١٤١٣ من حين أعادهم حزب المعتدلين الى باريس وبعد ذلك بسنتين استؤنفت حرب المئة السنة .

﴿ فصل ﴾

﴿ في حدوث ثورة في انكلترا وذكر ويكلف ﴾

بينما كانت فرنسا مشتغلة بحربها الاهلية كانت انكلترا مبتلاة بمثل ذلك لان العامة فيها أصبحت لا تطيق اعباء سادتها ولان ذوي المتاجر أخذوا يفكرون في تأمين أموالهم من الاعيان الذين كانوا يسلبون كل شيء حتى أموال الكنيسة . وفي سنة ١٣٦٦ طالب البابا أوربانوس الخامس انكلترا بتأدية ما تأخر له عليها من الجزية التي وعده يوحنا سان تير بتأديتها للكرسي المقدس فأبى البرلمان ذلك عليه وانتهز هذه الفرصة راهب يدعى ويكلف فجعل يطعن على ترتيب الكهونت وتعاليم الكنيسة الخارجة عما ورد في الاناجيل وترجم

التوراة الى الانكليزية وبث افكاره في الامة بثا معجلا وهو مع ذلك آمن على نفسه مما أصاب العالم لولا رقباه حيث احرق حيا في كولونيا لابدائه مثل هـذه الاراء (١٣٢٢) ثم قام رجل يدعى جوهن بول من اتباع ويكلف وأخذ يعلم الناس « انه لم يكن في الدنيا شريف حين كان آدم يحرث وحواء تغزل » فأثر ذلك في العقول تأثيراً عظيما وكان تمهيداً لما أحدثه لوثير من الثورة المذهبية في القرن السادس عشر وديكارت من الثورة المعتقـدية في القرن السابع عشر ورجال الفلسفة من الثورة السياسية في القرن الثامن عشر .

﴿ فصل ﴾

﴿ في ريكاردوس الثاني (١٣٨٠) وذكر خلعه (١٣٩٩) ﴾

بعد ان جلس ريكاردوس الثاني ابن الامير الاسود على عرش انكلترا بسنة وصل ستون الف ثائر الى أبواب لندره (١٣٨١) وطلبوا الغاء الاسترقاق وحرية البيع والشراء في الاسواق الخاصة والعامة وما شاكل ذلك من المطالب العظيمة فمنحوا وعوداً شائقة ولما تفرق جمعهم اهلك منهم ١٥٠٠. وكان للملك أعمام ثلاثة أشره من أعمام لويس السادس فتولوا رئاسة حزب المعارضة له فقتل أحدهم بدسيسة وأهلك عدداً كبيراً من النبلاء فساد الخوف.غير

ان أحد المنفيين هنري دي لانكاستر دبر مكيدة عظيمة للملك فلم يشعر ريكاردوس الا وهو مخذول من الامة على اختلاف طبقاتها وعزله البرلمان « لانه خرق قوانين الامة ولم يراع امتيازاتها » (١٣٩٩) وبعد ذلك بسنة قتل الملك في سجنه

﴿ فصل ﴾

﴿ في هنري الرابع ومعركة آزنكور (١٤١٥) ومعاهدة تروي (١٤٢٠) ﴾

قضى هنري الرابع سني ملكه الاربع عشرة يشتغل بتأييد التاج لاهل بيته وعندما حضرت منيته اوصى ابنه باستئناف محاربة فرنسا ليشغل بها بارونيته عن الفتن فلم تكن سنة ١٤١٥ حتى انتصر الانكليز على الفرنسويين انتصاراً مبيناً فسقطت من أجل ذلك حكومة الارمانياك ودخل البورغونيون باريس فأسالوا الدماء فيها انهاراً (١٤١٨) ثم شرع الانكليز ينهبون نورمنديا ويأخذون مدنها واحدة بعد الاخرى . وفي سنة ١٤١٩ استولوا على روان . وفي هذه الاثناء قتل دوق بورغونيا ملك فرنسا وكان يدعى يوحنا الذي لايخاف فتحول ذوق بورغونيا الجديد المسمى فيليب الصالح الى الانكليز وحالفهم فأصبحت باريس وملكها في قبضتهم فعقد هنري الخامس مع فرنسا معاهدة تروي وقضى بها انه يكون هو الذي يخلف ملك فرنسا . ولذلك تزوج ابنته (١٤٢٠)

﴿ فصل ﴾

﴿ في كارلوس السابع (١٤٢٢) وقيام جان دارك (١٤٢٩) ﴾

وتوفي هنري وكارلوس في السنة الواحدة (١٤٢٢) فقام على فرنسا ملكان هنري السادس الانكليزي في باريس وكارلوس دي فالوا السابع في جنوبي نهر اللوار . وكان كارلوس السابع وحاشيته لا يفكرون الا في الملاهي فنتج عن ذلك ان انتصر الانكليز على جيوش هذا الملك في موقعتين احداهما في سنة ١٤٢٣ والاخرى في سنة ١٤٢٤ ثم طردوا عساكره من بورغونيا ونورمنديا وفي سنة ١٤٢٨ حاصروا أورليان وفتحوها (١٤٢٩) فظهرت عند ذلك جان دارك. وكانت هذه الفتاة من قرية دومريمي على تخوم اللورين فأتت بلاط كارلوس السابع زاعمة انها مرسلة من الله لانقاذ اورليان وتتويج الملك واعجب الناس بفضائلها وايمانها وعواطفها الوطنية فتبعها جمهور كبير من الضباط الباسلين فاخلت اورليان من الانكليز في عشرة ايام (١٤٢٩) ثم انتصرت عليهم في باتاي وأسرت قائدهم وذهبت بالملك الى مدينة رمس فتوج فيها. وعندها أرادت ان تعتزل فحملت على مداومة القتال فوقعت في أيدي الانكليز في أثناء دفاعها عن كومبياني وأحرقوها في مدينة روان بدعوى انها ساحرة (٣٠ مايو ١٤٣١)

﴿ فصل ﴾

﴿ في الاصلاحات وفي انتصارات كارلوس السابع ﴾

لما جرت هذه الحوادث تذكر دوق بورغونيا انه فرنسوي نغدر بالانكليز وعقد مع كارلوس معاهدة آراس (١٤٣٥) التي نال بمقتضاها مدائن مقاطعة السوم وكونتيتي اوكسير وما كون ماسكاً له الا سيادة لاحد عليهما . وفي السنة التالية فتحت باريس ابوابها لكارلوس السابع وكانت رذائله قد تحولت الى فضائل فقرب أهل الذكاء والدهاء والشجاعة وفي سنة ١٤٤٤ عقد مع الانكليز هدنة سنتين . وأخمد ثورة قام بها الشرفاء عليه تخوفاً من تعاظم سلطته

وكانت ولايات اورليان في سنة ١٤٣٩ قد رأت وجوب تأسيس جيش مستديم وقررت لذلك مليوناً . ومئتي الف دينار فاشتد ساعد كارلوس بهذه القوة الجديدة وطهر بها فرنسا من قطاع الطرق وأرسل جانباً منها الى ولي عهده وكان يقاتل السويس ثم حالفهم لاعجابه بما رآه من بسالتهم . وعندما أتم كارلوس هذه الاصلاحات نوى ان يتخلص من الانكليز بضربة تكون قاضية عليهم فنازلهم في فورميني (١٤٥٠) ودحرهم وطردهم من غويانه فلم تبق لهم الا كاله . وكانت هتان المعركتان نهاية حرب المئة السنة التي نتج منها تأييد السلطة الدستورية في انكلترا والملكية المطلقة في فرنسا .

الباب الخامس والاربعون

{ في اسبانيا وايطاليا من سنة ١٢٥٠ الى سنة ١٤٥٣ }

« وذكر اهمال ملوك اسبانيا للحرب الصلبية »

(وخصوماتهم الداخلية)

لما قوي ملوك اسبانيا على المغاربة لم يتابعوا محاربتهم ليرجعوهم الى البحر ويجلوهم عن بلادهم بل أغراهم الطمع فالتفتوا الى التداخل في مسائل اوروبا . فنظر ملك نافاريا الى الشمال وزوّج ابنته لفيليب ليبل فانضمت نافاريا الى أملاك تاج فرنسا . وأراد الفونس العاشر ملك قشتاله (١٢٥٢) أن ينتخب امبراطوراً لالمانيا فانفق مالاً كثيراً بلا جدوى وفي أثناء اشتغاله بهذا المنصب تآمر عليه جماعة من أعيان مملكته وخصومه وأقلقوا المملكة واستنجدوا بالمغاربة فاستنجد هو بهم أيضاً لقدم الثورة لخامته الامة واذ كان ابنه البكر قد توفي اقامت ابنه الثاني دون سانش ملكاً عليها (١٢٨٢) خلافاً لما كان قد تقرر من كون ميراث التاج يقع الى أكبر ابنائه ثم الى أكبر ابناء وارثه وهكذا بالتسلسل واستمرت قشتاله على ماهي عليه من الاضطراب ولم يظهر بين ملوكها رجل يذكر الا الفونس الحادي عشر الذي غلب المغاربة في ريوسالادو وردّ بذلك الغارة الثالثة لهم على اسبانيا ولم يرتفع شأن لهذه المملكة

بعد ذلك الا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر حين تولي اليصابات وفرديناند الملقب بالكاثوليكي .

أما مملكة اراغون فانها في هذه الاثناء ضمت اليهاروسيليون وسردانيا ومونبليه وتداخلت (١٢١٣) في مسألة الالبيجوا التي قتل فيها ملكها بطرس الثاني وقبلت دخول صقليا في ولايتها بعد أن ذبح الفرنسويون فيها وفي سنة ١٤١٠ انقرضت سلالة ملوك برشلونة وانتقلت تيجانها الى أمير من كاستيليا توفي عن ولدين احدهما الفونس الخامس الذي تبنته يوحنة ملكة نابولي وجعلته ملكاً على جزيرتي صقليا والآخر يوحنا الثاني الذي جرع صهره السم وضم نافاربا الى الاراغون تحت سلطته ثم خلفه فرديناند الكاثوليكي الذي تزوج باليصابات سنة ١٤٦٩ فتمت باقترانهما وحدة اسبانيا وعظمتها .

ولقد وجد النظام الاقطاعي في اسبانيا لذلك العهد كما وجد في سائر أوربا ولكنه كان يختلف في قشتاله عما كان عليه في غيرها من حيث لم يكن بين الاهالي ارقاء ولم يكن بين الشرفاء والعامة انفصال تام وتباعد عظيم ولذلك قبل في مجلس نواب قشتاله مندوبون عن أهل المدائن في سنة ١١٦٩ على ان الحالة الاقطاعية كانت أشد استحكاما في ارغوان وأكثر انطباقا على ما كان جاريا في سائر الامصار الغربية

اما البرتغال فخرجت من التابعية لقشتاله في عهد يوحنا الاول رأس آل آفيس وكان بطلا مقداما تولى الملك في سنة ١٣٨٣ مكان آخر سليل من آل بورغونيا الذين انقرضوا وانتصر في البوجاروتا (١٣٨٥) على القشتاليين فاستقل ببلاده ثم وجه نظر شعبه الى افريقيا وفي سنة ١٤١٥ فتح مدينة سبته في شمالي مراكش . وخلفه أصغر أبنائه فاقام في قرية ساغرس بقرب رأس القديس فنسان واستدعى اليها الملاحين ورجال البحر وشيد جمعية علمية ملاحية جغرافيـة ثم أطلق بحريتـه في المحيط فاكتشفوا بورتوسانتو وهي احدى جزائر ماديرا سنة ١٤١٧ وغرسوا فيها الكرم وقصب السكر ثم منح البابا غفرانا عاما لجميع الذين يسافرون في سبيل الاكتشاف من البرتغاليين وأعلن ان كل أرض جديدة تكتشف من جزائر كاناري الى الهند تكون ملكاً للبرتغال فتضاعف نشاط الملاحين وفي سنة ١٤٣٣ اجتازوا رأس بوجادور ثم الرأس الابيض ثم الرأس الازرق (١٤٥٠) ثم جزائر آسوز . وبعد ذلك بنصف قرن اجتاز فاسكو دي غاما رأس الرجاء الصالح .

فصل

﴿ في تولية كارلوس دانجو على مملكة نابولي (١٢٦٥) ﴾

عند ما انفصلت ايطاليا عن السلطنة الجرمانية انقسمت الى

جمهوريات كثيرة متناظرة وبقي أخو امبراطور المانيا فريدريك الثاني ملكا على نابولي وكان يدعى منفرد وقد قاوم البابا فاستعان عليه بكارلوس دانجو ومنحه ملك نابولي مكانه على ان يعترف بالسيادة للكرسي المقدس ويؤدي له الجزية سنويا ويتنازل له عن مقاطعة بنيفنت . (١٢٦٥) فحارب كارلوس منفرد وقتله فجاء حفيد لفريدريك الثاني من المانيا يطالب بارث أبيه فغلب وقتل أيضا وبه انقرضت سلالة آل سواب (١٢٦٨) ولما استتب الامر للمنتصر استولى على أكثر أقسام ايطاليا خلافا لما وعد به وكان يتوهم انه يعيد سلطنة الغرب غير ان الحرب الصليبية التونسية (١٢٧٠) التي اشترك فيها ومعارضة البابا له كفتاه عن مقصده موقتا فلما استأنف المسعى لانفاذه حدثت مذبحة الفرنسويين في صقليا (١٢٨٢) وانضمت هذه الجزيرة الى بطرس الثالث ملك اراغون الذي كان من أنصار المؤامرة التي جرت فيها ثم أحرقت أساطيل كارلوس وأسر ابنه كارلوس الاعرج في معركة بحرية أخرى ثم عقدت معاهدة ١٢٨٨ وبموجبها منحت صقليا لأحد أبناء ملك اراغون . ولكن البابا أعاض آل انجو عن فقد صقليا بمنحه أحدهم في سنة ١٣١٠ تاج المجر .

﴿ فصل ﴾

﴿ في الجمهوريات الايطالية . وذكر الكافيين والجيبليين ﴾

بينما كان هذا النزاع قائماً في الجنوب تخلصت الولايات الشمالية من ربقة صقليا بعد تخلصها من الربقة الالمانية وأخذت تختبط في داخليتها وتحولت على أثر ذلك لمبرديا الى امارة استبدادية وتوسكانا الى حكومة ديمقراطية والبندقية الى جمهورية ارستقراطية وهي التي السلطة العليا فيها للشرفاء ورومانيا الى حكومة امتزجت فيها الانواع الثلاثة المتقدم ذكرها فلم تكن ذات شكل يعرف . وفي سنة ١٢٩٧ حصرت البندقية الذين يجوز انتخابهم لادارة احكامها في عدد معلوم من البيوتات . وبعد ذلك بمدة وضعت سجلا سمي بالكتاب الذهبي دونت فيه اسماء اعيانها وكان ذلك منشأ ما آلت اليه هيئة حكومتها يوم مسخت بمجلس سمي مجلس العشرة وكان أعضاؤه لا يعينون الا من أهل البيوتات المذكورة في السجل الذهبي .

وفي سنة ١٢٨٢ تأصل الروح الديمقراطي في فلورنسا الى حد أنها جعلت الحرف الدنيئة في مصف الفنون الجليلة ومنحت المشتغلين بهذه وتلك حقوقاً متساوية وقررت ان لا يقبل شريف في منصب الا اذا تخلى عن نسبه ولقبه قبل ذلك ثم قسمت سكانها الى عشرين فرقة لكل منها رئيس ولجميع رؤسائها رئيس أعلى .

وهذا النظام الجديد اعجب اكثر المدائن كتوسكانا ولوكا وبيزا وجنوا وغيرها فاخذته عنها الا أنه لم ينتج فيها الا التنافر والتخاذل

وكانت جنوا تنازع بيزا على كورسيكا وسردينيا فحاربتها وهدمت بحريتها (١٢٨٤) فزحف أهل توسكانا على أملاك بيزا يقتسمونها وأما العاصمة فقاومت الحصار أشد المقاومة تحت قيادة رئيسها الشهير اوغولين ثم سامت وهدمت وعلى أثر هذه الحرب سادت فلورنسا على توسكانا ولكنها لم تلبث ان عدلت عن مقاتلتها وحوّلت سلاحها عنها لتتنازع في داخليتها وكان فيها حزبان الكافيون والجيبليون يقتتلون اقتتالا شديداً . وكان دانتي الشهير أبو اللغة الايطالية وأمير شعرائها يبكي في منفاه أسفاً للشقاق الفاشي في وطنه

وفي سنة ١٣٤٧ قام خطيب من النواب في رومه يدعى ريانزي وحاول اعادة الجمهورية الصالحة اليها وجعل رومه الكافلة لاستقلال ايطاليا فصفق الشعب لمشروعه أولا ثم قتله ذلك الشعب نفسه بايعاز من معتمد البابا .

﴿ فصل ﴾

﴿ في رجوع البابوية الى رومه (١٣٧٨) وقيام الامارات ﴾

رأى البابا من ثورة ١٣٤٧ دليل عدم الرضى عن انتقال الكرسي الرسولي من رومه فرجع اليها سنة ١٣٧٨ ولم يستطع مع ما كان عليه من ضعف السطوة ان يعيد السلام الى ايطاليا .

وكانت في تلك الاثناء فلورنسا مبتلاة بشقاق مستمر بين

أهلها وفى سنة ١٣٧٨ عظم فيها شأن رجل يدعى ميشيل لاندو من أهل الحرف الدنيئة فجعل الحكومة بين أيدي زملائه وأمثاله .

وكانت البندقية وجنوا تتنازعان السيادة في التجارة البحرية وتحاربان (١٣٧٨) ففازت الاولى على الثانية وهدمت عمارتها بحراً واستعبدت مدائنها براً ولكنها لم تهدمها من أساساتها كما هدم الفلورنتيون بيزا .

وفي هذه الاثناء ظهر في لمبرديا رجال مشاهير من زعماء الاحزاب انتهزوا فرصة الشقاق الواقع وأخذوا يحولون الجمهوريات الى امارات فاستولى أحدهم وهو ماتيو فيسكونتي على ميلانو والآخر وهو كاني دي لاسكالا على فيرونه والثالث وهو كاستراكاني على لوك . وفى سنة ١٣٩٦ اشترى جان غالياس فيسكونتي من امبراطور المانيا لقبي دوق ميلانو وكونت بافي والسيادة على ست وعشرين مدينة لمباردية . وكان في ايطاليا لذلك العهد جماعة من الجنود المأجورين الذين لا وطنية لهم يقاتلون تحت راية كل ذي ثروة مطماع يكتريهم وكان من زعمائهم رجل أصله حراث يدعى سفورزا اتوندولو استخدمه فيليب ماري فيسكونتي فى مآربه ثم زوجه ابنته ولما مات استولى سفورزا على ميلانو (١٥٤٠) وفى الوقت نفسه قام بالامر في شمالي ايطاليا أحد المأجورين من

أمثال إتوندولو . وتولى الحكم فى فلورنسا تاجر غني يدعى كوسم دي مديسيس بعد ان خلع آل البيزي

وفي سنة ١٤٥٣ قام رجل روماني يدعى بوركارو ودعا ايطاليا الى الحرية والاستقلال فلم يرنّ لندائه صدى فى جوانبها .

﴿ فصل ﴾

﴿ في تبعية نابولي للاراغون ﴾

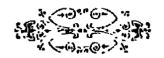
أما نابولي فكان المطالبون بسريرها كثيرين ولذلك لم تستقر هنيهة من زلازل الحروب وفي عهد البابا اوربان السادس كانت الملكة يوحنة صاحبة نابولي وكان البابا غير راض عنها فاستدعى كارلوس دي دوراس ابن ملك المجر ليخلعها عن سرير نابولي وصقليا ويجلس مكانها اما هي فقررت ان يخلفها الدوق لويس من الفرع الثاني من آل انجو فوقعت حرب بين المتناظرين انتصر فيها كارلوس سنة ١٣٨١ وأمات الملكة خنقاً تحت أفرشة وأصبح ذا شأن في ايطاليا . ولكنه قتل في بلاد المجر فعادت الفوضى الى نابولي لكثرة من تنازعها من الامراء غيران الفائز منهم في آخر الامر كان الفونس الخامس الاراغوني (١٤٤٢) وهو الذي كانت يوحنة الثانية قد تبنته

﴿ فصل ﴾

﴿ في حالة العلوم والفنون والتجارة ﴾

من العجيب ان العلوم والفنون والتجارة تقدمت تقدماً عظيما في أيطاليا مع سوء الحالة التي كانت عليها فقد ظهر فيها جمهور من العلماء والادباء والكتاب والشعراء . وكانت وفاة دانتي أعظم شعرائها سنة ١٣٢١ ووفاة بوكاتشيو سنة ١٣٧٥ . وقصدها كثيرون من العلماء اليونانيين منهم بيزارك وخربولوراس فأكرمت وفادتهم ونشروا تآليفهم فيها . وفي ذلك الوقت شيد البابا نقولا الخامس مكتبة الفاتيكان وبنيت كنائس وابراج وقباب وصروح كلها عجيبة الصنع في كثير من مدائن ايطاليا .

وكان للبندقية ٣٥٠٠٠ ملاّح ومعظم تجارتها مع مصر وكانت جنوا ذات تجارة واسعة في أسيا الصغرى وعلى شواطئ الدردنيل والبحر الاسود . وكانت ميلانو وفلورنسا وفيرونه مدائن صناعية ولمبردية مقاطعة زراعية ذات ترع كثيرة تروي تربتها . ومن أهم مبتكرات تلك الايام المصارف أو البنوكة لتسهيل نقل النقود ودورانها . وفي الجملة لم يكن قطر من أقطار أوربا يداني ايطاليا من حيث المعارف والمدنية والثروة الاهلية كما لم تكن بلاد في الغرب على مثل ما هي عليه من الانقسام والشقاق .



الباب السادس والاربعون

﴿في المانيا والدول السكندينافية والسلافية والتركية﴾

« من سنة ١٢٥٠ الى سنة ١٤٥٣ »

﴿ فصل ﴾

﴿ في الفترة الكبرى وذكر آل هبسبرج (١٢٧٣ ﴾

كانت امبراطورية المانيا قد افنت صولتها في ايطاليا ولم تستخدم شيئاً من قوتها لتأييد النظام في المانيا فلما توفي فريدريك الثاني لبثت مملكته ثلاثا وعشرين سنة في حالة فوضى (١٢٥٠ — ١٢٧٣) وابى جميع امرائها ان يلبسوا تاجها الذي كان يلتمسه امراء اجانب . وفي هذه المدة خلع ملوك بولونيا والمجر ودنيمرك وسادة بورغونيا طاعة الامبراطورية وجنحت بعض المدائن الى الاستقلال وابتنى جماعة من الاشراف معاقل كانت مأوى للصوص. وتحالف صغار الاشراف ليأمنوا على أرواحهم وأملاكهم وقامت جمعية الاتحاد التجاري (هانس توتونيك سنة ١٤٢١) وكانت أعاظم مراكزها في لوبك وكولوني وبرونسويك ودفتسيك وأعاظم فروعها في لندرة وبورج وبرجن ونوفوغورود . وكثر تحرر الارقاء في داخلية البلاد وتجمهرهم في ضواحي المدائن . وفي سنة ١٢٧٣ انتهت هذه الحالة الفوضوية التي سميت بالفترة الكبرى وانتخب

رودولف دي هبسبرج امبراطورا . آثره الشرفاء على سواه لفقره وضعفه فترك ايطاليا وانقطع لاصلاح شؤون المانيا فقهر ملك بوهيميا (١٢٧٨) في واكفلد لانه أبى الاعتراف له بالسيادة واستعاد بعض ما أخلاه الاعيان من الاملاك ومنع الحروب الخصوصية بين الشرفاء واستحلف أهل الولايات الكثيرة التحرك بلزوم السكينة والسلام وأعطى ابنيه البيرت ورودولف ولاية دوقيات النمسا وستيريا وكارنثيا وكارنيولا

﴿ فصل ﴾

﴿في السويسريين (١٣١٥)﴾

وكان لآل هبسبرج أملاك في سويسرا فظلم عمالهم عليها الاهالي فاتحدت عمالات شيويتز واوزي وانتروالدن في سنة ١٣٠٧ لتضع حداً لتلك المظالم فذهب البيرت لمعاقبتها فقتل في الطريق ثم ذهب ليوبولد دوق النمسا لمثل ذلك فغلبه السويسريون في موقعة مورغارتن (١٣١٥) ومن ذلك اليوم عظمت شهرتهم العسكرية. ثم انضمت الى العمالات العاصية لوسرن وزوريخ وغلاريس وزوج وبرن (١٣٣٢ - ١٣٥٣)

وانتصر السويسريون بعد ذلك في معركتي ١٣٨٦ و١٣٨٨ فأيدوا بهما استقلالهم وحريتهم.

﴿ فصل ﴾

﴿ في انحطاط الامبراطورة ﴾

وتتالى بعد رودلف امبراطرة كان الشرفاء ينتخبونهم من الفقراء الذين لايخشى بأسهم فكانوا لاحول ولا طول لهم وكان بعضهم يتاجر تحت رايته وبعضهم خالع العذار ودنس العرش فعزل سنة ١٤٠٠ وكان إسمه ونسسلاس وخلفه سجيسمند وفي عهده عقد مجمع كونستانس لاصلاح الكنيسة وقتل البدعة التي نشأت من انتخاب بابوين في وقت معاً أحدهما في افينيون والآخر في رومه. وعلى أثره قامت حرب الهوسيين. والهوسيون اتباع لاستاذ شهير يدعى حنا هوس كان مدرساً في كلية براغ ذقال بوجوب اصلاح درجات الكهنوت رندد في الاعتراف ان يكون من رجل لآخر وقبح عبادة الصور الخ فاحرق سنة ١٤١٥ معاقبة له على بدعته فقام قائد متعصب له يدعى يوحنا زيسكا وجند اتباعاً له كثيرين وأضرم نار الفتنة في بوهيميا فاستمر القوم فيها خمس عشرة سنة يذبح بعضهم بعضاً من أجل المذاهب. واذ توفي سيجسمند (١٤٣٨) عاد آل هبسبرج الى تولي الملك فاستقر لهم الى سنة ١٨٠٦ ولكن في بوهيميا والنمسا اما المانيا فانفصلت في سنة ١٤٣٩ على أثر مقتل الامبراطور البيرت الثاني في حرب مع الاتراك. وقام على عرش

المانيا فريدريك من فرع ستيريا وهو آخر امبراطور الذي توج في رومه (١٤٥٢) وكان هذا المنصب في ذلك الوقت اسما مجرداً ليس لصاحبه دخل ولا جنود ولا سلطة قضائيـة ولا سطوة لدى مجلس النواب . وكان أعضاء هذا المجلس ثلاث فرق وهي فرقة المنتخبين للامبراطور وفرقة الامراء وفرقة المندوبين عن المدن . وكان الحكم الحقيقي لهذا المجلس غير انه كان بذاته كالعدم لانقسام المملكة الى أربعمائة ولاية وعمالة .

وكانت النمسا لذلك العهد حصن اوربا الدافع عنها غارات المسلمين وفي حكم سيجيسمند انضمت الى المانيا ثم انفصلت عنها في حكم واديسلاس الذي استظهر العثمانيون عليه في وارنه (١٤٤٤)

{ فصل }

{ في اتحاد كلمار (١٣٩٧) }

كانت في سكنديناڤيا ثلاث ممالك. الدنيمرك واسوج ونروج ومنها خرج النورمان الوثنيون وتشتت أهلها في القرنين العاشر والحادي عشر . اما الدنيمرك فعظمت صولتها في عهد كانوت الكبير الذي ملك عليها وعلى انكلترا ثم في عهد أخويه كانوت السادس ووالديمير المنتصر (١١٨٢ — ١٢٤١) اللذين فتحا هولستين ونوردالنجيه . وكانت لوالديمير اموال كثيرة وبحرية عظيمة وجيش

جرار . وأما أسوج فلم يكبر شأنها الاّ في عهد آل فوانج الذين شيدوا ستوكهولم قاعدة لها (١٢٥٤) وأما نروج فاقامت في اضطراب وفتن الى ان اصبحت ماكيتها وراثية سنة ١٢٦٣ بعد ان كانت انتخابية .

وفي سنة ١٤٩٧ عقد بين هذه الممالك الثلاث في عهد مرغريته بنت ملك الدنيمارك اتحاد كلمار وتقرر فيه ان تتحد جميعاً على الدوام تحت ملك واحد وان تكون مع ذلك كل منها ذات استقلال ذاتي اساسه احتفاظها بدستورها ونظامها القضائي ومجلس شيوخها ولكن هذا الارتباط الجليل الفوائد لم يلبث ان انفك فانه ضعف بعد وفاة الملكة المعروفة بسميراميس الشمالية (١٤١٢) بسبب عصيان أهل سلسفيج وهولستين ثم خرج منه الاسوجيون سنة ١٤٤٨ وأقاموا ملكا عليهم .

﴿ فصل ﴾

﴿ في بولونيا ﴾

ان الاقطار السلافية بين الباطيق والبحر الاسود لا يعرف شيء مذكور من تاريخها قبل القرن التاسع . وغاية ما هو معلوم ان جماعة البولونيين القاطنين على ضفاف نهر الفيستول قام منهم رجل يدعى بياست دوقا عليهم وكان رأس سلالة توارثت منصبه تحت

سيادة المانيا الى ان ظهر منها رجل يدعي بولسلاس الاول الملقب بالشجاع { ٩٢٩ } فاخرج بلاده من كنف السيادة الالمانية واقب نفسه ملكا عليها ثم جاء بعده بولسلاس الثالث (١١٠٢ — ١١٣٨) فاخضع البوميرانيين وعقيب وفاته انفصلت سيلازيا عن المملكة ودعي الهيكليون لمحاربة البروسيين الوثنيين وتنصيرهم على ما رأيناه قبلا فانشأوا بين نهري الفيستول والنيامن دولة جديدة لم تلبث ان اصبحت عدوة لبولونيا وسلبتها بوميرللي ودانتزك (١٣٤٣) فلما جاس كازيمير الكبير على سرير بولونيا اعاضها عما فقدته بافتتاحه لها روسيا الحمراء والهينيا وبادوليا الى نهر الدنيابر . وفي سنة ١٣٨٦ انتخب جاجلون غرندون ليثوانيا ملكا على بولونيا فجعلها ذات الصولة العظمى في اوروبا الشرقية واستولى { ١٤١٠ } على كثير من البلاد التي كانت للهيكليين الى ان حصر هؤلاء الكهنة المحاربين في بروسيا الشرقية بموجب معاهدة تورن سنة ١٤٦٦

﴿ فصل ﴾

(في المغول ببلاد الروس)

ولم تكن روسيا في ذلك الوقت شيئاً ذا بال فقد رأينا ان فرصانا من النورثمان ذهبوا الى مدينة نوفوغورود الحصينة بقيادة زعيمهم رودريك وتجندوا لخدمتها في أول الامر ثم سادوا عليها

(٨٦٢) . ومن ذلك الحين اخذوا يتقدمون قليلا قليلا الى ان اجتازوا الديار قاصدين القسطنطنية طلباً للخدمة والمكاسب فيها وفي طريقهم أخذوا كييف وفي القرن الحادي عشر اصبحت غرندوقية كييف دولة مخشياً بأسها ثم في القرن الثاني عشر انتقلت السيادة منها الى غرندوقية والديمير وفي القرن الذي تلاه اغار مغول جانكيزخان على روسيا وقتلوا في موقعة واحدة ستة من امرائها (١٢٢٣) . وفي سنة ١٢٣٧ فتح باتو مدينة موسكو وتقدم الى نوفوغورود وكانت غرندوقية كييف قد زالت وغرندوقية والديمير تؤدي الجزية . ولما استتم المغول فتح روسيا اغاروا على بولونيا وسيلازيا ومورافيا والمجر فقهروا الجيوش ودمروا البلاد ثم اجتازوا الدانوب ووقع رعبهم في قلب اوروبا كلها غير انهم لم يلبثوا ان وقفوا امام جبال بوهيميا والنمسا وبقيت روسيا تحت نيرهم مدة قرنين

﴿ فصل ﴾

﴿ في فتح الاتراك القسطنطنية (١٤٥٣) ﴾

رأينا فيما سبق ان الاتراك في خلال المدة التي اوردنا حوادثها قد هبطوا من جبل الذهب وأغاروا على الهند والفرس وسوريا وآسيا الصغرى وان السلطان عثمان زعيم احدى قبائلهم الصغيرة فتح بورصه (١٣٢٥)

وأسس الدولة العلية وان اورخان فتح نيوسيديا ونيقا وغاليبولي ومراداً الاول احدث جيش الانكشارية فجعلهم كالرهبان المجندين واستولى على ادرنه تمهيداً لفتح القسطنطنية وانتصر على السرب والبوسنه والالبان وقتل في موقعة قوصوه (١٣٨٩) وان بايزيد الاول اخضع مقدونيا والبلغار وضرب الجزية على الافلاخ ونكل بتجريدة صابية في موقعة نيكوبوليس (١٣٩٦) ثم نازل تيمورلنك فدارت الدائرة على بايزيد في معركة عين صيره واسر (١٤٠٢) وان مراداً الثاني حاصر القسطنطنية فردّ عنها مغلوبا وحارب اسكندر بك في البانيا فتولاه الفشل ثم ظهر على اعدائه في موقعة وارنه فقتل فيها فلاديسلاس ملك المجر (١٤٤٤) وان محمداً الثاني لما رأى المجر والهون والاقوام المجاورة لهم يحولون دون نفوذ الترك الى اوربا عزم على فتح القسطنطنية ليسقط هذا الحاجز بينه وبين الغرب فحاصرها ودخلها عنوة وأزال بزوالها آخر أثر حي للسلطنة الرومانية سنة ١٤٥٣ وبهذه الحادثة العظيمة كان ختام القرون المتوسطة وافتتاح الزمن الذي اصطلح المؤرخون على تسميته بالاعصار الحديثة .



﴿ القسم الرابع ﴾

« في تاريخ الاعصار الحديثة »

﴿ الباب الرابع والاربعون ﴾

(في اتساع سلطة الملوك بفرنسا (١٤٥٣ — ١٤٩٤)

﴿ تمهيد ﴾

ان اهم اقسام التاريخ الحديث (١٤٥٣ — ١٧٨٩) هي الآتية :

انضمام السلطة بعد انشعابها وانحصارها في الملوك والحكومات عقيب تفرعها اجزاء شبيهة بالمستقلة على الاقطاعات الكبيرة والمراكز القائمة بذاتها

الانقلاب السياسي الذي نشأت عنه حروب ايطاليا والمناظرة المستمرة بين فرنسا والنمسا .

بعثة الفنون والصنائع والعلوم والآداب

الانقلاب الاقتصادي الناجم عن اكتشاف العالم الجديد وبر الهند وهو الذي انتقلت الثروة معه الى اهل الحرف والمتاجر .

الانقلاب الديني المحدث له اصلاح لوثير والحروب التي اثارتها الرفضية .

الانقلاب الفلسفي الناشئ عن تعاليم باكون وديكارت وعلماء القرن الثامن عشر مما تولدت منه الثورة السياسية العظمى في أوائل هذه الازمان .

﴿ فصل ﴾

﴿في لويس الحادي عشر (١٤٦١ — ١٤٨٣) وذكر عصابة الخير العام (١٤٥٦)﴾

كان كارلوس السابع عند ما انقذ البلاد من احتلال الانكليز قد انقذها ايضاً من سطوة بعض الشرفاء المفسدين المارقين ونفى ولي عهده لدخوله في مؤامرات اريد بها اسقاطه فلجأ الى دوق بورغونيا وأقام عنده الى ان خلف أباه في سنة ١٤٦١

وظن الشرفاء ان أحسن أيامهم تعود في عهد هذا الملك وسرعان ما أخلف ظنهم فانه منذ تولى عزل اكثر أرباب المناصب التي وضعهم أبوه فيها ورفع الضريبة الدائمة من مليون و٨٠٠ الف دينار الى ثلاثة ملايين وحظر على كاية باريس ان تتداخل في شؤون الملك والمدينة ووضع برلمانا لمدينة بوردو ومنحه اختصاصات كثيرة انتزعها من برلماني باريس وتولوز واسترجع بعض المقاطعات بالشراء وغيره من الطرائق واغضب الاكليروس والشرفاء بشدته فتآمر عليه نحو ٥٠٠ من الاعيان تحت رئاسة كارلوس الملقب بالجسور وسموا جمعيتهم بعصابة الخير العام فرأى ان الامر جال ولم يكن على ما يجب من البسالة لمقاومة القوة بالقوة فاستعمل الدهاء وبه سلم . وأول ما فعله انه دفع عن باريس هجمة أحد النبلاء ثم عقد معاهدتي كونفلان وسانمور (١٤٦٥) وبموجبهما أعطى المتعصبين كل ما سألوه .

﴿ فصل ﴾

﴿ في ماتم في بيرونه (١٤٦٨) ﴾

ولما رجع المتحالفون الى منازلهم أخذ لويس يفكر في استرجاع مامنحهم وعلى الخصوص نورمنديا ثم لم يلبث ان استولى على هذه المقاطعة ولم يعارضه كبار الشرفاء لانه شغل كارلوس الجسور بحروب داخلية في دوقية بورغونيا ورشا الآخرين بعضهم بالمال وبعضهم بالمناصب .

وكان أخو الملك من نصراء كارلوس فاستصدر لويس قراراً من النواب في مدينة تور (١٤٦٨) بان أخا الملك يكفيه اثنا عشر ألف دينار دخلا سنويا وبهذه الوسيلة حرم أخاه ولايته فهب كارلوس لمعارضة هذا القرار ودعا الشرفاء ثانية الى الثورة واستنجد بملك إنكلترا . اما لويس فالتقى بجيش لدوق بريتانيا فنكل به ثم علم باستعداد ملك انكلترا للهجوم على فرنسا فذهب الى بيرونه لمصالحة كارلوس فاعتقله الجسور في برجها ولم يخرجه منه الا وقد منح أخاه (أي أخا الملك) ولاية شمبانيا ووعد كارلوس بان يسير معه لمحاصرة مدينة لياج التي كانت قد ثارت عليه عملاً بايعاز لويس نفسه .

وكانت هذه المعاهدة آخر غلطات لويس فانه بعد ذلك اقطع

أخاه غويانه عوضاً عن شمبانيا ثم عقد اجتماعا آخر للنواب في تور واستصدر منهم قراراً بنسخ معاهدة بيرونه وكان قد أعد مئة الف مقاتل وعددا كبيراً من المدافع لمقابلة كارلوس بها (١٤٧١). ولكن أخا الملك دوق غويانه توفي في السنة التالية ففقد به الجسور أشد أعوانه ولذلك اتهم الملك علنا بانه سم أخاه وأقام الحرب عليه غير انه انكسر امام مدينة بوفاي وارتد على أعقابه فوقع على هدنة سنليس. ثم صرف همه لفتح المانيا واللورين وسويسرا لجعلها مملكة واحدة فانتصر في المواقع الاولى ثم دارت عليه الدائرة امام مدينة نوس في بروسيا الرينية. وفي تلك الاثناء كان ملك انكلترا قد أنزل جنوده على شواطئ فرنسا واذ لم يجد ما وعده به كارلوس من النجدات عقد مع لويس الحادي عشر معاهدة بكيني ورجع الى جزيرته بمال كثير أخذه رشوة (١٤٧٥). اما كارلوس فعقد هدنة ثانية مع لويس ليتم في أثنائها مقصده الكبير غير ان السويسريين غلبوه امام غرانسوم (١٤٧٦) فرجع الى اللورين وكانت قد ثارت عليه فقتل تحت أسوار نانسي (١٤٧٧)

﴿ فصل ﴾

﴿ في انضمام الولايات الاقطاعية الكبرى الى أملاك التاج ﴾

لما تخلص الملك من هذا العدو اللدود الشديد أخذ يسعى في

ضم الولايات الاقطاعية الكبرى الى أملاك التاج فحارب لذلك بعض الشرفاء وحاكم وقتل الآخرين . غير انه لم يصبه الا قسم من تركة كارلوس الجسور لان وارثة بورغونيا تزوجت خوفا منه بالارشيدوق مكسيميليان فحاربه لويس وأخذ منه بورغونيا وبيكارديا وارتوا وفرانش كونته (١٤٨٢) وكان قبيل ذلك قد ورث أملاك آل انجو وبلغت جملة مااستولى عليه نحو ١٤ ولاية وعملا

﴿ فصل ﴾

﴿ في ادارة لويس الحادي عشر ﴾

هو الذي جعل القضاة غير قابلين للعزل وسير البريد وأحدث برلمانات غرينوبل وبوردو وديجون وامن الطرق وضاعف عدد الاسواق العامة وشيد أول المعامل الحريرية وايد صناعة تعدين المعادن وفكر في توحيد الموازين والمكاييل بفرنسا وقرب العلماء وأسس كليتي كاين وبزانسون وأدخل الطباعة في البلاد وفي الجملة كان في الحقيقة ملكا .

﴿ فصل ﴾

﴿ في كارلوس الثامن (١٤٨٣) ﴾

ولما قبض الى ربه خلفه كارلوس الثامن في الثالثة عشرة من عمره وكان ضعيف الجسم والعقل فتولت الوصاية عليه أخته البكر

حنه ذي بوجو واحسنت السياسة بما عندها من الحزم والدهاء. وفي مدة وصايتها ثار الكبراء واضطروها ان تعقد جمعية النواب ظنا منهم ان هذه الجمعية تعيد اليهم مافقدوه وتضعف السلطة الملكية فخاب ظنهم لان النواب قرروا اصلاح بعض الخلل الواقع واعلنوا ان الملك راشد وخولوا أخته مساعدته على ادارة الشؤون. فتواطأ دوق أورليان ودوق بريتانيا والارشيدوق مكسيميليان على اسقاط الملك فدحرتهم جنود حنة (١٤٨٨) واسرت دوق أورليان. ثم وقع نزاع على تركة دوق بريتانيا فزوجت حنة كارلوس من وارثة هذه التركة تمهيدا لاضافتها الى أملاك التاج (١٤٩١) غير ان نكد الطالع أراد ان يخطر لهذا الملك خاطر الغزوات البعيدة فخرج من وصاية أخته وعقد ثلاث محالفات أفقد بها فرنسا ثلاثة من تخومها ليستتب بذلك الامن في داخلها ويتمكن هو من الجري وراء وهم عظيم الخطر خامر فكره الضعيف.

الباب الثامن والاربعون

في اتساع سلطة الملوك بانكلترا

وذكر حرب الوردتين

فصل

في هنري الرابع (١٤٢٢) وريكاردوس ديورك (١٤٥٤)

كان هنري الرابع من آل لانكاستر سلالة الامير الثالث من ابناء ادوارد الثالث وقد اغتصب الملك اغتصاباً مع ان الاحقية به من حيث النسب لآل يورك. ومن أجل ذلك وقعت حرب بين الاسرتين دعيت بحرب الوردتين نسبة الى الوردة البيضاء التي كانت رمز آل يورك والوردة الحمراء التي كانت علامة آل لانكاستر ولما انقضى أجل هذا الملك خلفه هنرى الخامس الذي شرف ذكره بفتوحاته في فرنسا ثم خلفه هنري السادس وفي عهده انجلى الانكليز عنها فحنق الانكليز عليه من أجل ذلك ولا سيما عند ما عقد هدنة سنة ١٤٤٤ وتزوج بمرغريته دانجو. فظن دوق يورك ان تلك فرصة ينتهزها لخلعه وأخذ يدس له الدسائس فمنها انه حمل مجلس النواب على اتهام الوزير سوفوك المقرب الى الملك ببعض الجرائم ففر بحراً فسير في أثره مركباً وقبض عليه بحارته وقتلوه. ومنها انه حمل احد الايرلنديين وهو جوهن كاد على حشد ستين

الف مقاتل من كونتية كنت فنهب بهم لندره عدة أيام ولكنه لم يلبث ان أخذ أيضاً وقتل { ١٤٥٩ }

واتفق ان أصابت الملك نوبة شديدة من مرض به فاحتال دوق يورك وتقلد منصب الحافظ للملك (١٤٥٤) فلما شفي هذا أراد عزله فحمل عليه السلاح واستعان باكابر الشرفاء ومنهم وازويك الشهير باسم « صانع الملوك » وكان لعظم ثروته يستطيع ان يعول في أملاكه ثلاثين الف مقاتل فانتصر ريكاردوس ديورك على الملك في موقعة سنت البان (١٤٥٥) وأسره وتقلد ثانية منصب الحافظ ثم دحر جنود الملك في موقعة أخرى بنورثبتون (١٤٦٠) وتلقب بولي العهد الشرعي للمملكة . فاحتجت مرغريته على هذا القرار الذاهب بحقوق ابنها ومنحت الاسكتلنديين حصن بروبك فانجدوها بالرجال فقاتلت بهم ريكاردوس ديورك في معركة واكفلد فقتل ثم عرض رأسه على الاسوار وجعل عليه تاج من ورق (١٤٦٠) وعلى أثر هذه الحادثة قتل أصغر أبنائه ومن ذلك الوقت أخذ كل منتصر من الحزبين يقتل الاسرى ويستبيح المغلوبين نهباً وموتاً .

﴿ فصل ﴾

﴿ في ادوارد الرابع (١٤٦٠) ﴾

. ذا تقم لريكاردوس ابنه الاكبر بان حمل أهل لندرة على المناداة

به ملكاً وسمي ادوارد الرابع. وكان اللانكاستريون قد انتصروا ثانية في سنت البان غير انهم لم يلبثوا ان انكسروا في السنة نفسها (١٤٦١) فلجأت مرغريته الى فرنسا فانجدها لويس الحادي عشر بالفي عسكري على ان ترد له كاله اذا فازت غير انها غلبت أيضاً في موقعة اكسهام (١٤٦٣) نعادت الى فرنسا وبقي زوجها هنري السادس أسيراً في برج اندره سبع سنين بعد ان اعتقل فيه وأخرج منه مرتين .

على ان ادوارد الرابع أغضب ببعض أعماله وارويك فحمل عليه وكسره في نوتنجهام (١٤٧٠) واعاد هنري السادس ففر ادوارد الى هولنده . ولكن هنري اساء التصرف وجار جوراً ثقيلاً على الناس فاغضبهم ثم لم يدر الا وقد عاد ادوارد بجيش صغير اعانه على جمعه كارلوس الجسور فتغلب على وارويك وقتله بقرب بارنت (١٤٧١) وكسر جيش مرغريته في فيوكسبري فاسرها وذبح البرنس دي غال وكان هنري السادس قد مات فخلا الدرش له من كل منازع وساد حزبه على حزب اللانكاستريين الذين ضعفوا لكثرة من قتلوا ونهبوا منهم ولم يفعل أدوارد بعد هذه الحرب شيئاً يذكر سوى أنه حمل على فرنسا حملة انتهت بعقد معاهدة بيكيني (١٤٧٥) وفي سنة ١٨٧٤ حاكم أخاه دوق كلارنس واماته ثم توفي على أثر انهماكه في الشهوات وكانت وفاته سنة ١٤٨٣

﴿ فصل ﴾

﴿ في ريكاردوس الثالث (١٤٨٣) ﴾

وترك أدوارد أولادا قصرا فاحتبسهم أخوه دوق غلوسستر في برج لندره ثم أماتهم واغتصب السرير فوقع من جرآء ذلك الجزع في قلوب اليوركيين فثار بوكنجهام على الملك ودعا لامتطاء السرير هنري تيدور الغالي كونت ريشموند وآخر سليل من الامومة لآل لانكاستر فنزل في بلاد الغال وتغلب في بوسورث على ريكاردوس الثالث الذي قتل في اثناء المعركة (١٤٨٥)

﴿ فصل ﴾

﴿ في هنري السابع (١٤٨٥) ﴾

وخلفه على الملك هنري السابع فالف بين الوردتين اذ تزوج بوارثة آل يورك ابنة أدوارد الرابع وهو رأس آل تودور الذين توارثوا الملك مئة وست سنين الى ان خلفهم آل ستيوارت.

وفي عهد هذا الملك وعلى يده تم الاستبداد الملكي بالسلطة في انكلترا فانه عند ما ولي كان قد قتل نحو ثمانين اميراً من ذوي النسب الى الاسرة المالكة وادخل خمس اراضي المملكة في املاك التاج. وقد حذر هنري السابع كل الحذر من جمع مجلس النواب فلم يدعه الا في النادر وكان للاستغناء عنه يستورد الاموال التي يحتاج

اليها تارة بطريق القرض الاكراهي وأخرى بنفي جماعة من الموسرين ومصادرة ثروتهم . وهو الذي حظر على الشرفاء استخدام عدد كبير من الاجراء والحشم لتمتنع بذلك أسباب الفتن والثورات وحظر عليهم بيع الاراضي « الشريفة » وتقسيمها . ومن مآثره انه رقى التجارة والصناعة بما عقد من المعاهدات وزاد عدد السفن وبذل كثيراً من المال للاسفار الاكتشافية . وقد زوج ابنته مرغريته بملك اسكتلانده جاك السادس تمهيداً لضم هذه المملكة الى انكلترا . ومن هذا الاقتران نشأت حقوق آل ستيوارت بتاج انكلترا الذي توجوا به سنة ١٦٠٣ . ثم انه زوج ابنه الاكبر وبعده ابنه الثاني بكاترينه داراغون ابنة فردينند ملك اسبانيا .

الباب التاسع والاربعون

في نجاح الملكية باسبانيا

فصل

« في تزوج فردينند الاراغوني من اليصابات القشتالية (١٤٦٩) »

رأينا فيما تقدم من تاريخ اسبانيا انكفاف ملوكها المسيحيين عن محاربة المغاربة واشتغالهم بالمسائل الاوروبية التي خرجوا منها مستضعفين .

وكان في الزمن الذي وصلنا اليه من تاريخهم يوحنا الثاني ملك اراغون قد قتل ابنه كارلوس بالسم (١٤٦١) لمنازعته له في ملك نافار فثار عليه الكاتاليون ولم يعودوا الى طاعته الا بعد احدى عشرة سنة (١٤٧٢) . وكذلك كان هنري السادس ملك قشتالة قد أثار قومه باستسلامه لرجل دنيء من مقربيه يدعى برتران فأعانوا خلعه في سهل انيلا (١٤٦٥) وأقاموا مكانه اخاه دون الفونس فتوفي سنة ١٤٦٧ فاعادوا هنري السادس على ان يولي عهده لشقيقته اليصابات لا لابنته (١٤٦٨) وكانت اليصابات مع كثرة خاطبيها قد اختارت فرديناند ولي عهد اراغون وتزوجت به سراً (١٤٦٩) وعقدت معه اتفاقاً على أنها تستقل عنه في ادارة شؤون قشتاله . ولما توفي الملك هنري جلست على عرشه وتغلبت على ملك البورتغال الذي نازعها الملك (١٤٧٦) .

وبعد ذلك بثلاث سنين استوى زوجها فرديناند على سرير اراغون .

﴿ فصل ﴾

﴿ في فتح مملكة غرناطه (١٤٩٢) ﴾

ومن هذا العهد وجدت أسبانيا وجوداً حقيقياً وصرف فرديناند همه ودهاءه واليصابات ذكاءها وحكمتها الى

تأسيس الوحدة الوطنية وتعزيز المالكية واعظم ما فعلاه انهما فتحا غرناطه (١٤٩٢) وأذنا لسكانها وكانوا ينيفون على ٢٠٠٠٠٠ نفس بالاقامة في البلاد محتفظين بشرائعهم وأملاكهم ودينهم .

﴿ فصل ﴾

﴿ في محكمة التفتيش ﴾

وعلى أثر هذا الفتح وجد في أسبانيا أختلاط عجيب من المسلمين واليهود والمسيحيين فرأى الملك والملكة ان يوحدا دين هؤلاء الاقوام فأسسا المحكمة الفظيعة الملقبة بالمقدسة وبثا الجواسيس أو « المفتشين » في أطراف البلاد فبعث المفتشون الى التعذيب في أشبيليه وحدها من يناير الى نوفبر سنة ١٤٨١ مئتين و٩٨ مسيحياً مستجداً اتهموا بانهم يدينون بدين اليهود سراً وأصاب مثل ذلك الفين في بلاد قادس وأشبيليه .

وفي سنة ١٤٩٩ استصدر المفتشون أمراً بنفي اليهود وسلبوا المغاربة الحرية الدينية التي منحوها بمقتضى معاهدة غرناطه. واشتهر عن رئيس المفتشين انه أمر وحده باحراق ثمانية الآف وثماني مئة نفس بالنار وكفى بهذا دليلا على شدة المنكرات التى ارتكبت

وكان الملك رئيس هذه المحكمة الشنعاء واليه تأول أملاك المحكوم عليهم وأموالهم . فهو بهذه الوسيلة أصبح صاحب صولتين

عظيمتين حسية ومعنوية. وزاد على ذلك أنه جعل نفسه رئيساً لثلاث رهبنات قوية وحامياً لجمعية الاخاء المقدس التي أعانته على فتح غرناطه وكانت قد تألفت منذ سنة ١٢٦٠ لاضعاف شوكة الشرفاء . وفي سنة واحدة دمر فرديناند ستة واربعين من حصون غاليسيا ومعاقلها وأرسل مندوبين الى جميع الولايات لسماع شكايات الشعوب وارهاب الكبراء فتم له بذلك الاستبداد المطلق.

وعند وفاة اليصابات (١٥٠٤)اصبح فرديناند وكيلاً على قشتاله وكان صاحب اراغون وصقليا ونابولي ونافاريا وروسيليون واميركا التي اكتشفها له خريستوف كولومبوس سنة ١٤٩٣ وقد اضاف ولي عهده كارلوس الكبير بلاد النمسا وهولنده وفرانش كونته الى هذه الاملاك الواسعة حين ورثها في سنة ١٥١٦

وعند جلوس هذا الملك على السرير تألفت عصابة من الشعب سميت بالعصابة المقدسة فطلبت مطالب كثيرة لاصلاح حال العامة وفي جملتها الغاء ما أعفي منه الشرفاء من العوائد والضرائب فغضب الشرفاء لهذا الطلب ولم ينضموا الى العصابة لمقاومة نفوذ الملكية بل تألبوا حول الملك وكسروا شوكة العصابة وقتلوا زعيمها شنقاً (١٥٢١) فنتج من ذلك ان الملك فاز على الشعب كفوزه على الشرفاء من قبل ولم يبق في البلاد حائل يحول دون ارادة له

﴿ فصل ﴾

﴿ في نجاح الملكية بالبرتغال ﴾

حدث في البرتغال مثل الانقلاب الذي حدث في أسبانيا فإن ملكها يوحنا الثاني (١٤٨١) الغى كثيراً من امتيازات الشرفاء وأمات دوق براغانس شنقاً (١٤٨٣) وقتل بيده دوق فيزو ثم ترك لابنه عمنويل الملقب بالسعيد (١٤٩٥) سلطاناً مطلقاً على البلاد والعباد . وحكم هذا الملك عشرين سنة لم يعقد في خلالها مجلس النواب مرة واحدة . وفي عهده اكتشف رأس الرجاء الصالح وطريق الهند . وفي الجملة فقد سادت الملكية المطلقة في جميع اوروبا الغربية وكان ذلك انذاراً بحروب أقامتها مطامع الملوك بعد ذلك على اوروبا الوسطى لاستمرارها على ما كانت عليه من الانقسام والضعف

﴿ الباب الخمسون ﴾

﴿ في المانيا وايطاليا من سنة ١٤٥٣ الى سنة ١٤٩٤ ﴾

(وذكر فريدريك الثالث (١٤٤٠) ومكسيميليان (١٤٩٣)

﴿ فصل ﴾

﴿ في تزوج مكسيميليان من ماري دي بورغونيا ﴾

عرفنا فيما سبق ان تاج المانيا وقع لآل هبسبرج ثانية (١٤٣٨)

ولكن السلطة الامبراطورية كانت قد اصبحت وهماً من الاوهام ولم يكن الامبراطور فريدريك الثالث ممن يرجى أو يخشى منهم الخروج من مثل هذه الحالة فاقام في السرير ثلاثاً وخمسين سنة لم يقم فيها بعمل يذكر سوى أنه حارب المجر حرباً عادت عليه بالفشل وزوج أبنه مكسيميليان بماري دي بورغونيا ابنة كارلوس الجسور ووارثة هولنده فلما خلفه ابنه هذا (١٤٩٣) رأى ان يعيد الامن العام الى المانيا فاستصدر من النواب امراً يحظر على الامراء ان يتحاربوا ومن خالف عوقب بالاسقاط من امارته وقسم البلاد الى عشر دوائر ونصب في كل دائرة حاكماً عسكريا لحفظ الامن . فاجتمع المنتخبون السبعة (١٥٠٢) وعقدوا فيما بينهم تحالفاً على ان يجتمعوا في كل سنة للنظر فيما يؤيد استقلالهم ويدفع عنهم مطامع الامبراطور . وفي هذه الاثناء اتحدت بعض المدائن والفت شركة الهانس العظيمة ولكن لغاية تجارية محضة فكبر شأنها واتسع نطاق أعمالها حتى شمل جميع المدائن القائمة على ضفاف الرين وفي سواحل المانيا واكثر مدائن هولنده وفرنسا وانكلترا وروسيا

ولم يكن لمكسيميليان في خارج بلاده عمل يذكر سوى أنه استزاد على هولنده التي أخذها مهراً من امرأته مقاطعتي ارتوا وفرانش كونته بمقتضى معاهدة سانليس (١٤٩٣) التي عقدها معه كارلوس الثامن ملك فرنسا ليتفرغ لمحاربة ايطاليا ثم انه تداخل عن

حمق وجهل في حروب ايطاليا وأهم ما جرى في عهده انه زوج ابنه فيليب الجميل دوق النمسا بحنه الملقبة بالمجنونة ابنة اليصابات وفرديناند فكان مهرها ملك اسبانيا ونابولي واميركا .

وتوفي مكسيميليان (١٥١٩) في أثناء حصول الفتن الاولى الناشئة عن الاصلاح المذهبي .

﴿ فصل ﴾

﴿ في ايطاليا في نحو سنة ١٤٥٣ ﴾

« وذكر قيام الامارات مكان الجمهوريات فيها »

بعد ان تحولت اكثر جمهوريات ايطاليا الى امارات وقعت في أيدي ظلمة مستبدين فكان في ميلانو فرنسوا سفورزا الذي خلف آل فيسكونتي سنة ١٤٥٠ ثم خلفه ابنه فقتله الكبراء (١٤٧٦) فخلفه حفيده يوحنا غالياس القاصر وأقيم عليه وصياً عمه لودوفيك ليمور فطمع في الامارة لنفسه واستعان بالفرنسويين على ذلك فانتشبت بسببه حروب ايطاليا التي جاءت وبالا عليها . وكانت جنوا تابعة لدوق ميلانو وذلك ان أهلها عندما سئموا من كثرة التحزب والشقاق فيما بينهم عرضوا على لويس الحادي عشر ان يكون صاحب الامر عليهم فأبى وأتبعهم للدوقية المشار اليها . على انهم كانوا من أغنى سكان اوروبا وكان لهم وكلاء وعملاء في جميع مراكز العالم التجارية .

وكانت البندقية ذات الصولة الاولى في شمال ايطاليا . وكانت أقرب الى الملكية منها الى الجمهورية اذ كان يحكمها منذ سنة ١٤٥٤ ثلاثة مفتشين يراقب بعضهم البعض ويحاكون الناس بناء على وشايات الواشين وبلاغات الجواسيس .

ولما سلبها الاتراك ما كان لها من الاملاك في الشرق رضيت بحمل الجزية اليهم لتعيش بسلام وتسلم تجارتها وافتتحت أربع ولايات جديدة لتستعيض بها عما فقدته فهالت عظمة ثروتها واتساع املاكها الامراء المجاورين لها فتحالفوا عليها فكسرتهم وخرقت تحريم البابا لها بسبب موادعتها الاتراك .

وكانت فلورنسا تحت حكم آل مديسيس الذين خلعوا آل البيزي عن الامارة وتولوها . وأولهم كوم دي مديسيس . كان تاجراً صاحب ثروة جسيمة وأكثر أهل المدينة مدينون له . فلما حكم في فلورنسا بقي الى سنة ١٤٦٤ لم يتخذ لقباً وانفق من ماله ٣٢ مليوناً على تشييد القصور والمكاتب والمستشفيات وتعزيز التجارة والصناعة والفنون فدعي بابي الوطن . غير ان الشرفاء لم يلبثوا ان ثاروا على خلفه جوليان بدعوى انه استبد بالبلاد (١٤٧٨) فقتلوه في الكنيسة وأماتوذويه . الا أن أخاه لوران دي مديسيس فرّ من يد معتقليه وقبض على أزمة الحكم فانتقم من أعدائه انتقاما شديداً وشنق أحد الاساقفة وهو في ملابس الصلاة على أحدى نوافذ قصر

وكان لوران هذا أشهر امراء مديسيس فانه أكرم العلماء والأدباء وارباب الصنائع وشيد الابنية الجميلة وفي سنة ١٤٩٠ اشرف على الافلاس لكثرة ما أنفقه من المال فوفت الجمهورية ديونه وأفلست لاجله . وخلفه بطرس الثاني فقام في عهده حزب عظيم من الشعب يطالب الحرية الدستورية وكان زعيم هذا الحزب يدعو الى تطهير أخلاق الاكليروس والرجوع الى النظامات القديمة وكان يقول « يا ايطاليا. يا رومه: توبي الى الله فان الاجانب سيهبطون عليك ويفترسونك كالاسود الضارية» ولكن من كان يستطيع دفع مصيبة الحروب ودخول الاجانب للبلاد في حين كان البابوات عاراً على الكرسي والكنيسة . منهم سكستوس الرابع الذي اشترك في مؤامرة بازي ليجلس ابن أخيه جيروم ريارو على تخت امارة ومنهم اسكندر السادس بورجيا (١٤٩٢) الذي انتخب بطريقة غير شرعية وركب في حكمه أنواع المحارم والفاحشة والمظالم والخيانات وسفك الدماء وقتل الابرياء بالسم والخنجر. وتوفي عن ابن له يدعى قيصر بورجيا وصل الى درجة الكردينال وكان جامعاً لرذائل أبيه. اما نابولي فقد حكم فيها الفونس الملقب بالعزيز النفس الى سنة ١٤٥٨ ثم خلفه فرديننذ فظلم وأستبد فثار عليه بارونيته فجاملهم واغراهم بالمواعيد ثم دعاهم الى مأدبة فذبحهم. وكان نصيب الشعب من معاملته كنصيب الشرفاء فانه كان يحملهم من

المغارم والضرائب والمظالم ما لا يطيقون . وفي عهده أخذ الاتراك اوترنته والبنادقة غاليبولي وبوليكاسترو فلم يترك ساكنا ولذلك كله كان بغيضاً على الشعب حتى أنه عند ما فتح كارلوس الثامن هذه المملكة لم يقاومه أحد فيها .

الباب الواحد والخمسون

﴿في الدولة العلية من سنة ١٤٨١ الى سنة ١٧٦٢﴾

﴿ فصل ﴾

﴿في السلطان بايزيد الثاني (١٤٨١ — ١٥١٢)﴾

خلف هذا السلطان أباه محمداً الثاني وكان أديباً محبا للسلم لم يحارب احيانا الا لقمع ثورة أو دفع عدو أو سد مطمع للانكشارية وقد ثار عليه أخوه الاميرجم فوفق في أول أمره واستقل بجانب من السلطنة وجعل عاصمته بروسه ثم دارت الدائرة عليه فلجأ الى مصر ثم استأنف الكرة مستعيناً بقاسم بك أمير قرمان فدحر ثانية وفرّ من وجه أخيه الى رودس فمنعه فرسانها من الخروج منها اجابة لطلب السلطان ثم أرسلوه الى بلاط البابا فبقي فيه وجعله المسيحيون فزاعة لاخيه الى ان مات .

واستمر قاسم بك القرماني في تشغيبه على الدولة الى ان انضمّ

اليه أمير بلاد ذي القدرية وحاربا الجيوش العثمانية وأشتد الخطب حتى كاد يكون فتنة بين الامتين التركية والعربية فتوسط في الصلح حاكم تونس المولى عثمان الحفصي حتى وفق بين الفريقين

وفي سنة ١٤٨٨ جهز السلطان أسطولا لمناوأة البنادقه وكانوا قد أغاروا على بعض الموانى العثمانية في خلال الحوادث المار ذكرها فانتصر العثمانيون عليهم وفتحوا ميناء ليبنتس ثم قلعتي مدون وكورون ثم كسروا أسطولا للبنادقة والاسبانيين فعقدوا مع الدولة صلحا وقد اغزى السلطان بايزيد الانكشارية بوسنه وكرواسيا ومولدافيا المعروفة ببلاد البغدان على الضفة اليسرى من الطونه بجانب صقع الافلاك . غير ان هذه الحروب الصغيرة لم تكف الانكشارية فما زالوا بالسلطان حتى خلعوه وولوا سليما رابع ابنائه لما كانوا يرونه عنده من الحماسة والبسالة وذهب السلطان المخلوع الى ديمتوفه ليقضي فيها بقية أيامه فبعث اليه ابنه من أماته مسموما (١٥١٢) والسلطان بايزيد الثاني أول من وزع الهبات على الانكشارية وضباتهم عند توليه الملك فأحدث بذلك عادة ساءت مغبتها على خلفه .

﴿ فصل ﴾

(في السلطان سليم الاول ١٥١٢ — ١٥٢٠) (٩١٨ — ٩٢٦)

تولى في السادسة والاربعين من العمر وله منازع في السرير

هو السلطان احمد . ذلك لانه اكبر سناً ولان والده انتخبه قبل تنازله عن السلطنة بموافقة كبراء الدولة. فلما خشي السلطان سليم ان يستفحل امره عمد الى الحيلة فقتل جميع اخوته واقاربه الذين اذن لهم بالاقامة في بروسه نخاف احمد ولجأ الى مرحمة أخيه فلم يبق عليه وغدر به. وكان لاحمد ولدان أحدهما الامير مراد فرّ الى بلاد العجم الى الشاه اسمعيل الصفوي مؤسس الدولة الصفوية . والثاني الامير علاء الدين فزع الى الملك الاشرف قانصوه الغوري ملك مصر فحمياهما.

وكان الشاه اسمعيل الصفوي يبث الفتن في داخل الدولة وعلى أطرافها خصوصا فسار اليه السلطان سليم (٩٢٠ ه) في ١٤٠ الف مقاتل ولما وصل طراخان همّ الجنود بالعصيان فخرج اليهم وقال يرجع من شاء وانا اتقدم وحدي فانقادوا وبعد ذلك تلاقى الجيشان في صحراء جالدبران فتغلب العثمانيون وقتل من الفريقين كثيرون وافل نجم الشاه اسمعيل وتقدم السلطان سليم الى تبريز فدخلها ظافراً ثم عاد الى الاستانة العلية ومعه غنائم لا تقوم باثمان وعلى أثر عودته استفتح بلاد مرعش وقتل أمراءها ابناء ذي القدرية وضمها الى الدولة ومن سنة ٩٢١ الى سنة ٩٢٣ ه أخضع بلاد كردستان وانتصر على جيش الاكراد والجنود التي أمدهم بها الشاه اسمعيل وفي العودة استولى فريق من رجاله على خربوط وفريق آخر على ديار بكر .

ولما ضمّ السلطان سليم بلاد ذي القدرية ساء موقع ذلك من

الملك الاشرف قانصوه الغوري فسأل السلطـان ترضية بان تستمر الخطبة باسم قانصوه في تلك البلاد فرد عليه بارسال رأس علاء الدين ذي القدرية اليه فاخذ الاشرف يحشد الجيوش ليحارب السلطان سليماً واستعان بالشاه اسمعيل فامدّه بالمال والعـدد والرجال . أما السلطان سليم فارسل اسطولا ضخما الى الاسكندرية وسار بجيش كبير براً قاصـداً بلاد الشام فالتقى جيشه بجيش قانصوه في صحراء حلب فدحره ودخل السلطان حلب منصوراً ثم سار منها الى دمشق فالقدس ففزه ثم كاتب طومان بك بالتسليم فابى فلقي جنوده في الخانقاه بمكان يدعى الريدانية وهزمهم شرهزيمة وتبعهم الى مصر العتيقـة ثم استـأسر طومان بك وأمر بصلبه وانقضت بموته دولة الجراكسـة أو المماليك البرجيـة بعد ان ملكوا مصر قرنا وعشرات من السنين

وفي خلال اقامة السلطان سليم في مصر جاء ابن ابي البركات شريف مكة المكرمة وقدم له بيده مفاتيح الحرمين طائعا مختاراً وصارت الخطب تتلى في المساجد أيام الجمع باسم السلطان بعنوان خادم الحرمين الشريفين وكذلك قدم له الطاعة باربروس خير الدين رئيس بلاد البربر . ولما عاد السلطان الى القسطنطينية استصحب آخر الخلفاء العباسيين بمصر وهو المتوكل على الله فتنازل له عن الخلافة الاسلامية فانضمت من ذلك الحين الى السلطنة العثمانيـة

وقد ترك السلطان فى مصر والياً يتولى الاحكام وثلاثة وجاقات متناظرة يؤلف من كبراء ضباطها وموظفيها ديوان للوالي . وكان يود بعد ذلك الاجهاز على الصفويين فصرف وزراؤه نظاره عنهم وفي سنة ١٥٢٠ ادركه أجله وهو ذاهب لفتح أدرنه .

﴿ فصل ﴾

﴿ في السلطان سليمان القانوني ١٥٢٠—١٥٦٦ ﴾

أول ما شرع فيه هذا السلطان الحكيم سنّ القوانين ووضع النظامات الكافلة تمكين بنيان الدولة وتقوية اساطيل البحر الاسود والبحر الابيض المتوسط واصلاح شؤون الجيوش البرية

ولما علم والي الشام جانبرد الغزالي بموت السلطان سليم ظن أن ذلك فرصة مناسبة لتحقيق أمانيه فأثار فتنة واستولى على قلعة دمشق وغيرها فعين السلطان الوزير فرهاد باشا بجيش وحاربه حتى تمكن من ردعه ثم قبض عليه وقتله ثم أمر السلطان فرهاد باشا بالذهاب الى الحدود الشرقية لمقابلة جيوش الشاه اسمعيل وصدهم عن شن الغارات وفي تلك الاثناء أرسل السلطان مأموراً مخصوصا لمقابلة ملك المجر لتسوية بعض المسائل الموقوفة بين المملكتين ولاخباره بارتقاء السلطان على كرسى السلطنة فقتله ملك المجر فخرج

السلطان بجيش جرار من مدينة ادرنة وغزا بلاد كرواسيا أو الحزوات وسار حتى التى بنفسه الحصار على بلغراد وبعد أن حاصرها نحو شهرين ونصف شهر وخرب أسوارها بالالغام استولى عليها عنوة (١٥٢١) وقد كانت هذه المدينة أقوى حصن للمجر مانع لتقدم العثمانيين الى ماوراء نهر الدانوب وقد ألحقت بسنجقية سمندرة وصارت فيما بعد تابعة لولاية بوسنة ثم عاد السلطان الى دار الخلافة غانماً ظافرا . وفي السنة التالية أمضيت بين الدولة العثمانية وجمهورية البنادقة معاهدة تجارية تؤيد المعاهدات السابقة على يد سفيرها المدعو ماركو ممون وزيد عليها أن قنصل الجمهورية أى وكيلها باستانبول يغير كل ثلاث سنوات وأن يكون له الحق في نظر أمر تركات رعيته وأن يرسل من طرفه ترجمانا لحضور المرافعة التي تقام ضد رعايا حكومته أمام المحاكم العثمانية وأن يكون المبلغ الذي تدفعه الى الدولة نظير احتلالها جزيرتي قبرس وزنطة عشرة آلاف دوكا عن الاولى وخمسمائة عن الثانية ولهذه المعاهدة أهمية عظيمة لانها أس الامتيازات الاجنبية ببلاد الدولة العثمانية وفي السنة المذكورة عزم السلطان على فتح رودس فقاومه فرسانها المشاهير بالبسالة أشد المقاومة ثم سلموا على أن يبرحوا الجزيرة باسلحتهم واموالهم (١٥٢٢ م) وانتقلوا الى جزيرة مالطه

ولما كان السلطان مشتغلا بفتح رودس اعتدى لويس الثاني

ملك المجر على حدود الدولة بالروملي فلما عاد السلطان وبلغه هذا الخبر عزم على محاربة المجر فأرسل جيشا مركباً من ٣٠٠ الف مقاتل تحت قيادة الصدر الاعظم ابراهيم باشا (٩٣٢هـ — ١٥٢٦ م) وأسطولا مركباً من ٨٠٠ سفينة بالذخائر والمدد الى نهر الطونة ثم خرج السلطان بنفسه حتى وصل الى جهة سرم بعد ان عبر نهر صاوه على جسر ودخل الصدر بجيشه بلاد المجر فقابل جيشا مؤلفاً من ١٥٠ الف مقاتل يقوده لويس الثاني ملك المجر بنفسه في صحراء مهاج وانتشب بينهما القتال وفي أثنائه وصل السلطان الغازي مع جموعه فأخذ قيادة الجيش بنفسه فانهزم المجريون مع من انضم اليهم من جيوش الكرواسيين مساعديهم وبعد قليل استولى السلطان على مدينة بودين (بوده) تخت مملكة المجر وبلاد أخرى بلا حرب .

ولما مات لويس الثاني نصب السلطان على مملكة المجر ملكا آخر يدعى جان زابولى الا أن فرديننـد ملك النمسا لما كان يرى ان مملكة المجر تؤول اليـه بحق الوراثة ولاسيما وان أخاه شارلكان امبراطور المانيا كان المتفرد بالنفوذ في ذلك العصر لدى ممالك اوروبا أبى المجر قبول جان زابولى المذكور ودعوا فرديننـد ملك النمسا ليكون ملكا عليهم فاستعد فرديناند عند ذلك ثم سار يقود جيشا عظيما واستولى على مدينة بودين ففر جان زابولى وطلب مساعدة السلطان وحمايته فأمر في الحال بسوق العساكر على مملكة أوستريا وجهز جيشا عظيما

ولما وصلت الجنود العثمانية ومعها السلطان الغازي الى صحراء مهاج قابلها جان زابولى ومن معه من فرسان المجر الذين انضموا اليه وساروا تحت رايته ثم تقدم السلطان وضرب الحصار على بودين فسلمت عساكر أوستريا بشرط حفظ أرواحهم الا انه وقت خروجهم من المدينة تطاول بعضهم على بعض الجنود العثمانية فاتخذ العثمانيون ذلك نقضاً للعهد المعطى وانقضوا عليهم فقتلوهم عن آخرهم ثم أجلس السلطان جان زابولى على تخت المجر بالقوة واشترط عليه دفع جزية سنوية مقررة وصارت بذلك بلاد المجر من أملاك الدولة وأبقى السلطان ٣٠٠٠ جندي للمحافظة على تلك المدينة

ولم يكتف السلطان باسترداد بودين وأقعاد جان زابولي على تختها بل تقدم لمحاصرة مدينة ويانة فلما بلغها لم يكن بتلك المدينة للنمساويين سوى ٢٠ الف جندي معهم ٧٢ مدفعاً أما جيش العثمانيين فكان يتألف من ١٢٠ الف مقاتل معهم ٤٠٠ مدفع ثم حصل بين العثمانيين والنمساويين نحو عشر وقائع كان النصر فيها جميعها للعثمانيين ولما رأى السلطان ان العدو كف عن القتال وان فصل الشتاء قد أقبل وانه لم يجلب معه مدافع الحصار العظيمة عاد الى استانبول وصالح دولة النمسا على ان تمتنع عن التداخل في أحوال المجر (١٥٣٠)

وفي السنة التالية جاء مندوبون من قبل النمسا لمحالفة الدولة

العلية فأبت فتقدم فرديننd وحاصر قلعة بودين ثانيا فأمر السلطان بالاستعدادات الحربية ثم أرسل جيشاً مركبا من ٢٠٠ الف مقاتل لمحاربة المجر وأرسل أسطولاً ضخما ثم سافر السلطان حتى وصل بلاد النمسا ظافراً فطلبت النمسا الصلح فاجيب طلبها ثم عاد السلطان بالغنائم والاسرى

وفي عصر هذا السلطان الشهير كان ظهور عائلة باربروس بسواحل الجزائر وتونس وطرابلس الغرب وكان وجودها واسطة أخرى لاعلاء اسم البحرية العثمانية واشتهار شأنها

وفي خلال سنة ١٥٣٤ توسل أهالي تونس بالسلطان سليمان القانوني ليخلصهم من مظالم ملوك بني حفص أصحاب تونس في ذلك الوقت فأصدر أمره لخير الدين باشا باربروس بالتوجه بالعمارة الى تلك الديار وكانت الحكومة الاسبانيولية قد انتهزت فرصة اشتغال السلطان بحرب العجم وأرسلت عمارتها مع جيش عظيم يبلغ عشرين الف مقاتل (١٥٣٥) لتعضيد المولى حسن الذى كان قد التجأ اليها طالباً مساعدتها لرجوعه حاكما على بلاد تونس كما كان وقد تمكنت الحكومة الاسبانيولية من اعادته الى سلطنته واستولت على قلعة حلق الوادي بعد حروب طويلة كان امبراطور اسبانيا شارل الخامس يقود التجريدة فيها بنفسه ثم عادت عمارة الاسبانيول بعد ان تركت قوة من الجند في قلعة حلق الودى .

فقدم خير الدين باشا تونس ثم سار بالاساطيل الى سواحل الجزائر ثم عاد الى الاستانه (١٥٣٦) بعد ان ترك بمدينة بجاية فرقة من أساطيله مؤلفة من خمس عشرة سفينة . وبلغ ضابط هذه الفرقة وصول شارل الخامس باساطيله واساطيل من اتحد معه من دول اوروبا الى تونس فأغرق تلك السفائن بمصب نهر أدوس الواقع بجوار بجاية بناء على ما أوصاه به خير الدين باشا وشيد عند مصب النهر المذكور استحكامات قوية وبعد عودة خير الدين باشا أخرج تلك السفائن وضم اليها ما كان موجوداً منها بمدينة الجزائر وغيرها من سفن قرصان الجزائر وبذلك صار لديه دونما مؤلفة من ٣٢ سفينة ثم أقلع بها حتى وصل الى جزيرة مينورقة وقبض في ثغورها على خمس سفائن كانت آتية من حرب تونس ثم أخرج جنوده الى تلك الجزيرة ففتحت وغنمت ثم عاد الى الاستانة وجهز له السلطان عمارة مركبة من ٢٨٠ سفينة وجعل ما بها من الجنود تحت قيادة السردار لطفي باشا وقصدت الونية من ثغور البانيا ثم سافر السلطان برا بجيوش أخرى والتقى مع الاساطيل بالونية وهناك أمر بشن الغارات في فرقة من الاساطيل على سواحل وثغور ايطاليا وكانت حكومتا اسبانيا وايتاليا قد جمعتا عمارتهما الجسيمة وسيرتاها الى جزيرة كورفو تحت قيادة الاميرال الشهير اندريا دوريا فالتقت هذه الاساطيل الاسطول العثماني الذي كان ذاهباً الى الونية فحملت

عليه عمارات الدول المتحدة المذكورة ولما دارت رحى الحرب بين الفريقين لم ينظر العثمانيون لقلتهم بل نظروا لشأنهم ومع ذلك تحطمت اكثر سفنهم وقتل منهم عدد عظيم وكانت خسائر المتحدين عظيمة ايضاً وجرح قائدهم اندريادوريا ولما بلغ هذا الخبر السلطان أمر في الحال باعلان الحرب على تلك الدول .

وبعد أن استعدت الدولة خرج خير الدين باشا بالعمارة العثمانية وكانت تؤلف من ٤٠ سفينة قاصداً مياه الارخبيل للانتقام من البنادقة الذين اعتدوا على الاسطول الآنف ذكره وقد تمكن من الاستيلاء على عدة جزائر ثم رتب ادارة تلك الجزائر ونصب عليها حكاماً من أهلها وخصص على كل جزيرة قدراً من المال تدفعه سنوياً وعاد الى استانبول لتمضية فصل الشتاء بمينائها

ولما أتى فصل الربيع خرج بما معه من السفن المستعدة وصدرت أوامر السلطان بأن يضاف الى عمارته أربعون سفينة أخرى لتقويتها وان يجعل فيها العدد الكافي من أمراء البحر المجربين الماهرين وان يجعل فيها ثلاثة الاف من اليكجرية وأقلعت الى بحر سفيد(١٥٣٨) ولما وصلت الى جزائر اشكتوز تلاقت مع سفن قرصان الاعداء وشتتت شملهم بعد ان أسرت منهم ٣٨٠٠ أسير ضمتهم الى عملة السفن العثمانية وفي تلك

الاثناء حضرت عمارة عثمانية أخرى مركبة من تسعين سفينة وحضرت أيضاً أساطيل أخرى مركبة من عشرين سفينة فصارت العمارة السلطانية بذلك قوية جداً ثم خرج خير الدين من اشكتوز ولما قرب من جزيرة اشكوبولوزا التحق بأساطيله نحو السبعين من زوارق قرصان الارخبيل ثم التي مراسيه بثغر الجزيرة المذكورة فقدمت أهاليها الطاعة وأستأمنوا فأمنهم وضرب عليهم جزية سنوية وأقر عليهم حكامهم الذين انتخبوهم ثم أبقى هناك بعض السفن الف منها أسطولاً مخصوصاً للمحافظة على جزائر الارخبيل ثم أقلع وفتح جزائر انديرة واستنديل وميقونوز وشيره وطرد منها البنادقة وضمها الى التابعية العثمانية ثم قصد جزيرة كريد الا انه لما رأى متانة مدن خانيه ورسمو وقنديه وعلم ان فتحها يقتضي زمنا طويلا اكتفى بشن الغارة عليها

وفي غرة جمادى الاولى من سنة ٩٤٥ هـ (١٥٣٨ م) اقبلت اساطيل الاعداء تحت قيادة اندريا دوريا تجاه پرهويزه والقت مراسيها على أربعة أميال من عمارة العثمانيين وكانت مركبة من ٥٢ سفينة للامبراطور شارلكان و ٧٠ سفينة للبنادقة و ٣٠ سفينة للبابا و ١٠ سفن لقرصان مالطه و ٨٠ سفينة لاسبانيا وبعض سفن أخرى للحكومات الاخرى البحرية أما الدونما العثمانية فكانت مركبة من ١٤٠ سفينة ما بين صغيرة وكبيرة فقط لكن خير الدين باشا

تغلب عليها وفي اليوم التالي صباحا دارت الدونما العثمانية خلف جزيرة أياماورو وقابلت سفن العدو ثانية بمينا اينجر فهاجمها وكسرتها وابدى خيرالدين باشا من المهارة في حرب البحر مالا يزال عجباً للمؤرخين

ولما ارتدت باقي الاساطيل المتحدة بالخيبة أراد قوادها أن لا يرجعوا الى بلادهم الا باكتساب نصر يحط عنهم بعض مالصق بهم من ادران العار فعرجوا على قلعة نوه في ساحل ولاية هرسك وحاصروها براً وبحرا فسلمت عنوة ثم استردها العثمانيون

وفي سنة ١٥٤١ اتفقت حكومتا ايتاليا واسبانيا بايعاز شارل الخامس وأرسلتا دونما مركبة من مائة سفينة حربية ونحومائة سفينة نقالية وجيشاً بريا كبيراً لفتح بلاد الجزائر في شمال افريقية فلقي الجيش المذكور مقاومة عظيمة من باي الجزائر وثارت على العمارة المذكورة زوبعة عظيمة تلاعبت أمواجها بمراكبها حتى أغرقت منها نيفاً على ١٥٠ سفينة والقت بعضها على البر . ولما وصل خبر قدوم خير الدين باشا بالدونما العثمانية الى الجزائر هرب العدو

ولما كانت انتصارات العثمانيين قدأضرت كثيراً بالبنادقة وحطت من شأنهم وعطلت متاجرهم أرسلوا الى الاستانه سفراء لطلب الصلح تحت شروط منها أن يتركوا جميع الجزائر التي استولت عليها الدولة ونيكشة وانابولى والبلاد التي لهم في مورة ودالماسيا وان

يدفعوا ثلثمائة الف بندقي فقبل السلطان منهم ذلك وأمضيت الشروط المذكورة .

وقبل وفاة جان زابولي ملك المجر كان قد جعل ولده ستيفان ولي عهده الا أن فردينند ملك بوهيميا طلب من الملكة ايزابيله تسليم المملكة اليه حسب المعاهدة التي اتفق عليها مع زوجها فلم تقبل وأرسلت رسولاً الى السلطان سليمان تلتمس منه المساعدة والامداد فأرسل لها جيشاً فدخل الجيش بودين وضم السلطان دولة المجر للاملاك العثمانية واقطع ستفان ووالدته أقليما من بلاد الاردل

وفي سنة ١٥٤٣ استعان فرنسيس الاول ملك فرنسا بالسلطنة العثمانية على شرلكان فأرسل له السلطان دونما مشكلة من مائة سفينة حربية تحت قيادة خير الدين باشا لمساعدة العمارة الفرنساوية التي كانت تحت قيادة دوق انجيان وكانت مركبة من أربعين سفينة حربية في محاربات نيس وسواحل اسبانيا ففتحت جملة حصون .

وبينما كانت الدولة العثمانية مشتغلة بالمحاربات البحرية والبرية المستمرة مع البنادقة واسبانيا والدول المتفقة معهما في البحر الابيض المتوسط كان البرتغاليون يمدون فتوحاتهم بسواحل الهند ذاهبين اليها من طريق رأس رجاء الخير بجنوبي افريقية وبعد ان كانت التجارة الهندية والصينية تنقل من هاته البلاد الى ثغر السويس ومنه الى الاسكندرية ومنها الى أوروبا في البحر المتوسط الابيض

بواسطة السفن التجارية العثمانية وغيرها من سفن الدول المتحابة كانت أعمال البرتغاليين التي ذكرناها سبباً لتعطيل المنافع والتجارة العثمانية فأصدر السلطان الاوامر المشددة الى وزيره سليمان باشا الخادم والي مصر بتجهيز الاساطيل اللازمة في البحر الاحمر لارسال حملة لمحاربة البرتغال بجهات الهند وتأمين طرق التجارة وأرسل لذلك من الاستانة سليمان رئيس وكان أشهر رجال عصره معرفة بالملاحة والبحرية لمساعدة سليمان باشا في هذه المأمورية فتمكن الاثنان بما بذلاه من النشاط من تجهيز وتشييد جملة سفائن في فرضة السويس (١٥٣٧)

وفي خلال ذلك قام هماون شاه ملك الهند يقصد محو ملوك الطوائف الذين بأطراف بلاده ولما هدد بهادرشاه ملك كجرات أرسل هذا سفيراً الى السلطان سليمان يطلب نجدته فكانت هذه المسئلة وسيلة أخرى أقلع أسطول من السويس مؤلف من ثمانين سفينة فيه عشرون الف جندي ولما وصلت هذه السفن الى عدن استدعى سليمان باشا أميرها المدعو عامر بن داود فقبض عليه وصلبه بعد ان كان وعده بالامان وبذلك استولى على امارة عدن بلا حرب وأبقى فيها بعض الجنود ونصب عليها بهرام بك أحد أمراء الجنود العثمانية محافظاً ثم أقلع منها قاصدا سواحل الهند فوصلها بعد أيام ولما أرسى على ساحل كجرات بلغه أن بهادرشاه صالح خصمه

بعد ان تحاربا مراراً وكانت الاساطيل البرتغالية تساطت على ثغور كجرات واستولت على فرضة ديو وما جاورها من البلاد ومات في الحرب بهادرشاه وخلفه الملك محمود في مملكته هادن البرتغاليين فأخرج سليمان الخادم الجيوش الى البر بعد ان اتحد مع الملك محمود وأخذ يقاتل البرتغاليين حتى استولى منهم على قلعتي كوله وكات وقتل منهم اكثر من الف محارب ثم شرع يحاصر فرضة ديوا براً وبحراً وتمكن بعد زمن من الاستيلاء على قلاعها الامامية الا ان مقاومة محافظها البرتغالي المدعو انطوان وما أظهر من البسالة والاقدام في المدافعة عن القلاع الداخلية اراه ان الاستيلاء عليها لا يمكن بسهولة لاسيما وأنه لما رأى ان ذخيرة العساكر قاربت الفراغ طلب من الملك محمود امداده بالذخيرة فلم يلتفت اليه فعاد الى السويس وبعد عودة الاساطيل والجيوش الى عدن حضر أمير بلاد الشحر وقدم خضوعه للسلطنة فدخلت تلك الجهات ضمن الاملاك العثمانية وأخضع سليمان الخادم سواحل اليمن

وفي سنة ١٥٥١ انتقض العدنيون على الحاكم العثماني وساعدهم البرتغال فجاءت الاساطيل العثمانية المصرية وحاربت البرتغال في مياه هرمز فتغلبت على اساطيلهم التي كانت تفوقها عدداً ولكن الزوابع ثارت بشدة فاضطرت العثمانيين للرجوع الى مصر بعد ان اضعفت شوكة البرتغال في تلك الجهات

وقبل هذه الوقائع بنحو خمس سنين كان طهماسب أخو شاه العجم قد استجار بالسلطان على اخيه وكان السلطان يتمنى مسوغاً لقتال العجم فجهز الجيش وخرج قاصداً تلك البلاد وما زال سائراً منصوراً حتى وصل الى مدينة تبريز وعند عودته استرد مدينة وان التي كان الاعجام قد استولوا عليها ولما كان اهل الكرج يظهرون الخصومة للدولة العثمانية أخضع بلادهم وأدخلها ضمن الاملاك العثمانية وبعد خروج العثمانيين من بلاد العجم تقدم ملكهم بشن الغارة على جهات موش وعاد لجواز وأخلاط وغيرها فجرد السلطان لذلك جيشاً كثيفاً وافتتح عدة مدائن وحصون ونهبت جنوده وخربت كل ما صادفته من قصور الملك ومنتزهاته بالبلاد التي استولت عليها ثم فتح مدينة تبريز ونهبها بعد ان قتل عدداً وافراً من العجم ثم أغار على مدينة مراغة فاحرق وقتل وانتصر بجوارها على جيوش العجم انتصاراً مبيناً فطلب الشاه الصلح فأجابه السلطان الى ذلك وعقد مع العجم مشارطة أباح فيها للعجم الحج لبيت الله الحرام ومزاولة مذهبهم بلا تعرض وكانت هذه أول معاهدة عقدت بين الدولة والعجم

وفي سنة ١٥٥٣ استنجد فرنسيس الاول ثانية بالسلطان فارسل اليه أسطولا فحارب الاسطولان الاسبانيول وانتصرا على كثير من سفنهم . جا عدة قلاع ومدن ساحلية أضيفت الى أملاك فرنسا

وفي سنة ١٥٥٤ استنجد فرنسيس ثالثة بالسلطان فامدّه باسطول أخذ جملة قلاع من يد الاسبانيول وسلمها للفرنساويين منها مسيني وريو ثم حاصر قلعة فالبه من ايطاليا وفي أثناء الحصار حدث بين العساكر الفرنساوية والعساكر العثمانية اختلاف فعاد الاسطول العثماني الى الاستانة (١٥٥٦)

وفي سنة ١٥٦٠ ابحرت الاساطيل العثمانيه لمقاتلة اساطيل الدول التي اتحدت عليها وجاءت الى جزيرة جربه لتفتح طرابلس الغرب ففازت عليها فوزاً عظيما وأسرت وغنمت كثيراً.

وفي شتاء سنة ١٥٦٥ أرسلت الاساطيل العثمانية لفتح مالطه فاخفقت سعياً . وكان مكسيميليان الثاني ملك المانيا قد خلف فرديناند الاول على تخت امبراطورية المغرب فضم بلاد المجر الى الامبراطورية كايه وعند ذلك استنجد استفان زابولى بالدولة العثمانيه فارسل له السلطان ثمانين الف مقاتل فاستولوا على قلعة سكدوار بعد حصارها وكانت من أمنع الحصون وفي تلك المدة كان قد أخذ في السلطان الضعف والهزال لتقدمه في السن حتى أنه أوصى بالسلطنة من بعده لابنه سليم وكانت وفاته بداء النقرس وله من العمر ٧٦ سنة فاخفى الوزير الاعظم وفاته اشفاقاً على الجيوش ان يفشلوا وأمر رئيس الاطباء بتحنيط جثته وبعد تمام الفتح اخذت العساكر في ترميم القلعة وأصلاحها وبعث الوزير المذكور الى

السلطان سليم يدعوه الى سكدوار وكان يومئذ على امارة كوتاهيه فلما وصله الخبر قدم مسرعاً الى دار الخلافة على حين غفلة من أهلها وجلس على سرير الملك وبعد ان تمت له البيعة واطمأن الناس قصد سكدوار

وكان سليمان سلطانا رفيع القدر حازماً موصوفاً بالحكمة والاقدام سنّ قوانين جديدة نظم بها السلطنة فقوى شأنها وسياستها فلهذا لقب بالقانوني وقسم الدولة الى ايالات جعل في كل ايالة منها فرقة من الجنود للمحافظة عليها وضبط العسكرية ووضع منوالاً جديداً لايراد الدولة وخرجها فتحسنت أحوالها حتى بلغت درجة لم تنلها وكان محباً للعمارة والمباني جدد المساجد وشيد المدارس والقلاع . وكان بالاجماع اجلّ سلاطين آل عثمان .

﴿ فصل ﴾

﴿ في السلطان سليم الثاني ١٥٦٦—١٥٧٤ ﴾

قام بالامر بعد ابيه السلطان سليمان وفي سنة ١٥٦٧ عقد معاهدة مع النمسا ضمنها استمرار هذه الدولة على تأدية الجزية واعترافها أمراء ترنسلفانيا والافلاق للدولة العلية بالسيادة وبقاء الروابط القديمة على حالها . وفي السنة المذكورة أخضع السلطان بلاد اليمن واخرج منها البرتغال وفي سنة ١٥٦٩ جدد معاهدة الامتيازات القنصلية

لفرنسا وقبل باضافة مواد ذات شأن اليها . وفي سنة ١٥٧٠ فتح جزيرة قبرس باسطول كان متقدمه علي باشا مؤذن . وفيها أيضاً وقعت موقعة ميناء ليبنتو الذي يسميه الاتراك اينه بختي وكانت فيها اساطيل اسبانيا والبابا وصقلية والبندقية ونابولي ومالطه وفرنسا بقيادة دون جوان الاسباني فلقيها الاسطول العثماني وأبلى بلاء حسناً غير أنه دارت عليه الدائرة لسوء تدبير رئيسه فكان عدد الذين قتلوا من العثمانيين عشرين الفاً بين جنود وضباط ومن الاعداء ثمانية الآف .

ولما كان هذا الانكسار اول ما أصاب الدولة العلية في البحر كبر عليها فوسعت دار الصناعة بالاستانة وابتنت اسطولا ضخما في وقت وجيز وبذلك تسنى لها في سنة ان تبث مراكبها الجديدة في البحر المتوسط وتستعيد نافارين من البنادقة . وفي سنة ١٥٧٣ غزت سواحل ايتاليا ودمرت كثيراً من حصون بلاد البنادقة فصالحوا الدولة على الجزية يؤدونها وغرامة حربية جسيمة نقدوها اياها على أثر أمضاء المعاهدة .

وفي سنة ١٥٧٤ عصى حاكم البغدان لخورب وضرب عنقه وفيها رأى السلطان تمردا من أصحاب تونس لتعويلهم على الاسبانيول فارسل الاسطول لفتح بلادهم فدخلت في سلك الولايات العثمانية دخول الجزائر وطرابلس الغرب . وتوفي هذا السلطان في الثانية

والخمسين من عمره وكان باسلا صالحا وكان أفضل رجاله الصدر الاعظم صوقللي باشا صاحب اليد البيضاء في حل ما تعقد من أمور الدولة ورفع منارها بين الدول العظمى

﴿ فصل ﴾

﴿ في السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ — ١٥٩٥) ﴾

هو ابن السلطان سليم الثاني . بعد توليه بسنتين أمر عامله على الجزائر باعانة أمير فاس على عمه الثائر عليه والبرتغاليين الذين أتوا لنصرة عمه فظهر عليهم في موقعة وادي السبيل وانتمى صاحب مراكش الى الدولة العلية اعترافا بفضلها . وفي سنة ١٥٧٥ انتخب اتيان باتوري أمير ترنسلفانيا ملكا على بولونيا فاصبحت هذه الدولة تحت ظل السلطنة العثمانية .

وفي سنة ١٥٧٩ وقعت فتنة في بلاد العجم فارسل السلطان اليها جيشاً ليفتحها وقامت الحرب على ساق وقدم ثم انجلت عن معاهدة ترك بمقتضاها الشاه عباس للدولة العلية اذربيجان وشروان ولورستان وتبريز (١٥٨٠)

وحدث ان قام جيش الانكشارية بفتنة فشق ملك بولونيا عصا الطاعة على الدولة وحارب المجر والافلاق جيوشها وردهم أمير الافلاق الى ماوراء الطونه واستولى على مدينة نيكوبولي فرأى

السلطان ان يشغل الانكشارية بمحاربة النمسا ليعاقبها على أخذها بنصرة الاقوام التي انتقضت عليها

{ فصل }

{ في السلطان محمد الثالث (١٥٩٥ — ١٦٠٣) }

بعد جلوسه على السرير تقدم ميخائيل أمير الافلاق وفتح قلعتي بخارست (بكرش) وترغوشته ثم هزم أحد جيوشه جيشاً للعثمانيين وقد خرج عليه من مكمن واستولى النمسويون على قلعة استرغون فعظمت هذه الخطوب على السلطان فخرج بنفسه الى دار الحرب فوقعت موقعة هائلة بين جنوده وبين جنود ملك النمسا وملك الاردل في مكان يدعى كرسنس ولما كادت تدور الدائرة على العثمانيين ويؤخذ السلطان أمكنهم الاعداء من انفسهم بتهورهم في اللحاق بهم فانضمت أشتات الجنود العثمانية وانقلبت من الادبار الى الاقبال وكانت قد حصرتهم بينها فاعملت فيهم السيف والنار حتى أوشكت ان تبيدهم (١٥٩٦) . وفي سنة ١٦٠٠ فتح العثمانيون قلعة كانيشا الحصينة بالنمسا ونكلوا بجنود أمير الافلاق تنكيلا وفي سنة ١٦٠٤ نقض الشاه عباس عهده مع الدولة العلية واسترد الولايات التي اعترف لها بها وفي خلال ذلك توفي السلطان

﴿ فصل ﴾

﴿ في السلطان أحمد الاول ١٦٠٣ — ١٦١٧ ﴾

هو واضع القانون الاول لوراثة السلطنة تولى حديث السن وكان باسلا نجيباً وقد أتم حرب النمسا اذ فتح قلعة استرغون التي كان الاعداء قد استردوها ثم نزلت امارات الاردل والافلاق وبغدان على حكمه دفعا للمزيد من الدمار الذي لحق بها ففاتحته النمسا في عقد الصلح فتم في قرية سيتافوروك (١٦٠٦) واستزادت به الدولة بلادا .

ثم أرسل السلطان جيشاً لمحاربة العجم فدارت الدائرة عليه فعقد صلح بين الفريقين على ان ترد الدولة العلية للشاه عباس ثلاث ولايات وتأخذ منه جزية سنوية (١٦١٧) ثم نقض الشاه ما تعهد به فاستؤنفت الحرب وقام بها السلطان عثمان الثاني وهو خلف السلطان مصطفى الاول الذي لم يدم له الامر الا ثلاثة أشهر وبضعة أيام

﴿ فصل ﴾

﴿ في السلطان عثمان الثاني (١٦١٨ — ١٦٢٢)

حارب الاعجام فدحرهم في أول مرة واسترد منهم الولايات التي كانوا قد انتزعوها من الدولة ثم أعان ملك الاردل على محاربة

النمسا فافسد الانكشارية عليه نتائج الحرب فاوعدهم فهاجوا وخلعوه ثم قتل معتقلا وخلفه السلطان مصطفى .

وفي خلال هذه الفتن تمكن الاعجام من استرجاع الولايات التي وقع النزاع طويلا عليها بينهم وبين الدولة ثم فتحوا بغداد (١٦٢٤) ولما علم أباظه باشا والي أرضروم ماحل بالسلطان عثمان نهض مطالبا بثاره وانضم اليه الالوف واتسع الخرق فتنازل السلطان مصطفى (١٦٢٤) وبويع السلطان مراد الرابع

﴿ فصل ﴾

﴿ في السلطان مراد الرابع (١٦١٠ — ١٦٤٠)

كان باسلا مقداما على حداثة سنة وقد قمع ثورة اباظه باشا وأعاد له ولايته بعد ان خضع ثم حارب الاعجام وكسرهم وفتح مدينة روان وبعد ذلك حاصر بغداد حصاراً طويلا ففتحها وقمع ثورات كثيرة حدثت في عهده القصير وصالح الاعجام فرد لهم روان واستبقى بغداد وتوفاه الله شابا وكان من اعاظم السلاطين

﴿ فصل ﴾

﴿ في السلطان ابرهيم (١٦٤٠ — ١٦٤٨)

أهم ماجرى في عهده فتح بعض الموانى بجزيرة كريد (١٦٤٥) وظهور أساطيله على أساطيل البنادقه . وكان كلفا بالنساء فتداخلن

في شؤون السلطنة فثارت بسبب ذلك فتن أفضت الى خلعة ثم قتله

﴿ فصل ﴾

﴿ في السلطان محمد الرابع ١٦٤٩ – ١٦٨٧ ﴾

أتم هذا السلطان فتح جزيرة كريد بعد مواقع بحرية كثيرة اضطرته الى تجديد اسطوله مراراً ولكن البنادقة استبقوا منها لهم ثغور سودا وكرابوسه واسبينالونغه (١٦٦٩) وحارب النمسا لتداخلها في أمر نصب ملك للاردل ففتح نوهنسل وانتصر على جيوش جرارة لهذه الدولة وحلفائها من فرنسويين وغيرهم واستولى على نوينراد وبعد وقائع أخرى هائلة طالبت النمسا الصلح (١٦٦٩) فاجيبت اليه . وبعد ذلك حارب السلطان ملك بولونيا انتصاراً لطائفة القوزاق المعروفة بصاري قامش التى دخلت في حماية الدولة ففتح ولاية بودوليا ثم قبل الصلح على ان يستبقي الولاية المذكورة ويحمل اليه ملك بولونيا الجزية ويعطي القوزاق المذكورين ولاية اوقرين التي كانت سبب هذه الحرب . وفي سنة ١٦٨١ حاربت فرنسا قرصان ولايات الغرب فتهددها السلطان بقطع العلائق وطرد الفرنسويين من مملكته فانكرت ما أتاه رئيس أسطولها. ثم انقلب زعيم قبائل صاري قامش على الدولة واستسلم لروسيا ومنحها مدينة جهرين قاعدة بلاده فحاربه السلطان وحلفاءه من روس وتتار

وفتح جهرين ثم صالحته روسيا على ان تبقى الحالة كما كانت قبل المعاهدة (١٦٨١)

وفي سنة ١٦٨٣ استأنف السلطان محاربة النمسا اجابة لملتمس أعيان المجر الذين كانوا ثائرين على تلك الدولة وفي مقدمتهم الكونت توكلي وذلك لانها بعد حرب الثلاثين سنة ضمت بلادهم اليها وانزلتهم على حكمها مرغمين واستبدت بهم استبداداً . فسارت الجيوش العثمانية تقصد النمسا وأعانها أمير الاردل والكونت توكلي فتغلبت على النمسويين ثم تقدم الصدر الاعظم قره مصطفى باشا الى ويانه وحاصرها (١٦٨٣) حتى كاد يفتحها غير ان ملك بولونيا يوحنا سوبيسكي وجماعة من منتخبي المانيا اتوا بجيوشهم لمدافعة العثمانيين عن أسوار تلك المدينة التي كانت مفتاح الغرب اجابة لاستصراخ البابا فاجلوا الصدر الاعظم بعد ان كسروا جيشه وغنموا عدته ثم تتبعوا خطاه الى ان فتحوا قلعة استرغون . وفي سنة ١٦٨٦ عقد تحالف سمي بالمقدس بين النمسا والبندقية وبولونيا ورهبنة مالطه وروسيا والقوزاق وتوسكانه لمحاربة الدولة العثمانية فقاومت اعداءها بما استطاعت ثم انجلت هذه الحرب عن فقد السلطنة لمملكة الاردل (١٩٨٨)

وفي سنة ١٦٨٨ كره السلطان البقاء في منصبه السامي فاعتزله على أثر فتنة شديدة قامت بها الجيوش ويقال انه خلع .

﴿ فصل ﴾

﴿ في السلطان سليمان الثاني (١٦٨٨ — ١٦٩١) ﴾

اخمد الفتنة الداخلية على ضخامتها ثم استرد من النمسويين ما كانوا قد فتحوه في خلالها من بلاد نيش وودين وسمندره وبلغراد وقذف بهم الى الضفة الاخرى من الطونه وهزم جيش النمسا من بلاد الاردل وانتصر عامله خان القريم على الروس الذين حاولوا فتح بلاده

﴿ فصل ﴾

﴿ في السلطان احمد الثاني (١٦٩١ — ١٦٩٥) ﴾

استأنف محاربة النمسا فكان جيشه منتصراً تارة ومنكسراً طورا ثم استعان بخان القريم فاعانه على طرد النمسويين من الاردل. وحاول البنادقة استرجاع كريد فطردوا منها مدحورين وغنمت الدولة منهم ثغر قرابوسه غير انهم استنجدوا باساطيل للبابا ولاهالي مالطه واحتلوا جزيرة ساقز .

﴿ فصل ﴾

﴿ في السلطان مصطفى الثاني (١٦٩٥ — ١٧٠٣) ﴾

كان ذا عزم ماض وحزم في الامور . استرد جزيرة ساقز بعد نصرة باهرة على البنادقة ثم قاد بنفسه الجنود لمحاربة النمسا فظهر

على جيوشها في أول الامر ثم دارت الدائرة عليه في موقعة زنتا كما دارت على عامله خان القريم الذي غلبه بطرس الاكبر وانتزع منه ثغر آزاق أو أزوف على البحر الاسود . وانتهت الحرب بين الدولة العلية والنمسا وروسيا وبولونيا والبنادقة بمعاهدة كارلوفتس (١٦٩٩) وبعد ذلك باربع سنين قامت فتنة أريد بها خلع السلطان فتنازل عن الملك لأخيه

﴿ فصل ﴾

﴿ في السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣ — ١٧٣٠) ﴾

شهر الحرب على الروس انتصاراً لكارلوس الثاني عشر ملك اسوج واحدق جيشه بجيش الروس وملكهم بطرس الاكبر في موقعة بروت وكاد يأخذهم جميعاً أسرى لولم يفرج عنهم الصدر الاعظم لرشوة أخذها ومع ذلك فقد عقد مع روسيا معاهدة ادرنه وانتزع منها بمقتضاها جميع ما كان لها من الاملاك على البحر الاسود (١٧١٣)

وبعد ذلك استرد السلطان شبه جزيرة المورة من البنادقة وفتح سائر ثغور كريد فنزلت الجزيرة كلها على حكمه ولما كان استرجاع المورة مناقض المعاهدة كارلوفتس استجار البنادقة بالنمسا فوقعت حرب بينها وبين الدولة العلية انتهت بمعاهدة بساروفتس (١٧١٨) وكان

من مقتضاها ان تترك بلاد طمشوار وبلغراد وقسم من بلاد الصرب للنمسا وموره وجميع جزائر الارخبيل للعثمانيين وتبقى للبنادقة قلاعهم ببلاد الالبان .

وكانت قد وقعت فتنـة في بلاد العجم لعهـد الشاه حسـين الصفوي فانتقض عليه الايرانيون وأسروه وتنازع بعده الشاه واشرف الافغاني والشاه طهماسب الساساني سرير الدولة الايرانية فانفذ السلطان جيشاً ففتح جانبـاً من بلاد ايران وفتح الروس جانباً آخر ثم انفرد طهماسب بملك ايران بعد وفاة منازعه فاسترد عنوة بعض الولايات التي فتحتها الدولة العلية (١٧٣٠) وعلى أثر هذه الحادثة ثار الانـكشارية في الاستانة فخلعوا السلطان عن الملك وأجلسوا ابن أخيه .

﴿ فصل ﴾

﴿ في السلطان محمود الاول (١٧٣٠ ــ ١٧٥٤)

كان محباً للسلم ناشرا للمعارف . اتم حرب العجم بما أعاد الحدود القديمـة بين الدولتين (١٧٣٦) ثم حارب الروسيا والنمسا فانتصر على جيوشها وعقـد معهما معاهدة بلغراد (١٧٣٩) التي ردت للدولة العليـة جهات اورسوه والافلاق النمسوية وقضت على امبراطورة روسيا بهدم قلعة آزوف وبعدم تسيير مراكب حربية

وتجارية في البحر الاسود وبحر آزوف وبأن ترد للدولة ما فتحته من بلادها.

ثم تمتعت الدولة في عهد هذا السلطان المجيد بالراحة والسلم مدة تسع سنين كانت ايامها مسعودة ودقائقها مباركة .

﴿ فصل ﴾

﴿ في السلطان عثمان الثالث ١٧٥٤ ــ ١٧٥٧ ﴾
والسلطان مصطفى الثالث (١٧٥٧ ــ ١٧٧٤)

تقضى عهد السلطان عثمان في سكينة وسلام وأما عهد السلطان مصطفى فقد تقضى في محاربة الامبراطورة كاترينا صاحبة روسيا ودارت دائرة اكثر المواقع في هذه الحرب على العثمانيين وافقدتهم بلاد القريم حيناً لانتقاض الاهالي عليهم ثم استردوها برضى من الاهالي . وكان السلطان مصطفى ذا جد ودهاء وبسالة الا انه وجد الدولة شديدة الضعف والخور والحاجة الى المال بعد حروبها الماضية فلم يستطع فعل اكثر مما فعل .

﴿ فصل ﴾

﴿ في السلطان عبد الحميد الاول ١٧٧٤ــ١٧٨٩ ﴾

بعد جلوس هذا السلطان على الاريكة العثمانية أرسل جيشاً لاتمام محاربة روسيا فاصابه الفشل واشتد جزع الامة فعقد صلح

قينارجه مع الروس (١٧٧٤) ومن شروطها استقلال بلاد القريم وان تمنح روسيا عدة بقاع وتجلي عن الجزائر والامكنة الاخرى التي احتلتها ويكون نهر آف الفاصل بين الدولتين وتكون روسيا حامية النصارى الارثوذكس في الممالك العثمانية .

وفي سنة ١٧٧٥ هجم الاعجام على العراق العربي فردتهم الجنود العثمانية على أعقابهم وفي نحو سنة ١٧٨٢ استولت روسيا على القريم ثم اقتسمت بولونيا وحالفت النمسا فشهر السلطان الحرب(١٧٨٧) عليها وعلى حليفتها وكانت أول المواقع التي جرت موقعة اوزي البحرية انتصر فيها الروس ثم تلتها موقعة جزيرة بيلان انتصر فيها اسطول العثمانيين ثم موقعة بوغاز مهاديه ظهرت فيها جيوش الدولة على النمسويين .

وفي سنة ١٧٨٩ قام السلطان سليم الثالث واستأنف الحرب فدارت الدائرة على أساطيله في موقعتين حربيتين وكذلك دحرت جنوده مع كون النمسا صالحت الدولة وخرجت من القتال واستولت الروس على قلعة اسمعيل وعند ذلك توسطت انكلترا وبروسيا وهولنده واكرهت روسيا على عقد مصالحة ياش وكان من مقتضاها ان ترد للدولة العثمانية كل الاماكن التي فتحتها ما خلا اوزي وما بين نهري بوغ ودونياستر وان تستولي على القريم وشبه جزيرة طمان وبلاد قوبان وبسارابيا وان يجعل الدنيابر حداً فاصلا بين السلطنتين (١٧٩٢)

الباب الثاني والخمسون

في حروب ايطاليا وذكر كارلوس الثامن ولويس الثاني عشر

فصل

في حملة كارلوس الثامن على ايطاليا (١٤٩٤)

ثبت لدى القارئ من مطالعة ما سبق بيانه ان الملوك اغتصبوا جميع السلطة التي كانت موزعة بين الشرفاء على اختلاف درجاتهم فكان من نتائج هذا الانقلاب ان الحروب التي كانت تجري بين مقاطعة ومقاطعة وولاية وأخرى أصبحت تجري بين دولة ودولة . وأول امة كانت على استعداد وأهبة للحرب فرنسا فهي لذلك كانت أول عازمة على السطو على غيرها والخروج من تخومها . ولقد قال لويس الحادي عشر عندما عرض عليه أهل جنوا ان يكون صاحب الامر عليهم «انهم يهبونني بلادهم وانا اهبها للشيطان» وكانت في هذا الامتناع حكمة بالغة . وكذلك ابى هذا الملك لمثل هذه الحكمة ان يطالب بما أورثه آل انجو من الحق بمملكة نابولي . اما ابنه كارلوس الثامن فقد استرد هذا الحق المتروك ومن أجل ان يتفرغ للفتوح حيث كان يظن انه يزحف من نابولي على الاستانة ومن الاستانة على القدس ركب غلطاً فاحشا فترك سردينيا وروسيليون لفرديناند

الكاثوليكي وفرانش كونته وشاروله وارتوا لمكسيميليان توهما منه انه بذلك يوطد الامن على تخوم فرنسا

ثم اجتاز الالب ودخل بلا قتال الى تورينو ثم الى ميلانو وكان مغتصبها لودوفيك ليمور يحتاج الى مساعدته لمقاومة أهل نابولي ثم الى فلورونسا ثم الى رومه ثم الى نابولي وكان ملكها فرديناند الثاني قد خانه جنوده وتركوه (١٤٩٥) فتتوج في تلك العاصمة ملكا على نابولي وامبراطوراً للشرق وملكا للقدس . وبينما كان مستغرقا في الملاهي والمسرات تآمر عليه زعماء البندقية ولودوفيك لمور والبابا اسكندر السادس ومكسيميليان وفرديناند الكاثوليكي وهنري السابع .وكان اربعون الف مقاتل ينتظرونه على سفح جبال الابنين فلما بلغه هذا النبأ ترك في الجنوب أحد عشرة الف مقاتل وسار مسرعا الى الشمال فدحر أعداءه في فورنو (١٤٩٥) واجتاز الالب راجعاً غير انه فقد ثمرة هذه الحملة الجميلة .

ولما نجت ايطاليا من الفرنسيس عادت الى خصوماتها الداخليه.

{ فصل }

{ في لويس الثاني عشر (١٤٩٨) وذكر فتح ميلانو ونابولي }

خلف هذا الملك كارلوس الثامن (١٤٩٨) وهو ابن عمه وتزوج

بارملته خوفا من ان تتزوج بامير اجنبي يستولي على مقاطعة بريتانيا التي كانت لها

ثم أخذ يطالب بما كان لسالفه من الحق بملك نابولي وبما ورثه عن جدته سليلة آل فيسكونتي من الحق بامارة ميلانو . ولبلوغ أمنيته هذه أغرى أهل البندقية وفلورنسا وقيصر بورجيا بالمواعيد ثم أرسل قائداً له ايطالي الاصل يدعى تريفولس ففتح ميلانو وفر أميرها ليمورمن وجهه الى تيرول (١٤٩٩) ثم عاد فقاتله تريفولس بقرب نوفاره وغلبه أيضا (١٥٠٠) فسلمه جنوده للفرنسويين فارسلوه الى فرنسا واعتقل في قصر لوش .

ثم اتفق لويس الثاني عشر مع الفلورنتيين فساعدهم على اخماد ثورة بيزا وأعان قيصر بورجيا ابن البابا اسكندر السادس على نيل امارة رومانيا واقتسم نابولي بينه وبين فرديناند الكاثوليكي (١٥٠٠) فاعطاه بويل وكالابر ،وأخذ الباقي مع لقب ملك نابولي . اما ملكها السابق فاستسلم للويس فاسكنه على ضفة نهر اللوار وأجرى له راتباً (١٥٠١) . ولم يلبث ان وقع النزاع بين الاسبانيين والفرنسويين فانتشبت على أثره حرب دارت دائرتها على الفرنسويين فانجلوا ثانية عن تلك المملكة (١٥٠٤) فقنع لويس الثاني عشر ان يحتفظ بميلانو واضطر من أجل ذلك ان يوقع على معاهدة بلوا (١٥٠٤) التي تنازل فيها عن حقوقه بنابولي لشارلكان على ان تترك له ميلانو.

وكان شرلكان ملك هولنده وولي عهد النمسا واسبانيا فلما استزاد ملك نابولي طلب ان يتزوج بابنة لويس ويأخذ بورغونيا وبريتانيا مهراً لها فعقد الملك لذلك جمعية النواب فقررت ان المقاطعتين المشار اليهما لا تسلخان عن أملاك فرنسا وأشارت عليه برفض طلب شرلكان وبتزويج ابنته لولي عهده فرنسوا دوق انجوليم .

﴿ فصل ﴾

﴿ في عصابة كبراي (١٥٠٨) والعصابة المقدسة (١٥١١) ﴾

وكان البابا جول الثاني قد خلف اسكندر السادس وعزم على اجلاء الاجانب عن ايطاليا واذلال البندقية وجعل الكرسي المقدس أعظم دولة ايطالية فأول ما فعله ان حمل لويس الثاني عشر وفرديناند الكاثوليكي والامبراطور مكسيميليان على عقد محالفة كبراي سنة ١٥٠٨ وفي نفس كل منهم شيء يأخذه أو يسترده من البندقية فنازل لويس الثاني عشر البنادقة وانتصر عليهم بقرب اغاندل واغنى بذلك حليفيه عن الاشتراك معه عن القتال وأخذ ما شاء واعطاهما ما طلباه فلم يكن من البابا بعد ذلك الا ان حول محالفة كبراى على الفرنسويين انفسهم وأخذ يحاربهم بنفسه ليخرجهم من ايطاليا فعقد لويس مجمعاً في بيزا استصدر منه قراراً بخلع البابا فعقد البابا

مجمعاً آخر في لاتران حرم به ملك فرنسا وحزب عليه جميع الدول الكاثوليكية حتى أهل سويسرا الذين كانوا مغمورين بنعمه

﴿ فصل ﴾

﴿ في دخول المتحالفين فرنسا (١٥١٣) وذكر الهدنة (١٥١٤) ﴾

ففي أول الامر فازت فرنسا على يد قائدها غاستون دى فوا فانه ارجع السويسريين الى جبالهم وأخذ بزيسيا من البنادقة ورافينا من المتحالفين (١٥١٢) الا أنه قتل في موقعة ونصب مكانه لابالیس فردّه الاعداء الى الالب ودخل مكسيميليان سفورزا بن لودوفيك ليمور الى ميلانو عنوة. ثم سطا الاعداء على فرنسا من ثلاثة جوانب وانتصروا على الفرنسويين وتقدم السويسريون الى ديجون فردوا عنها بالرشوة وكان لملك فرنسا حليف واحد هو ملك اسكتلنده جاك الرابع فقتل في احدى المواقع فلما رأى لويس انهيال المصائب عليه عقد هدنة وانكر ما قرره مجمع بيزا وتعهد بتأدية ١٠٠٠٠٠ ريال سنويا لملك انكلترا الى عشر سنين (١٥١٤). فنتج من ثم ان فرنسا بعد ما سفكته من الدماء وفقدته من الرجال مدة خمس عشرة سنة رجعت الى مثل ما كانت عليه في آخر عهد كارلوس الثامن. وتوفي لويس في اول شهر يناير سنة ١٥١٥. وكانت ادارته الداخلية افضل من سياسته فانه أسس برلماني بروفانسا

ونورمنديا وجعل التحقيق الجنائي باللغة الفرنسوية لا اللاتينيـة وحظّر السطو الذي كان مباحاً لرجال الحرب وانجح التجارة والصناعة بحيث لقب بأبي الشعب

الباب الثالث والخمسون

﴿ في البعثة الاقتصادية ﴾

﴿ فصل ﴾

﴿ في اكتشاف رأس الرجاء الصالح (١٤٩٧) ﴾

كان النورمنديون اول من ركبوا البحر وساروا فيه للاكتشاف ثم تبعهم البرتغاليون وسبقوهم وفي سنة ١٤٧٢ اجتازوا الخط الاستوائي وفي سنة ١٤٨٦ عرف بارتلمي دياز رأس الانواء الذى سماه الملك يوحنا الثاني برأس الرجاء الصالح تفاؤلا واجتازه فاسكو دي غاما سنة ١٤٩٧ ووصل منه الى كاليكوت على ساحل مالابار وقد أسس الفارس كابرال أول مركز اوربي في كاليكوت بالهند وكان في طريقه قد قذفته العاصفة الى بعض شواطئ البرازيل

﴿ فصل ﴾

﴿ في ممالكة البرتغاليين الاستعمارية ﴾

اعظم الفضل في تأسيس هذه المملكة وتشييدها يرجع الى

الملاح الشهير البوكرك فانه باستيلائه على سوكوتورا وأرموز اقتل على البنادقة وغيرهم طريق التجارة الهندية ثم فتح جاوا (١٥١٠) وجعلها عاصمة الهند البرتغالية وحالف ملكي سيام وباغو وامتلك جزائر مولوك ثم بينما هو يستعد لمحاربة مصر وشبه جزيرة العرب عزله الملك (١٥١٥) ومنح منصبه لجان كاسترو ففتح كمباي ثم اكتشف اليابان سنة ١٥٤٢ وأسس مصرفا ازاء كانتون في جزيرة سانسيام. وفي الجملة كانت المراكز التي احتلها البرتغاليون بعد جاوا موزامبيق وسوفالا وماليند على شاطئ افريقيا ومسقط وارموز على خليج العجم وديو على شاطئ مالابار ونيغاباتام على شاطئ كوروماندل ومدينة ملقه في شبه الجزيرة المعروفة بهذا الاسم وجزائر مولوك التي احتلوا منها ترنات وتيمور ثم الكونغو وغيرها على الساحل الغربي من افريقيا وهذه كانت قليلة الفائدة في أول الامر الى ان دارت فيها سوق النخاسة. ثم البرازيل. وبقي البرتغاليون زماناً طويلاً لا يرسلون لاستعمارها الا المحكوم عليهم أو اليهود المبعدين.

﴿ فصل ﴾

﴿ في خريستوف كولمبوس (١٤٩٢) ومملكة الاسبانيول الاستعمارية ﴾

اكتشفت أمريكا في سنة ١٤٩٢ ومكتشفها خريستوف

كولومبس الشهير الجنوي الاصل . وكان قد لاح لهذا الرجل العظيم ان الهند لابد ان تكون ممتدة كثيراً الى الشمال لتوازن القارة الاوروبية ومن أجل ذلك اعتقد انه اذا ابحر في المحيط الاتلانتيكي مغرّباً وصل الى أقصى شاطىء للهند. غير ان مجلس الشيوخ في جنوا وملك البرتغال وملك اسبانيا لم يجيبوه الى ماطلبه من السفائن للاكتشاف استخفافاً «باوهامه» وبعد اللتيا والتي منحته الملكة اليصابات ثلاثة مراكب صغيرة فظل في البحر شهرين وفي ١١ أكتوبر من سنة ١٤٩٢ نزل في غوانهاني وهي احدى جزائر لوكاي ودعاها سان سلفادور . وفي رحلته الثالثة أدرك العالم الجديد ولم يفطن لذلك (١٤٩٨) وفي رحلته الرابعة اكتشف شواطئ كولومبيا معتقداً انها الهند ولذلك سماها الهند الغربية وبقي لها هذا الاسم الى ان دعيت أمريكا باسم أمريغو فسبوتشي الذي لافضل له الا انه القى مراسيه ودخل البر قبل كولمبوس.

ومن ذلك الوقت توالت الاكتشافات ففي سنة ١٥١٣ قطع بالبوا برزخ بناما وابصر المحيط الكبير وفي سنة ١٥١٨ وجد غريجالفا المكسيك ثم افتتحها فرناند كورتس (١٥١٩ — ١٥٢١) وفي سنة ١٥٢٠ وجد ماجلان المفرق المائي الذى سمي باسمه بين امريكا الجنوبية والارض النارية واجتاز المحيط الباسيفيكي وتوفي اثناء رحلته ثم عاد رفاقه الى اسبانيا مارّين من جزائر الملوك ورأس

الرجاء الصالح وكانوا اول رجال طافوا حول الارض . وبعد ذلك اكتشف الماغواو بيزاري بلاد بيرو وشيلي فاضيفت الى أملاك اسبانيا وأسس آخرون مدينة بوينوس ايرس على مصب البلاتا وفي سنة ١٥٣٤ اكتشف كارتيه بلاد كندا لفرنسا على ان المستعمرات البرتغالية لم تلبث ان نزعت من يد البرتغال سريعاً لانها لم تقم فيها الا مصارف تجارية بخلاف المستعمرات الاسبانية التي قصدها العدد الكبير من الاسبانيين لاستخراج الذهب من مناجمها فانها كانت أثبت لكثرة مستعمريها وكانت منقسمة الى حكومتين كبيرتين حكومة المكسيك وحكومة ليما . ولا يزال الجيل الاسباني هو السائد في المكسيك وأمريكا الجنوبية الى هذا اليوم كما لا يزال الجيل البرتغالي سائداً في البرازيل .

﴿ فصل ﴾

﴿ في النتائج ﴾

نتج من هذه الاكتشافات انها فتحت أبوابا للمكاسب الطائلة من القسم الشرقي الذي كان مجهولا ومن القارة الجديدة وحولت الثروة من دول البحر المتوسط كايطاليا الى دول المحيط الاتلانتيكي كاسبانيا والبرتغال أولا ثم هولندا وانكلترا بعدهما وأوجدت المقادير الكبيرة من الاموال بين أيدي أهل اوربا فأصلحوا من أراضيها وحسنوا

من أحوال صنائعها وزراعتها اضعاف ما فعلوا الى ذلك العهد واذا اضفنا الى ما تقدم انشاء البريد في فرنسا والهويسات والترع في البندقية والمصارف المالية التي اسسها اللومبارديون وشركة الهانس ومحلات التأمين التي وجدت في برشلونه وفلورنسا ثم في بورج وجدنا ان كل ذلك كان اساس البعثة الاقتصادية العظيمة التي نقلت الدنيا من الحال الاولى التي علمناها الى الحال التي هي عليها الآن .

الباب الرابع والخمسون

(في بعثة الآداب والفنون والصنائع)

فصل

(في اكتشاف المطبعة)

عند ما خرجت الناس من القرون المتوسطة المظلمة اشتدت رغبتهم في المباحث العلمية والآداب والمطالعات وكانوا مع ذلك لا يعثرون على كتاب قديم الا كأنهم ظفروا ظفراً مبيناً لشدة غلاء الكتب وعزة وجودها فلما اخترع غوتنبرج المطبعة ذات الحروف المتنقلة في سنة ١٤٥٤ وظهر أول كتاب مطبوع وهو التوراة انتشرت هذه الصناعة باعظم سرعة ورخصت الكتب وأخذ الطباعون

ينشرون للناس أعز الكتب القديمة بالثمن الزهيد فأقبلوا عليها اقبالاً عظيماً .

﴿ فصل ﴾

﴿ في بعثة الاداب ﴾

وعند أول ظهور هذا الاختراع الجليل تناولته ايطاليافأقيمت المطابع في رومه والبندقية وميلانو قبل سنة ١٤٧٠ وكذلك المكاتب والمدارس الكلية وغيرها وأخذ أهل المعارف يترجمون الكتب القديمة ويصنفون الجديدة . وكان البابا جول الثاني يدني منه العلماء وأهل الفنون والكتاب كادنائه القواد والسياسيين وهو الذى أعلى برعايته شأن رافائيل وميكالنج الشهيرين بالتصوير وهندسة البناء رتزويقه . وفي ذلك العهد كانت المرتبة الاولى بكثرة عدد الادباء وأهل العلم لايطاليا ثم لفرنسا ثم لالمانيا .

﴿ فصل ﴾

﴿ في بعثة الصنائع ﴾

وكانت القدم الاولى في الصنائع لايطاليا أيضاً فقد وجد فيها برامانت باني كنيسة القديس بطرس وميكالنج واضع قبتها الشهيرة ووجد فيها النحاتون الذين ضارعوا بمنقوشاتهم الاقدمين والمصورون الذين لم يماثلهم احد قبلهم ولا بعدهم كميكالنج ورافائيل وليونار

دي فنشي وتيسيان . وتات فرنسا تلو ايطاليا في هذا الباب فشيدت عدداً كبيراً من القصور والصروح منها اللوفر والتويلري وفونتنبلو وبلوا وشامبور وقام فيها النحاتون المشاهير كجان جوجدن وجرمان بيلون . أما المانيا فوجد فيها مصوران هما دورر وهولبن. ومما يجمل ذكره ان فن الرسم بالحفر اخترع في ذلك الزمان وكانت تنقل به صور اجمل المصنوعات واكمل الابنية الى كل مكان كما كانت الطباعة تنشر التآليف . ومن مشاهير ذلك العهد ايضاً باليسترينا مبدع الموسيقى الكبرى.

﴿ فصل ﴾

﴿ في بعثة العلوم ﴾

اما العلوم فلم تخط خطوة كبيرة وانما امتاز بين المشتغلين بها بعض المهندسين في ايطاليا وكوبرنيك الشهير في بولونيا وهو الذي اكتشف حقيقة النظام الشمسي سنة ١٥٠٧

﴿ الباب الخامس والخمسون ﴾

﴿ في الثورة المذهبية أو الاصلاح ﴾

﴿ فصل ﴾

﴿ في الاكليروس خلال القرن السادس عشر ﴾

كانت الكنيسة قد تحولت من حالتها الفقرية الاولى الى حالة

العظمـة والثروة وأصبح البابا كالملك والاساقفـة كالامراء بالغنى والجيوش فنادى الـكثيرون بضرورة الاصـلاح والاقلاع عن هذه الحالة وكان الاصلاح لابد حاصلا

﴿ فصل ﴾

﴿ في لوثير (١٥١٧ ﴾

هو ابن معدّن سكسوني من اـابن كان من رهبنة القديس اغسطينوس وترقى بعلمه حتى أصبح الاستاذ الاكبر في كلية ويتنبرج . واتفق انه زار رومه فاستغرب ماوجد فيهامن سوء حالة الـكنيسة وخصوصاً من بيع البابا للغفرانات توسلا بذلك لاتمام بناء كنيسة القديس بطرس. فراجع أصل التعاليم المتعلقة بالغفرانات فوجد عمل البابا مخالفاً لها فعزم على مقاومته في ذلك ولما رجع نشر على أبواب كنيسة ويتنبرج ٧٥ اقتراحافي مايختص بالغفرانات فرد عليه الراهب تتزل الدومينيكاني وكان سمساراًلبيع الغفرانات في المانيا بمئة وعشرة اقتراحات مناقضة لاقتراحاته وبذلك كان ابتداء الحرب. وظن البابا ان المسئلة ليست الا مناقشة رهبان فبعث رسولا من قبله لتأديب لوثير وكفه عن نشر ارائه فاحتج على الرسول ثم على البابا ثم على الجامع الـكنسية وعلّم ان التقاليد لاصحة لها ولا ينبغي اتباعها وان الـكتاب المقدس هو كل الدين وان لاوسيط بين الله

والناس وان لاقوام لكل عمل تعمله الكنيسة وهو لا ينطبق على ماجاء في الكتاب وان كلا يفسر الآيات على مايلهمه الله .

فاصدر البابا حرما على صاحب البدعة فاحرق لوثير أمر البابا جهاراً وكان مشدوداً ازره بفريدريك دوق سكس الملقب بالحكيم . ورأى الامبراطور شرلكان ان ينتصر للكاثوليك ليستميلهم اليه فدعا لوثير ليحاكم امام مجلس ورمس فاتى غير خائف وكان محفوفاً بجمهور من انصاره فلم يستطع أحد ان يلحق به أذى ثم رجع وأخفاه دوق سكس في قصر وارتبورج حماية له فكان لوثير يكتب الرسائل تترى من ذلك المأمن وينشرها في جميع المانيا. فعظمت شوكته وكبر حزبه وكان على مذهبه بعض الامراء كمنتخب سكس وحاكم قصر هس ودوقية مكلنبرج وزل وبوميرانيا لانه قال بضرورة خضوع الكنيسة للحكام .

وحدث ان بعض اتباع لوثير في سواب وتورنجيا ثاروا وركبوا منكرات كثيرة طالبين المساواة بين الناس في كل شي فانكرهم لوثير وقال بوجوب محاربتهم فاهلكوا الوفا (١٥٢٥) . وداخل البلاد الخوف من تجدد مثل هذه الفظائع فانعقد مجلس النواب في مدينة سبيرا البافارية واصدروا أمراً بمنع نشر تعاليم الشيعة الجديدة (١٥٢٩) فاحتج أهل هذه الشيعة على هذا الامر ومن أجل ذلك دعوا بالبروتستان أو المحتجين . وفي السنة التالية

نشروا في اوجسبرج قانون ايمانهم الذي بقي بعد ذلك الرابطة بين اتباع لوثير (١٥٣٠).

ولم يتفرغ شرلكان لمعاندة هذه الشيعة لاشتغاله بمحاربة سليمان الاول وفرنسيس الاول فلما عقد معاهدة كرسبي وتوفي ملك فرنسا حمل على الامراء اللوثيريين وكسرهم في موهلبرج (١٥٤٧) وظن ان المانيا كلها ركعت على قدميه بعد هذا الانتصار غير ان امراءها حالفوا ملك فرنسا هنري الثاني (١٥٥١) واوشك موريس دي سكس ان يقبض على الامبراطور نفسه في موقعة اينسبروك (١٥٥١) فعقد معهم الصلح في اوجسبرج ومنح الاصلاحيين الحرية المذهبية التامة (١٥٥٥).

﴿ فصل ﴾

﴿ في الاصلاح اللوثيري في الممالك السكندينافية ﴾

عندما انقذ غوستاف فازا بلاد اسوج من السيادة الدنيمركيه واستقل بها قرّب المصلحين فيها واحسن اليهم ليتخذهم عونا له على اسقاط سطوة الاكليروس وللتوصل الى الملك وأما الدنيمرك فقد استخدمتهم لتسويد الشرفاء على الاكليروس فلما استفحل أمرهم الفوا مجلس النواب وجعلوا الملوك تحت وصايتهم والشعب تحت نيرهم مدة عشرين سنة.

﴿ فصل ﴾

﴿ في الاصلاح في سويسرا وذكر زوينكل (١٥١٧) وكلفينوس (١٥٣٦) ﴾

انتشر الاصلاح في سويسرا على أثر انتشاره في المانيا وكان الاستاذ زوينكل قد صرح منذ سنة ١٥١٧ بانه لا مرجع في الايمان الا الى الانجيل. وعرف مذهبه بالانجيلي وامتد في جميع سويسرا عدا لوسرن واوري وشويتز وانترلاند. وفي سنة ١٥٣١ انتشبت حرب بين الانجيليين والكاثوليك قتل فيها زوينكل وفاز خصومه ومع ذلك تقرر ان كل مركز يلبث حافظاً لمذهبه غير ان مدينة جنيفا كانت حانقة على اسقفها لسوء سيرته وكان متولياً أحكامها الدنيوية والدينية فتحولت الى المذهب الجديد فحاربتها من أجل ذلك مقاطعة سافوا فاستعانت جنيفا بمركز برن على عدوتها ونجت بذلك من فتكها (١٥٣٦) وعلى أثر هذه الحرب اتى كلفينوس جنيفا وهو فرنسوي الاصل ولد في نويون وذهب الى تحريم كل ما لم ينص عليه الانجيل نصاً مبيناً وحصل في المدينة على سلطة مطلقة فكان يحكم بالقتل على من يرتكب هفوة. وبهذه السياسة الشديدة جعل جنيفا عاصمة المذهب الاصلاحي.

﴿ فصل ﴾

﴿ في الاصلاح في هولنده وفرنسا واسكتلنده وانكلترا ﴾

عند ما اتصل مذهب لوثير من المانيا بهولنده كانت مقسومة

الى ١٧ ولاية متحالفة تحت حكم الامبراطور شرلكان فاقام فيها تفتيشاً شديداً على اهل المذهب الجديد وقتل منهم ٣٠ الفا فعادت الى الكاثوليكية الى ان دخلها مذهب كالفينوس بطريق الالزاس من سويسرا فاعتنقته .

أما فرنسا فلم يدخلها المذهب اللوثيري بل الكلفيني وقلّ انتشاره فيها . وكان مالكها فرنسيس الاول يؤيد البروتستان في المانيا ويضطهدهم في مملكته وكذلك هنري الثاني فانه اصدر أمراً باعدام كل مخالف للمذهب الكاثوليكي

اما اسكتلانده فساد فيها المذهب الكلفيني ايضاً وكان قد شمل جميع اطرافها حين توفي الملك جاك الخامس وعهدت ارملته في ادارة شؤون المملكة الى الكردينال بيتون فمنع المذهب الكاثوليكي منعاً باتا وقتل من أجل ذلك (١٥٤٦)

اما دخول الاصلاح الى انكلترا فكان على يد مالكها هنري الثامن وذلك انه تعشق امرأة تدعى حنه بولين فأحب ان يقترن بها والتمس من البابا اكليماندوس السابع حلّ زواجه بامرأته كاترينا داراغون فلم يجبه الى ما أراد فاستصدر قراراً بالطلاق من برلمانه فحرمه البابا فجعل نفسه رئيس الكنيسة الانكليكانية (١٥٣٤) والغى الرهبنات وأخذ أموال الاديرة (١٥٣٩) واصدر ٧٢ الف أمر بالاعدام لمخالفي مذهبه ونشر التوراة بالانكليزية ليطالعها الشعب.

ثم خلفه ادوارد السادس فانتصر للكاثوليكية (١٥٤٧) وايدها وحين توفي (١٥٥٣) أجلس وارويك على العرش حنة غراي لتعضد البروتستانية ولكنها لم تملك عشرة ايام حتى قتلت بدسيسة من ماري ابنة هنري الثامن وخلفتها هذه الاميرة فتزوجت بفيليب الثاني ملك اسبانيا وصالحت الكرسي المقدس واماتت كثيرين من البروتستان ولذلك لقبت بسفاكة الدماء. وقد حملها زوجها على محاربة فرنسا ففقدت مدينة كاله واستمرت حزينة عليها الى وفاتها (١٥٥٨) فخلفتها اليصابات وفي سنة ١٥٦٢ جعلت الكنيسة الانكليكانية على ما هي عليه الى الآن في انكلترا

الباب السادس والخمسون

﴿ في نهضة المذهب الكاثوليكي ﴾

﴿ فصل ﴾

﴿ في الاصلاحات التي جرت في البلاط البابوي والكنيسة ﴾
(وذكر اليسوعيين)

ان هذه الصدمة التي لقيتها الكنيسة افقدتها نصف سلطتها فتنبه البابوات من غفلتهم وشرعوا في اصلاح داخليتهم وأقاموا محكمة تفتيشية سفاكة دماء (١٥٤٢) لمعاقبة كل من يحيد عن

المذهب الارثوذكسي في ايطاليا وجمعية أخرى لمراقبة الكتب وتنقيحها قبل تمثيلها بالطبع فازالوا بذلك حرية الضمير وقتلوا الاداب والصنائع الجميلة . ثم اصلحوا الرهبنات الموجودة وأسسوا رهبنات أخرى جديدة منها رهبنة اليسوعيين التي وجدت في سنة ١٥٤٠ وكان نظامها من اقوى وأحكم النظامات السياسية التي وضعت الى ذلك العهد . وانتشر رجال هذه الرهبنة بين الناس يعظون وينشئون المدارس ليستولوا على عقول الاحداث ويصبغوا افكارهم بالصبغة التي يريدونها . ولما توفي اغناطيوس لويولا مؤسس هذه الرهبنة (١٥٥٦) كان أعضاؤها الفاً ومدارسها مئة وكان جماعة من رجالها قد انبثوا في اسبانيا وايطاليا والنمسا وبافاريا وفرنسا وجماعة آخرون في البرازيل والهند واليابان والحبشة .

﴿ فصل ﴾

﴿ في المجمع الترنتي او التريدنتي (١٥٤٥ — ١٥٦٣) ﴾

هذا المجمع الكنسي عقده البابا بولس الثالث في سنة ١٤٥٤ في مدينة ترنتا ارادة ان يقرر ان التعاليم الكاثوليكية لا تعديل ولا تسامح فيها . ثم طرأ من الحوادث ما أوجب انتقال هذا المجمع الى مدينة بولونيا (١٥٤٦) ولكنه أعيد الى ترنتا سنة ١٥٥١ فبقي سنة وتفرق مدة عشر سنين قبل الفراغ من أعماله . وفي أثناء تفرقه

استعان البابا بالفرنسويين على اجلاء الاسبان عن المواضع التي كانوا محتليها من ايطاليا فبقي النصر للاسبان واضطر البابا ان يقلع عن نية الاستقلال بايطاليا ثم كان من نتيجة ما أقر عليه المجمع ان المجامع تكون خاضعة للبابا وأنه هو صاحب السلطة المطلقة في ادارة الاكايروس وتقليب نظاماته وصاحب الرأي النافذ في تفسير القوانين الدينية وأنه لا يقبل الخطأ في مسائل الايمان .

وأشهر البابوات الذين ملكوا رومه بعد هذا المجمع غريغوريوس الثامن صاحب التقويم السنوي المعروف باسمه ثم سكست كنت (١٥٨٥ — ١٥٩٠) وهو الذي اصلح شؤون المالية وانقذ مملكته من قطاع الطرق ووسع رومه وبالغ في تحليتها وابتنى مكتبة الفاتيكان واضاف اليها مطبعة لنشر الكتب الدينية

الباب السابع والخمسون

﴿ في حروب اخرى جرت بايطاليا وذكر فرنسيس الاول ﴾
﴿ وشرلكان وسليمان الاول القانوني ﴾

﴿ فصل ﴾

﴿ في فرنسيس الاول وانتصاره بمارينيان (١٥١٥)

عند ما خلف فرنسيس الاول لويس الثاني عشر قصد افتتاح

ميلانو فاجتاز الالب والتقى في مارنيان بثلاثين الف سويسري دحرهم فعقدوا معه صلحاً دائماً ولم يحاربوا الفرنسويين بعد ذلك الى زمن الثورة وسميت هذه الموقعة بموقعه الابطال (١٥١٥) .وعلى أثرها اسرع البابا فعقد الصلح مع الفاتح الجديد في سنة ١٥١٦ فاتفقا على ان تلغى الانتخابات الاكليريكية ويعين الملك مباشرة الاساقفة ويعطي البابا ايراد سنة من كل كرسي اسقفي يخلو .

{ فصل }

{ في عظمة شرلكان }

في سنة ١٥١٦ توفي فردينند الكاثوليكي فخلفه كارلوس دوتريش الذي سمي بعد ذلك بشرلكان وأصبح صاحب اسبانيا والنمسا وهولنده وفرانش كونته ونابولي وصقليا وامريكا . وكانت هذه الدولة الناشئة مما يوجب تهيب الدول وحذر فرنسا غير ان فرنسيس الاول لم يكترث لها لكثرة انقسامها وتشتتها وعقد مع شرلكان معاهدة نويون (١٥١٦)فسهل له وضع تلك التيجان على رأسه بدون معارضة . غير ان صداقة الملكين لم تستمر الا ثلاث سنين الى ان توفي الامبراطور مكسيميليان فتناظرا في السعي لخلافته ثم فاز شرلكان ولقب بالامبراطور وحالف انكلترا والبابا استعداداً لمحاربة خصمه. وكان فرنسيس الاول هو البادئ بالمعاداة

من حيث وبخ شرلكان على عدم ارجاعه له مقاطعة نافاربا الفرنسوية طبقاً لما جاء في معاهدة نويون فلما لم يجبه ارسل ٦٠٠٠ مقاتل فاحتلوا تلك المقاطعة بقيادة الدوق دي بويون ثم هاجموا لكسمبورج . ولكن الفرنسويين انكسروا في قشتالة وكاد عساكر الامبرطور يأخذون بلدة مازيار لولم يدخلها بايار ويحميها منهم (١٥٢١) وكذلك انكسر لوترك القائد الفرنسوي في موقعة بيكوك (١٥٢١) لان جنوده السويسريين خذلوه وانجلى عن ميلانو فجرأ ذلك أهل البندقية وجنوا على خلع النير الفرنسوي . وفي هذه السنة نفسها رقى شرلكان الى كرسي البابويه ادريان السادس الذي كان استاذه واصبح صنيعته

﴿ فصل ﴾

﴿ في موقعة بافي (١٥٢٥) ومعاهدتي مدريد (١٥٢٦) وكامبراي (١٥٢٩) ﴾

ولم تلبث فرنسا ان اصبحت مهددة الجوانب لان الكونيتابل دي بوربون خانها انتقاما من الملك الذي أساء معاملته وحارب مع عساكر شرلكان فانتصر على بونيفه في بياغراسو التي قتل فيها بايار (١٥٢٤) ودخل بروفنسا غير ان ثورة أهلها الجأته الى الخروج منها فتبعهم الجيش الفرنسوي وفي مقدمته الملك والتقوا بهم في بافي وكانت مدافع فرنسيس الاول تمزق الاعداء تمزيقا غير انه اخذته هزة نزق فهجم بخيالته عليهم امام نيران مدافعه وخسر

الموقعة واسر (١٥٢٥) فاضطر للتخلص من أسره ان يوقع على معاهدة مدريد (١٥٢٦) التي تنازل بمقتضاها لكارلوس عن بورغونيا ونابولي وميلانو وجنوا وفلاندروارتوا ورد أملاك دوق بوربون له ووعد بان يتزوج بشقيقة الامبراطور ملكة البرتغال ولما رجع الى مملكته استصدر قراراً من نواب بورغونيا بانه لا يجوز التصرف بولاية من ولايات فرنسا فتشاتم من اجل ذلك الملكان وتداعيا الى البراز ثم اديرت رحى الحرب ثانية .

وكان البابا وملك انكلترا قد انفكا عن محالفة شرلكان ذلك لخوفه على استقلال ايطاليا وهذا لان الامبراطور لم يفه ماوعده به . فنزلت أول نوازل الحرب الثانية على ايطاليا وذلك ان بوربون دخلها بجيش من اللوتيريين وحاصر رومه فقتل وراء اسوارها ولكن جيشه دخلها عنوة واستباحها قتلاً ونهباً وتدميراً (١٥٢٧) . وكان لوترك قد فتح ميلانو ثانية وتقدم الى نابولي غير ان العمارة الجنوية غدرت به فاضاعت ثمرة الحملة وتوفي لوترك مصابا بالطاعون واجلى الفرنسويون ثانية عن ايطاليا . وعند ذلك ظهر فيها شرلكان فاكره دوقية فراري وميلانو ومانتو على الانتماء اليه ومقاطعتي سافوا ومونفرات على ترك محالفة فرنسا والبابا اكليمندوس السابع على تتويجه ملكا لايطاليا وامبراطوراً (١٥٢٩) وعند ذلك وقع ملك فرنسا على معاهدة كامبراي التي لم يدخل فيها التنازل عن

بورغونيا ولكن تعهد بوجبها ان يتخلى عن حلفائه في ايطاليا وعن حقوقه بنابولي وان يعترف بسفورزا دوقا لميلانو (١٥٢٩)

﴿ فصل ﴾

﴿ في محالفات فرنسيس الاول وانتصارات سليمان ﴾

وعاد فرنسيس الاول يستعد للانتقام فحالف البروتستان في المانيا وفي اسوج ودنيمرك وحالف كذلك السلطان سليمان الاول . وكان سليمان على ما علمناه بطلا باسلاً نصيراً للاداب والصنائع والعدل وهو واضع القانون العثماني ولذلك لقب بالفاتح والقانوني والجواد .

وبينما كان هذا السلطان في عودته الى النمسا يحاصر ستيريا اتته سفارة من فرنسيس الاول بطلب محالفته وكان ينوي الزحف على المانيا غير انه علم ان أسطولا اسبانيولياً وصل الى الدردنيل فرجع لوقاية عاصمته (١٥٣٢) .

وكان فريدريك باربروس امير بحر الاساطيل العثمانية كما رأينا ذلك وفي سنة ١٥٤٠ ثار أهل مركز غاند على الامبراطور فاذن له فرنسيس الاول بامرار جنوده من فرنسا لاخضاع الثائرين على ان يرجع اليه ميلانو فوعده بذلك ثم اخلف وقتل رسولين كان فرنسيس الاول منفذهما الى سليمان الاول فضم ملك فرنسا عمارته الى

عمارة بابروس وفتح نيقا وانتصر قائده دوق انجيان انتصاراً مبيناً في سريزول (١٥٤٤) ولكن شرلكان دخل من الشمال الى شاتوتياري على ١٥ ميلا من باريس وكان ملك انكلترا حليفه يفتح بولونيا الاان المجاعة والامراض اضعفت جيش الامبراطور فكف عن القتال وعقد معاهدة كرسبي (١٥٤٤) على تساهل منه ومن فرنسيس الاول . وبعدذلك اعطى ملك فرنسا ملك انكلترمايوني دينار فانجلى عن بولونيا بموجب معاهدة آردر (١٥٤٦) وفي السنة التالية توفي فرنسيس الاول

﴿ فصل ﴾

(في اعتزال شرلكان (١٥٥٦)

فظن شرلكان ان الجو خلا له لوفاة عدوه الالد واشتغال سليمان بحروب اسيا غير انه لم يلبث ان قامت في وجهه مشكلة جديدة وهي ثورة البروتستان عليه حين تكاثر عددهم في المانيا فكسرهم في موقعة موهلبرج (١٥٤٧) بسبب خيانة موريس دي ساكس ونشر منشور اوجسبرج الذي لم يرض الكاثوليك ولا البروتستان فانتهز ملك فرنسا هنري الثاني هذه الفرصة واعان انه حامي بروتستان المانيا ودخل اللورين ففتح اسقفيات متس وتول وفردين (١٥٥١) وكان البروتستان من جهتهم قد باغتوا الامبرطور

في مكان فقرّ منهم الى ايطاليا وعقد معهم مصالحة باسو التي منحتهم بموجبها حرية المذهب (١٥٥١) ثم انصرف لمحاربة فرنسا فلم يستطع ان يسترجع متس وكان قد تعب من الحروب وزهد في الدنيا فمنح ابنه فيليب الثاني اسبانيا وايطاليا وهولنده (١٥٥٦) ومنح أخاه فرديناند الامبراطورية الالمانية. ومن ذلك العهد انقسم آل النمسا الى فرعين واعتزل شرلكان في دير (١٥٥٦)

{ فصل }

{ في استمرار الحرب بين آل فرنسا وآل النمسا (١٥٥٨ -- ١٥٥٩) }

لما تولى البابوية بولس الرابع كان الاسبانيون محتلين نابولي وميلانو فاراد طردهم منهما فاستعان بفرنسا فارسلت جيشاً الى هولنده وآخر الى ايطاليا ارادة ان تحصر ملك فيليب الثاني في اسبانيا. وكان الدوق دي كيز قد فتح ميلانو وزحف على نابولي اذ ورد اليه أمر بالرجوع الى فرنسا لمقاومة الاسبانيين فعاد وحاصر مدينة كاله فجأة في منتصف الشتاء ودخلها عنوة في ثمانية أيام (١٥٥٨) وكان الاسبانيون قد وصلوا الى سان كانتين وانتصروا على الفرنسويين فيها قبل رجوع دي كيز ثم كسروا المارشال دي ترم بعد فتح كاله فعقد هنري الثاني معهم معاهدة كاتو كامبرزيس ورد بمقتضاها الى دوق سافوا أملاكه عدا بعض المدائن ورد كورسكا الى جنوا

واستبقى الاسقفيات الجرمانية الثلاث ومدينة كاله . على ان هذه الحروب لم تفد احداً كما أفادت البروتستان فانهم تكاثروا في اثنائها حتى اصبحوا نصف سكان اوربا عدداً .

الباب الثامن والخمسون

﴿ في الحروب الدينية التي جرت في غربي اوروبا ١٥٥٩ — ١٥٩٨ ﴾

﴿ فصل ﴾

﴿ في فيليب الثاني ﴾

كانت الشمس لا تغيب عن املاك هذا الملك العظيم على ماقاله هو نفسه اذ كانت له في ايطاليا صقليا وسردينيا ونابولي وميلانو وفي فرنسا فلمنك وارتوا وفرنش كونته وروسيليون وكانت له هولانده كلها وتونس واوران والرأس الاخضر وجزائر كاناريا في افريقيا ومكسيك وبيرو وشيلي وجزائر الانتيل في أمريكا وجزائر فيلبين في الاوقيانية . وكانت له أساطيل عظيمة وايرادات طائلة وقد انفق كل ماله وقوة ذكائه في محاربة البروتستان بالسيف والدسائس .

﴿ فصل ﴾

﴿ في مبدإ الحروب الدينية المشار اليها ﴾

عندما وقع ملكا فرنسا واسبانيا على معاهدة كاتو كامبريزيس (١٥٥٩) تعاهدا على ان يقاتلا البدعة البروتستانية الى ان يمحوها من اوربا . غير ان هنري الثاني قبض الى ربه وخلفه ابنه فرنسيس فحكم سنة ونصف سنة (١٥٥٩ — ١٥٦٠) ثم خلفه ابنه الثاني كارلوس التاسع فتوفي قبل ان يدرك الرابعة والعشرين من عمره (١٥٧٤) ثم خلفه ابنه الثالث (١٥٧٤ — ١٥٨٦) فبلغ سن الرجال ولكنه كان احمق خاملاً قاصر العقل فالذي لم يستطع ان يقوم به هؤلاء الابناء قامت به امهم كاترينه دي مديسيس وذلك انها استعانت بآل جيز اعمام ملكة ايكوسيا وماري ستيوارت وجمعت الكاثوليك الى حزب واحد ضد حزب البروتستان

﴿ فصل ﴾

﴿ في الحرب الاولى (١٥٦٢ — ١٥٦٣) ﴾

كان اعلان الحرب منذ رجوع الملكين الى عاصمتيهما بعد معاهدة كامبريزيس فان كلا منهما اصدر لمملكته منشوراً ينذر فيه البروتستان بالموت ان اصروا على بدعتهم . فاجاب برلمان انكلترا على ذلك بان جعل الملكة اليصابات رئيسة الكنيسة الانكليكانية والغى الرهبنات وايد البرتستانية من بحر ارلنده الى اقصى البلطيك . واحدثت اليصابات بايعازها مؤامرة امبواز البروتستانية في فرنسا

فاكتشفها دي جيز واراق دماء القائمين بها (١٥٦٠) ثم حدثت مذبحة فاسي (١٥٦٢) فكانت فاتحة هذه الحرب التي لم تنته الا في سنة ١٥٨٩ . ولما علم فيليب الثاني ان السيف خرج من قرابه أرسل نجدة كبيرة لاعانة الكاثوليك في فرنسا وأرسل بروتستان المانيا ٧٠٠٠ جندي لمساعدة كونده زعيم البروتستان فيها وكانت اليصابات ايضاً تمده بالمال والنجدات ثم انكسر جيش هذا الامير في دراي وقتل الدوق دي جيز امام اورليان ففاز فريق المسالمين على هذين الحزبين الرفضيين واصدرت كاترين دي مديسيس منشور امبواز (١٥٦٣) فمنحت به حرية المذاهب .

﴿ فصل ﴾

﴿ في فوز الكاثوليك في هولنده وفرنسا (١٥٦٤ — ١٥٦٨) ﴾

﴿ وذكر محكمة الدم (١٥٦٧) ﴾

كان الاسبانيون قد كثر عددهم في هولنده واتوا بالمظالم والاستبداد الى تلك البلاد المعودة على الدستور والحرية فكان اهلها من شرفاء وعامة في حالة كدر وانتظار فلما صدر الامر بمضمون ما تقرر في مجمع تريدنته تحالف الشرفاء فيما بينهم (١٤٦٦) على ان يتعاونوا حتى يرفع عنهم مالم يطب لهم من قرارات المجمع . وأما الشعب فانه هب هبة واحدة لان البروتستانية كانت قد انتشرت

بينه انتشاراً عظيماً واخذ ينهب الكنائس ويسقط الصور والتماثيل ويحرق المنابر فلم يشترك النبلاء معه في هذه المعمعة ولذلك انطفأت نيرانها سريعاً ثم أرسل فيليب الدوق دلب الى هولنده للتنكيل بالثائرين فانشأ محكمة الدم التي قضت باعدام ١٨ الف نفس شنقاً وبنزع املاك ٣٠ الفاً فوقع الرعب في القلوب ونزح مئة الف من السكان عن بلادهم ووضعت على الباقين فيها ضريبة من أثقل الضرائب حملا .

على ان هذه الحوادث رنّ لها صدى في فرنسا ونشأت منها حربان اهليتان جديدتان اولاهما (١٥٦٧) انتهت بموقعة سان دنيس والثانية (١٥٦٨) بموقعة جارناك التي قتل فيها كونده وموقعة مونكور التي قهر فيها كويني زعيم الحزب البروتستاني وبقي الفوز للكاثوليك اما اسبانيا فكان الرعب سائداً فيها وفي جميع أملاكها لشدة المراقبة وكثرة ما سفك من الدماء من أجل المعتقد وفي سنة ١٥٦٨ بلغت القسوة الوحشية من فيليب الثاني الى أنه حمل امرأته وابنه على الانتحار واثار عليه المغاربة في الالب الاسبانية وأسس محكمة التفتيس في مستعمراته . ولم يخسر الكاثوليك خسارة تذكر في هذه المدة الا بسقوط الملكة ماري ستيوارت (١٥٦٨) وتغلب البروتستان عليهم في اسكتلانده .

{ فصل }

{ في تفرق قوى اسبانيا وانتصار ليبانته (١٥٧١ }

كان فيليب الثاني قد اضطر بسبب حروبه ورفضيته ان يفرق قوى اسبانيا كل مفرق. فكان جانب كبير من ماله ورجاله مستخدما لاخضاع مغاربة الاندلس الذين ثاروا عليه بايعاز انكلترا وقاوموه بمساعدتها الى سنة ١٥٧١ وجانب آخر مستخدماً في البحر المتوسط لمقاومة الاتراك الذين فتحوا قبرس (١٥٧٠) وفي هولنده لمقاومة ثائريها الذين كانوا يسطون على المراكب الاسبانية ليمنعوها من ايصال الميرة والزاد الى الحصون وفي نابولي وميلانو وساحل افريقيا ومكسيك وبيرو .

وفي سنة ١٥٥٨ عاد فيليب لمحاربة الاندلس ففقد اسطولا وجيشاً كاملين امام تلمسان وفي السنة التالية فقد امام طرابلس اسطولا آخر عليه ١٥ الف عسكري .

وبعد ذلك باربع سنين حطمت عاصفة أسطوله في نابولي وفي سنة ١٥٩٥ سطا سليمان على مالطه بعد أخذه قبرس فاضطر فيليب ان يرسل قسما كبيراً من قوته الى البحر المتوسط ليحميه من الاتراك . وكان فيليب ايضاً قد جهز عمارة مؤلفة من ٣٠٠ سفينة عليها ٨٠ الف عسكري تحت قيادة أخيه دون جوان دوتريش لمقاتلة الاتراك بعد

فتحهم لقبرس فانتصر عليهم أخوه في موقعة ﻗﺮﻧﺸﻴﻪ (١٥٧١) ولكن لم يجن من ذلك ثمرة.

{ فصل }

{ في المؤامرات الكاثوليكية بانكلترا وفي فرنسا }

كان الكونت بوثويل قد قتل دارنلي زوج ماري ستيوارت ملكة اسكتلانده (١٥٦٧) ثم أرادت هي ان تتزوج به فثارت عليها الامة باجمعها ففرت ولجأت الى اليصابات ملكة انكلترا فاعتقلتها بدون وجه حق (١٥٦٨) فأخذ الكاثوليك يتآمرون على اليصابات بايعاز فيليب الثاني ودسائسه ولا يفلحون . وفي سنة ١٥٦٩ أصدر البابا حرما لاليصابات فاجتمع كثيرون من اللوردية وانشأوا لهم راية عليها رسم المسيح مجروحا خمسة جروح يسيل منها الدم وثاروا ثلاث مرار كانت الثالثة منها في سنة ١٥٧٢ برئاسة دوق نورفولك الذي وعدته ماري ستيوارت انها تتزوج به فاماته اليصابات شنقا

وفي هذا الوقت نفسه حدثت في فرنسا مذبحة يوم عيد القديس برتلماوس وذلك ان دوق كوليني زعيم البروتستان كان قد تقرب من الملك كارلوس التاسع وعرض عليه ان يحول الحرب الاهلية الدينية الى حرب خارجية فيفتتح هولنده ويكسب فرنسا مجدا في الخارج وراحة في الداخل فرضي الملك بهذا الرأي وقبيل الشروع

في انفاذه طعن رجل من مأجوري آل جيز دوق كوليني بخنجر فخر جريحاً فأقنع زعماء الكاثوليك الملك ان يرسل اليه من يقتله ففعل ووقعت في ذلك اليوم المذبحة الشهيرة بمذبحة سان برتلماوس ونكل فيها الكاثوليك بالبروتستان تنكيلا قبيحاً ثم أرسل البابا وفيليب الثاني يهنئان الملك أحسن تهنئة بعد ذلك على جنايته الهائلة وظن ان البروتستان لاتقوم لهم قائمة في فرنسا بعد ذلك

﴿ فصل ﴾

﴿ في نجاح البروتستان (١٥٧٣ — ١٥٨٧) ﴾

غير ان الامور وقعت على العكس مما ظن فان البروتستان نهضوا بعد ذبح اخوانهم أشد وأقوى مما كانوا وحملوا السلاح الى ان منحوا حرية المذهب في معاهدة روشيل . ولما خلف هنري الثالث كارلوس التاسع في سنة ١٥٧٤ وجد نفسه ازاء ثلاثة احزاب كبيرة: السياسيين تحت رئاسة فرنسوا دالنسون أصغر اخوة الملك والكلفينين تحت رئاسة هنري البيارني ملك نافاريا والكاثوليك المتعصبين تحت رئاسة هنري دي جيز . وكان مقصد هذا الحزب الاخير الايقاع بالملك والبروتستان معا. وفي سنة ١٥٨٤ توفي هنري دالنسون فأصبح هنري البيارني ولي عهد فرنسا وأيد حقه هذا بانتصاره المبين في موقعة كوتراس (١٥٨٧) . فتوهم البابا ان صعود

بروتستاني على اريكةفرنسا سيكون ثمرة الحرب الدينية التي غمرتها في الدماء .

على ان البروتستان نالوا في هولنده فوزا اكبر من فوزهم في فرنسا وذلك ان الثائرين الهولنديين بعد ان حاربو محاربة الفرسان مدة طويلة ولم يحلوا منها بطائل نزلوا الى البحر في سنة ١٥٧٢ وأخذوا مركز بريال فثارت معهم هولنده وزيلنده وكان المدد يأتيهم من البروتستان في المانيا وانكلترا وفرنسا فدافعوا عن انفسهم دفاع الابطال تحت قيادة غيليوم دي ناسو برنس دورانج صهر كوليني . واذ لم يفلح فيليب معهم بالعنف أخذهم باللين واستبدل عامله عليهم الدوق داب بعامل ارأف منه فهدأوا حينا غير ان الجيش الاسباني اعوزته الميرة فاخذ يفتك باهل المدائن الكبيرة فنشأ عن ذلك تحالف غاند (١٥٧٦) الذي اشتركت فيه جميع ولايات هولنده لمقاومة الاسبانيين غير ان الهولنديين لم يلبثوا ان انقسموا الى فريقين الوالونيين (أهل بلجكا) والباتافيين (أهل هولندة) نفسها فاعترف الاولون في سنة ١٥٧٩ بفيليب ملكا عليهم وانكره الآخرون والفوا جمهورية وأقاموا البرنس دورانج حاكما عاما عليهم . وبعد ذلك بسنتين انضمت لاهاي الى الولايات الباتافية المتحدة . وكان فيليب الثاني قد وعد ايا يقتل البرنس دورانج بمال كثير فقتل في سنة ١٥٨٤ ولكن الهولنديين دافعوا عن

استقلالهم بعد وفاته بمساعدة انكلترا وفرنسا وفازوا على فلرنتيز دوق بارمه الى ان قتل : وهكذا وجدت امة جديدة بين الامم الغربية .

اما انكلترا واسبانيا فكانتا تحاربان بالدسائس والمعارضات قبل ان تعتركا . وكانت اليصابات ترسل سفائنها للسطو على سفائن اسبانيا اينما ظفرت بها ولنهب سواحل مستعمراتها . وفي سنة ١٥٧٧ اغار دراك على سواحل شيلي وبيرو وغنم منها غنائم كثيرة واسر عدة مراكب اسبانية وعاد بها الى انكلترا بعد ان طاف حول الارض . وفي سنة ١٥٨٥ سطا كافنديش ثانية على المراكز الاستعمارية الاسبانية وكان الهولنديون في أثناء ذلك يسطون على المستعمرات البرتغالية التي دخلت في أملاك اسبانيا منذ تحولت البرتغال الى ولاية من ولاياتها . ولم يكن فيليب يستطيع الانتقام من هذين الشعبين اذ لم تكن لها املاك خارج بلادها فأخذ يثير الفتن في قلب انكلترا على الملكة حتى اذا اشتد قلق افكارها اماتت ماري ستيوارت شنقاً (١٥٨٧) وبسقوط رأسها سقطت آمال جميع الذين كانوا يتوهمون ان المذهب الكاثوليكي يحتمل رجوعه الى انكلترا

فصل

(في فشل اسبانيا والرفضيين من الكاثوليك (١٥٨٨ — ١٥٩٨)

بعد اذ اصاب حزب الكاثوليك ما اصابهم من الفشل في

هولنده وانكلترا أخذ آل جيز يسعون في احياء العصابة الكاثوليكية في فرنسا سنة ١٥٨٤ . وأما فيليب الثاني فانه أعد عمارة نعتها بالتي لا تغلب وفي ٣٠ يونيه من سنة ١٥٨٨ اخرجها من نهر التاغوس قاصداً بها انكلترا وكان عليها ٥٠٠٠٠ مقاتل فهبت عليها عاصفة شديدة حطمتها وأجهزت عليها المراكب الانكليزية والهولندية فسقط بذلك ما كان ينويه فيليب من تسويد الكاثوليكية والنفوذ الاسباني على انكلترا فهولنده ففرنسا مما استعد له ثماني عشرة سنة وذهب ادراج الرياح في بضعة أيام .

وبينما كان فيليب ذاهباً لمحاربة انكلترا كان اصدق حلفائه الدوق دي جيز قد فاز في الموقعة المشهورة بموقعة المتاريس (١٥٨٨) ودخل باريس ففر منها الملك ثم علم بما أصاب العمارة الاسبانية فعاد اليه الامل واحتال على دي جيز حتى أخرجه من باريس الى بلوا فغلبه فيها وأماته وجاء يحاصر باريس مع ملك نافاريا حليفه فقتله راهب في معسكره (١٥٨٩) ونودي بهنري البياراني ملكا على فرنسا تحت اسم هنري الرابع فخذله كثيرون من الكاثوليك ولكنه أتته نجدات عظيمة من انكلترا وهولندا والمانيا فقاوم الاسبانيين والايطاليين الذين أتوا لانجاد عصابة الكاثوليك وكسرهم في ايفراي وارك (١٥٩٠) الا ان قائدهم فارنيز صده مرتين عن باريس وروان (١٥٩١) لكن حزب السياسيين لم يلبث ان انضم الى الملك وانضمت

اليه بعده اكثرية الفرنسويين لانه ترك البروتستانية وتمذهب بالكاثوليكية قائلاً « ان باريس تسوى قداساً » (١٥٩٣) ولما دخل باريس اجلى عنها الحامية الاسبانية (١٥٩٤) ثم جاءه تحليل من البابا فاعترف به رؤساء جميع الاحزاب وبعد ذلك انتشبت بينه وبين اسبانيا حرب قصيرة فاز فيها وعقد معها معاهدة فرفين التي ردت تخوم فرنسا الى ما كانت عليه بعد معاهدة كامبريزيس (١٥٩٨) وكان قبيل هذه المعاهدة بثلاثة اسابيع قد اصدر منشور فانت الذي منح به البروتستان حرية الضمير وحرية القيام بشعائر مذهبهم في داخل التصور وفي عدد كبير من المدائن وامنهم واذن لهم ان ينتدبوا نواباً عنهم كل ثلاث سنين ليعرضوا للحكومة ظلاماتهم ومطالبهم .

الباب التاسع والخمسون

{ في نتائج الحروب الدينية في غربي اوروبا }

{ فصل }

{ في انحطاط اسبانيا وافلاسها }

هتان المصيبتان وقعتا على اسبانيا باسباب طرد اليهود والمغاربة واكثار الحكومة من الاحتكارات وافنائها الرعايا بالحروب المستمرة

فبارت التجارة ووقفت الصناعة وكان الذهب الذي يرد من المستعمرات بالقناطير المقنطرة يمر من اسبانيا مروراً ليذهب الى البلاد التي كانت تبعث اغلالها ومصنوعاتها اليها . ومن أجل ذلك عجزت خزينة اسبانيا مرتين عن وفاء ديونها التي بلغت نحو المليار في آخر عهد فيليب الثاني . وفي سنة ١٥٩٨ توفي هذا الملك بعد صدور منشور نانت وعقد معاهدة فرفين باربعة اشهر وترك اسبانيا خائرة بأسرة

﴿ فصل ﴾

﴿في تقدم انكلترا وهولنده﴾

عند ما تم الفوز لاليصابات في الداخل والخارج استبدت بالملك استبداداً لا مثيل له وقتلت كثيرين ممن لم ينتموا لسلطتها الدينية غير انها فيما خلا ذلك ساعدت أهل بلادها على الاثراء والتقدم فعززت البحرية والتجارة والصناعة التي أتاها بها الفلمنك حين لجأوا اليها من جور فيليب قبل استقلالهم . وأنشئت في عهدها بورصة لندرة واستعمرت فرجينيا وكان يستورد منها التبغ والقلقاس . وفي عهدها أيضاً وجد شكسبير أحد أكابر مؤلفي الروايات التمثيلية في الدنيا وباكون فيلسوف زمانه صاحب الطريقة الاختبارية .

أما الهولنديون فالفوا البحر وتجارته وكانوا يحملون براميل السمك المجفف الى البلاد الكاثوليكية فيعودون بها مملوءة ذهبا .

ولما أقفل فيليب الثاني عليهم ميناء لشبونه تحولوا الى الشرق يأتون بالمتاجر منه وفتحوا جزائر المولوك فكانت أساس سلطنتهم الاستعمارية التي تولتها بعد ذلك شركة البلاد الهندية الكبرى في سنة ١٦٠٢

وكان لولايتي هولنده وزيلانده وحدهما ٧٠٠٠٠ ملاح . وهم الذين انتقلت الى يدهم بعد حين جميع تجارة اسبانيا والبرتغال

{ فصل }

{ في تجديد هنري الرابع لنظام فرنسا (١٥٩٨ — ١٦١٠) }

هذا الملك ردّ الى فرنسا الامن والراحة في الداخل والخارج وأخذ يصلح شؤونها الداخلية ويضمد جراحها مستعيناً بوزيره الامين سلّي فتوصل في أقل من ١٢ سنة الى وفاء مئة و٤٧ مليونا من دين فرنسا الذي كان يبلغ الفا وثلاثمائة مليون . واسترجع املاكا للتاج بثمانين مليونا وادخر للحاجة عشرين مليونا في حصن الباستيل . ومما فعله سلي تجفيف المستنقعات وتكثير المراعي ومنع الجباة عن بيع المواشي وأدوات الزراعة . وفي ذلك الوقت ظهر العالم الزراعي الكبير أوليفيه سرّ فنشر المبادئ الصحيحة للزراعة

والاقتصاد الزراعي . ثم ان الملك لم يكتف بما فعله وزيره بل أمر بغرس خمسين الف غرسة توت وأعاد معامل ليون ونيم وتور التي أسسها فرنسيس الاول وشيد معامل الزجاج والخزف الصيني في باريس ونيفر وعقد معاهدات تجارية مع هولنده وانكلترا ورد الى فرنسا احتكار تجارة الشرق وأمر ببناء مدينة كويبك في كندا (١٦٠٨) .

وكان هنري ينوي ان يعيد السكينة والسلام الى سائر أوربا كما أعادهما الى فرنسا فعبأ جيشاً مؤلفاً من أربعين الف جندي ليقاتل النمسا ويتوصل الى تحقيق نيته غير ان أجله أدركه قبل الدخول في هذه الحرب بطعنة من رجل يدعى رافالياك (١٦١٠)

الباب الستون

﴿في الحروب الدينية التي جرت في وسط اوروبا وعرفت بحرب الثلاثين سنة﴾

(١٦١٨ — ١٦٤٨)

﴿ فصل ﴾

﴿ في مسببات حرب الثلاثين سنه (١٥٥٥ — ١٦١٨) ﴾

ان الحرب الدينية الاولى التي ذكرنا وقائعها دامت ستاوثلاثين سنة (١٥٦٢ —١٥٩٨) واخربت البلاد من جبال البرانس الى بحر

الشمال اما الثانية فقد دامت ثلاثين سنة (١٦١٨ — ١٦٤٨) وجرت ويلاتها من الدانوب الى الاسكو ومن ضفاف البو الى البلطيك . وهكذا قضت اوربا ثلثي قرن تقتتل وتسفك الدماء كالانهار في سبيل الله السلام والمحبة .

وخليق بالذكر هنا ان البروتستان مع اضطهاد الكاثوليك لهم لم يكونوا على شيء من الاتحاد فيما بينهم لكثرة البدع والشيع في مذهبهم حتى ان اهل كل شيعة كانوا يحرمون شيعة الآخرين وينكرونها عليهم . واعظم ما كان الانقسام بين اللوتيريين والكلفيين وخصوصاً في المانيا وذلك ما جعل الكاثوليك ينضمون فيها ويقيمون على البروتستان حرب دسائس كادوا يفوزون بها عليهم لو لم ينتبهوا ويعقدوا فيما بينهم محالفة دعيت بالانجيلية (١٦٠٨) فألف الكاثوليك عند ذلك محالفة لمقاومتها تحت رئاسة ماكسيميليان دوق بافاريا

وحدث في السنة التالية ان وقع خلاف على من يرث دوقيات مقاطعات كليفس وبرج وجوليرس بين دوق نوبورج ومنتخب براندبورج فحجز الامبراطور الدوقيات المذكورة فاعترض البروتستان واستعد هنري الرابع لمساعدتهم فحال دون ذلك مقتله كما قدمناه (١٦١٠) فطال النضال والجدال وتحول دوق نوبرج الى الكاثوليكية ودوق براندبورج الى الكلفينية وعندذلك دخل البلاد الاسبانيون من أحد جوانبها والهولنديون من الآخر ولكن سياسة النمسا

كانت قد تغيرت بانتقال الامبراطورية الى فرديناند الثاني فانه منذ تولى نسف كنائس البروتستان نسفا واحرق في دفعة واحدة ١٠٠٠٠ نسخة من التوراة. وكان على أثر ذلك ابتداء الحرب الدينية الثانية التي تقسم الى أربعة أقسام

﴿ فصل ﴾

(في القسم الاول المعروف بالبالاتيني (١٦١٨ — ١٦٢٥)

عندما فعل فرديناند الثاني ما ذكرناه آنفا ثار البوهيميون عليه واقاموا فريدريك الثاني منتخب بالاتين صهر ملك انكلترا ملكا عليهم (١٦١٨) غير ان اللوتيريين خذلوه لانه كان كلفينيا. اما فرديناندفانجده حلفاؤه الاسبانيون واصحاب المحالفة الكاثوليكية فانتصر على الثائرين في موقعة الجبل الابيض فدخلت بوهيميا ثانية في ولايته ولكنه نكل بها تنكيلا أضعفها الى قرنين.

﴿ فصل ﴾

(في القسم الدانمركي ١٦٢٥ — ١٦٢٠)

واستمر الكونت دي مانسفلد وخريستيان ذي برونسويك الزعيمان للبروتستان يحاربان فرديناند وقائده تيلي الشهير وانصاره الاسبان النازلين بهولنده الى ان فطن امراء الشمال البروتستانيون لما كان يقصده فرديناند من اخضاعهم للكثلكة بعد ان يفوز على

بروتستان المانيا فدخل خرستيان الرابع ملك الدانمرك في الحرب (١٦٢٥) واحتل البقعة الواقعة بين نهر الالب والويزر وبينما كان يرد من ورائه جنود المحالفة الكاثوليكية عن الوصول الى فردیناند الذي لم يكن له جيش سواهم ليدفعه به ظهر رجل يدعى والدشتين كان رئيس عصابة كبيرة يعيشون من السلب والنهب وقدم للامبراطور جيشين واحداً بعد الاخر اولهما مؤلف من ٥٠٠٠٠ مقاتل والثاني من مئة الف واستبقى لنفسه قيادتهم المطلقة . فرأى ملك الدانمرك ان تيلي قائد الكاثوليك انتصر عليه من ورائه في لوتر وان والدشتين قد يقطع عليهم المرجع من هولشتين فعاد الى بلاده ووقع على معاهدة لوبك (١٦٢٩) واحتل مئة الف من جنود الامبراطور شمالي المانيا فجعلوا أهله مطيعين له طاعة الصغار والذل فاوشك بذلك فردیناند ان يلحق المانيا بالنمسا كما الحقت اليوم ببروسيا لولم يحل دون مقصده ريشليو وزير فرنسا بدسائسه التي دسها عليه فانه أرسل رسلاً يستحثون الامراء الالمانيين للمدافعة عن اماراتهم المهددة ويحرضهم على طلب عزل والدشتين ومهد الصلح بين ملكي بولونيا واسوج فلما هدأ بال صاحب اسوج ادرك جسامة الخطر الذي يصيب البروتستانية فيما لو فاز فردیناند الثاني واستعد للدخول في الحرب

﴿ فصل ﴾

(في القسم الاسوجي (١٦٣٠ — ١٦٣٥))

اشتهر ملك اسوج باسم غوستاف ادولف واول ما فعله انه انزل جيوشه في بوميرانيا (١٦٣٠) وكانوا ستة عشر الفا على غاية من البسالة والطاعة . وكانت فرنسا تعينه بأربعمائة الف ريال سنويا على نفقات القتال . فلما فتح بوميرانيا دخل ساكس وقهر تيلي في ليبزيك (١٦٣١) وطرد جميع الحاميات الكاثوليكية والاسبانية من فرانكونيا وسواب والرين الاعلى والبالاتين . ودخل حليفه دوق ساكس لوزاس وبوهيميا . فلما تم على هذه الصورة انفصال الالمانيين عن الاسبانيين دخل غوستاف بافاريا وقتل تيلي في ثمرليك فاسترجع الامبراطور والدشتين فجمع جيشاً للحال وزحف به على ساكس فهرع الملك راجعاً للدفاع عنها وانتصر في لوتزن وتوفي سنة (١٦٣٢) فخلفه قواده المدربون على يده واستمروا فائزين ولا سيما بعد ان قتل فرديناند والدشتين خوفا من مطامعه (١٦٣٤) غير انهم لم يلبثوا ان انكسروا في نوردلنجن فخذلهم جميع حلفائهم الالمانيين عدا دوق هس كاسل فرأى ريشليو عند ذلك ضرورة دخول فرنسا بذاتها في هذه الحرب .

﴿ فصل ﴾

(في القسم الفرنسوي (١٦٣٥ — ١٦٤٨))

كان ابتداء هذه الحرب سيء الطالع على فرنسا فان الاسبانيين

دخلوها وفتحوا كوربيه فخافت باريس ولكن ريشليو أوعد قواده بالقتل ان لم يخرجوهم منها ففعلوا. ثم اجلوهم ايضاً عن آرّاس (١٦٤٠) وكان برنار دي ساكس ويمر حليف ريشليو قد فتح الالزاس وحين دنت منيته اوصى بماله وجيشه لفرنسا (١٦٣٩) . وفي الوقت نفسه انتصر القائد دارکور في ثلاث معارك على جنود البيامون حليفة اسبانيا واخذ الملك بنفسه بربينيان فبقيت لفرنسا الى هذا اليوم وشغل ريشليو الاسبانيين في نفس بلادهم بتعزيزه ثورتي كولونيا والبرتغال. وكان القائدان الاسوجيان بانر وتورستنسون قد فازا فوزاً جميلاً في برندبرج وسيلازيا وساكس والقائد غابريان الفرنسوي في ولفنبوتل وكمبن (١٦٤١ — ١٦٤٢) واصبح على وشك ان يلتقي بالاسوجيين وينقضوا جميعاً على النمسا اذ توفي ريشليو (١٦٤٣) فتشجع الاسبانيون ودخلوا فرنسا فدحرهم كونده في روكروا (١٦٤٣) وفريبورج (١٦٤٤) ونوردلنج (١٦٤٥) ولنس (١٦٤٨) فلم يبق للاعداء محيص من التوقيع على معاهدة وستفالي .

الباب الواحد والستون

﴿ في نتائج الحروب الدينية التي جرت في وسط اوربا ﴾

﴿ فصل ﴾

﴿ في مصالحة وستفالي (١٦٤٨) ﴾

كان بدء المفاوضات لعقد الصلح منذ سنة ١٦٤١ غير انها لم تجر في مجرى جدّي الا سنة ١٦٤٤ في مدينتين من مدائن وستفالي وهما اوسنابروك التي التقى فيها مندوبو البروتستان والامبراطور ومونستر التي التقى فيها الوكلاء السياسيون والامراء الكاثوليك . لكن اسبانيا رأت ما حدث في فرنسا من فتن الفروند فتوهمت انها تنتهز هذه الفرصة لاسترجاع سردينيا وروسيليون وارتوا فامتنعت عن التوقيع على المعاهدة ووقعت عليها سائر الحكومات في ٢٤ اكتوبر سنة ١٦٤٨

﴿ فصل ﴾

﴿ في تقدم البروتستان وحصول الولايات الالمانية على الاستقلال الديني ﴾

فما قضت به المعاهدة المشار اليها ان يمنح الامراء حرية الضمير التامة من حيث الدين وان يكون مثل ذلك للشعب ولكن مع احترازات كثيرة لان كل ولاية كانت لها ديانة سائدة على ماسواها وللدائنين بها امتياز على غيرهم من قبيل الحرية المذهبية . وكانت المذاهب المعروفة رسميا ثلاثة الكاثوليكية واللوتيرية والكلفينية. اما ما يتعلق بالاملاك الكنسية واقامة الشعائر الدينية فقد أُرجع الى ما كان عليه في المانيا سنة ١٦٢٤ فيما عدا البالاتين ·

على ان هذه المعاهدة المجحفة بمصلحة الكنيسة الكاثوليكية

انشأها كردينال وهو ريشليو ووقع عليها كردينال آخر وهو مازارين فجاء ذلك دليلا على ان السلطة الكنسية كانت لذلك العهد في اعتبار الجميع حتى كبار اهل الدين قد فصلت عن السلطة الدنيوية .

{ فصل }

{ في الاستقلال السياسي في الولايات الالمانية }

من مقتضيات المعاهدة الوستفالية انه يكون لجميع الامراء والولايات في المانيا حق الاشتراك في تقرير المحالفات والحرب والمصالحات والمعاهدات وسن القوانين وانه يكون للامراء السلطان المطلق في ولاياتهم ويحق لكل منهم ان يحالف الدول الاجنبية على انفراد بشرط ان لا يكون ذلك ضد المملكة او الامبراطور . وتقرر في المعاهدة نهائيا ان تعتبر سويسرا وهولنده اجنبيتين عن الامبراطورية .

{ فصل }

{ في مكاسب اسوج وفرنسا }

اعطيت اسوج بموجب المعاهدة المذكورة أملاكا جعلت في قبضة يدها مصابّ الانهار الالمانية الثلاثة الاودير والالب والويزر فنشأت عن ذلك اسباب انحطاطها في المستقبل . اما فرنسا فأخذت

بنيرول من اعمال البيامون والالزاس وفيوبرساك وفيليبسبورج .

وفضلا عن ذلك فقد ابقت لها بابا مفتوحا لترشوبه الفقراء من امراء المانيا وتحالفهم وتستعين بهم .

وفي الجملة فان هذه المعاهدة كانت مضعفة للنمسا قاتلة لالمانيا من حيث جعلتها بسبب كثرة اماراتها وتعدد المذاهب فيها ميدانا للغارات والحروب كما كانت ايطاليا من قبل .

الباب الثاني والستون

{ في ريشليو ومازارين وبلوغ الملكية الفرنسوية }

« منتهى استبدادها وعظمتها (١٦١٠ — ١٦١٧) »

{ فصل }

{ في لويس الثالث عشر ايام حداثة سنه (١٦١٠ — ١٦١٧) }

ورث الملك حديث السن قاصراً فنابت عنه أمه ماري دي مديسيس في ادارة شؤون المملكة فتركت سياسة هنري الرابع واتخذت لها مرشداً رجلا يدعى كونسيني من صنائعها فاضاع المال الذي اقتصده سلي وأفقر الخزينة . وقام الكبراء بثورتين يطلبون المناصب والرواتب فمنحوها في معاهدتي ١٦١٤ و ١٦١٦ ثم اشترك الملك في ثورة اثارها البيرت دي لوين على كونسيني صنيعة

أمه فأماته وأمات امرأته (١٦١٧) وتولى الحكم بعد ذلك بنفسه مسترشداً بنصائح الدوق دي لوين فساءت سياسته . وحدث ان الملك أصدر أمراً بان تسترجع من البروتستان البيارنيين جميع الاملاك الكنسية التي غنموها فثاروا ونووا ان يستقلوا في أراضي أونيس كاستقلال أهل هولانده وتكون مدينتا روشل ومونتوبان قاعدتين لبلادهم فحاربهم الملك وتغلب عليهم وعقد معهم صلحا يؤيد منشور نانت ويمنحهم فوق ذلك روشل ومونتوبان ليمتنعوا فيهما من غدر غادر بهم ولكنه حظر عليهم ان يعقدوا فيها اجتماعات سياسية بدون اذنه (١٦٢٢)

﴿ فصل ﴾

﴿ في استيزار ريشليو وسقوط أمر البروتستان والشرفاء ﴾

استوزر الملك هذا الكردينال (١٦٢٤) بناء على ارادة أمه وكان سياسياً عظيما حازما شديد البأس أدار سياسته على محورين هما تقوية سلطة الملك في الداخل وتعظيم فرنسا في الخارج بكسر شوكة النمسا . وقد افلح في الامرين جميعاً فانا رأينا فوزه العظيم بما اراده في الخارج. واما في الداخل فكان اول ماشرع فيه ان عقد معاهدتين احداها مع البروتستان والاخرى مع اسبانيا ليتفرغ لانفاذ مقاصده ووجه اليه جميع مافي يده من القوة . ثم أخذ يسجن ويقتل

الكثيرين من الكبراء باعذار ودعاوي مختلفة وعزل بعضهم من مناصبهم ليضعف بذلك سطوتهم . فلما أمن جانب الكبراء قليلا بما اوقعه من الرعب في قلوبهم زوج هانريت دي فرنسا بملك انكلترا كارلوس الاول ليمنعه من محالفة البروتستان الفرنسويين ومع ذلك اقام في البحر سداً جسيما ليحول دون وصول مدد انكليزي الى البروتستان في روشل وحاصرهم فيها (١٦٢٨) فلم تفتح له ابوابها الا بعد ان اصبح عدد ساكنيها ٥٠٠٠ من ٣٠٠٠٠ .

وعند ذلك عقد مع البروتستان صلحاً فمنحهم الضمانات المدنية والحرية الدينية ولكنه هدم مراكزهم الحصينة التي كانوا يمتنعون فيها فتمت بذلك وحدة الامة الفرنسوية .

ولما فرغ من التنكيل بالبروتستان حول ناظريه الى الشرفاء ثانية وكان يكتشف مؤامراتهم عليه ويقتل منهم وينفي ويسجن حتى لم تقم لهم بعد ذلك قائمة وفي جملة مافعله انه قتل المارشال ماريلياك وكانت ماري دي مديسيس قد تواطأت معه على عزل ريشليو فاضطرت الملكة ان تنفي نفسها الى بروكسل . وآخر الكبراء الذين امتهم ريشليو كان سان مارس (١٦٤٢) المقرب الى لويس الثالث عشر

وبعد ذلك بسنة توفي هذا الكردينال الجليل وقد عزز فرنسا في الداخل والخارج وخفف مشاكلها المالية قليلا ونزع اكثر السلطة

التي كانت تعطى لحكام الولايات بحيث لا يخشى على الملك من تعاظم سطوتهم

﴿ فصل ﴾

﴿ في ذكر مازارين وفتنة الفروند ﴾

ولم يلبث لويس الثالث عشر ان ادركه اجله فتوفي عن خلف قاصر هو لويس الرابع عشر فنابت ام الملك عنه واتخذت الكردينال مازارين الايطالي الاصل وزيراً لها وكان من دهاة عصره رقي الى الكردينالية بطلب من رشليو الذي عرفه حين كان قاصداً من قبل البابا في فرنسا وقدره حق قدره .

ولم يتربع مازارين في دست الوزراة حتى قام الذين نجوا من الكبراء يستمنحون المناصب والرواتب من الملكة وعقدوا فيما بينهم « محالفة ذوي المقامات » فاكتشف الوزير دسيستهم واعتقل اثنين من اكابرهم في حصن الباستيل وفرق الآخرين كل مفرق .

واذ كان هذا الرجل من الشرهين المسرفين لم يحسن ادارة المالية فاستصدر أمراً لابتزاز الاموال بطرائق مختلفة كدرت الشعب فعصاه مجلس النواب وأراد ان يجعل لنفسه من الشأن ما لبرلمان انكلترا فوضع لائحة تشتمل على ٢٧ بنداً وطلب انفاذها وكان من محتويات اللائحة ان لا تجبى الضرائب قبل ان يراجع المجلس حسابها ويسجله

وان لا يعتقل منهم قبل التحقيق اكثر من أربع وعشرين ساعة الخ . وفي ذاك الوقت جاءت البشرى بانتصار كونده في لانس فتشجع مازارين وقبض على ثلاثة من النواب في الكنيسة (١٦٤٨) فثار الشعب والشرفاء واقاموا متراس ليقاتلوا جنود الملكة فاجابهم الوزير الى ما طلبوه خدعة ومطاولة وكان في تلك الايام يوقع على معاهدة وستفالي . ثم استدعى كونده واستعان به على الثائرين الذين كانوا يدعون بالفروندبين فتغلب عليهم وعقد معهم الوزير صلح رويل (١٦٤٩) .

ثم نفر كونده الملكة منه بتعاظمه وخيلائه فقبض عليه مازارين وعلى آخرين من الامراء فثار شرفاء فرنسا انتصاراً لهم ودخل القائد الشهير تورين بين العصاة فدحرتهم جنود الملكة غير أنهم عادوا فنهضوا ثانية بايعاز بول دي غوندي رئيس أساقفة باريس ففر مازارين الى لياج (١٦٥١) غير ان تورين لم يلبث ان رجع الى حزب الملكة وكسر العصاة ففر كونده وتجند لخدمة الاسبانيين وعلى هذه الصورة أخمدت فتنة الفروند (١٦٥٣) وبعدها بسنتين أصدر الملك أوامر الى مجلس النواب فابى ان يسجلها فعلم بذلك وهو راجع من الصيد فذهب الى غرفة الاجتماع وسوطه بيده وطرد النواب منها وحظر عليهم ان يجتمعوا بعد ذلك .

﴿ فصل ﴾

﴿ في معاهدة البرانس (١٦٥٩)

وعند ما استتب الامن في الداخل أديرت رحى الحرب على اسبانيا في الخارج فانتصر تورين على الاسبانيين في موقعة آرّاس (١٦٥٤) ثم في الموقعة التي اشتهرت باسم موقعة الآكام وكان كونده قائد الاسبانيين فيها وعلى أثرها فتح الفرنسويون مركزاً كان بمثابة منفذ لهم الى هولنده حينما يشاؤون (١٦٥٨) وبعد ذلك ببضعة أشهر وقع مازارين على معاهدة البرانس (١٦٥٩) التي شرط فيها ان تتخلى اسبانيا عن روسيليون وسردينيا وارتوا وان تتزوج ابنة ملك اسبانيا بلويس الرابع عشر وتعدل عن حقها بخلافة ابيها غير ان مازارين احتال لجعل عدول الاميرة عن حقها ملغى غير نافذ وفي السنة التالية عقد مع جماعة من الامراء الالمانيين محالفة الرين التي جددها بعده نابوليون. وكلاهما لم يظفر منها بطائل .

وفي سنة ١٦٦١ توفي مازارين عن ثروة واسعة وأقارب أغناهم بالاموال الطائلة وقد خدم فرنسا خدماً جليلة من حيث أتم اسقاط الشرفاء وأحسن السياسة في الداخل والخارج ولكنه أضعف المالية كثيراً . وفي عهده ظهر كورنايل وديكارت وباسكال وبوسين وكانوا في مقدمة اهل العلم والادب في العصر الذهبي الذي عرف بعصر لويس الرابع عشر

الباب الثالث والستون

{ في انكلترا من سنة ١٦٠٣ الى سنة ١٦٧٤ }

{ فصل }

(في حالة اوروبا سنة ١٦٦١)

في هذه السنة استوى لويس الرابع عشر على اريكة فرنسا وكانت هذه الدولة قد بلغت منتهى عظمتها في عهد ملوكها فتحولت أنظار اوربا اليها لاضعافها ولكن النمسا واسبانيا كانتا مشتغلتين عنها بتضميد جراحهما وكان الاسوجيون يقاومون الدنيمركيين والروسيون ينازعون البولونيين والاتراك يشنون على اوروبا غاراتهم الاخيرة . اما انكلترا فكان لها مع فرنسا شأن سنرجع اليه بعد ان نصف ما جرى فيها من الحوادث الداخلية مدة حرب الثلاثين

ففي سنة ١٦٠٣ كان جاك السادس ملك اسكتلانده نجل ماري ستيوارت حفيد هنري السابع قد خلف اليصابات وجمع على رأسه تاجي انكلترا واسكتلانده لكن بدون ان يمزج الدولتين احداهما بالاخرى فترك السياسة البروتستانية التي عظمت بها صولة سالفته وسمى لمحالفة اسبانيا فتآمر الكاثوليك لاسترجاع المقام الديني الاول لهم في انكلترا وسمي تواطؤهم هذا بمؤامرة البارود (١٦٠٥) فقاومهم الملك نفسه كما قاوم البروتستان فانكسرت بذلك شوكته

حتى ان البرلمان الذي كان اطوع لاليصابات من بناتها عصاه ولم يحفل بوعيده ولم يرهبه منه. قبضه على خمسة من النواب طرحهم في برج لندره مسجونين (١٦١٤) بل رفض ما كان يطلبه من الاموال السد نفقاته الفاحشة فاخذ الملك يبيع وظائف البلاط والقضاء وأنشأ القاب شرف لبيعها ايضاً ولما انتشبت حرب الثلاثين سنة عقد برلماناً آخر على أمل ان يكون اطوع له من الاول فخاب ظنه ففض المجلس (١٦٢٢) واراد ان يزوج ابنه من أميرة اسبانية طمعاً في مهرها الجسيم فلم يفلح بذلك فزوجه أخت لويس الرابع عشر هنريت دي فرانس فلم يستحسن الشعب هذا القران بأميرة كاثوليكية . وفي سنة ١٦٢٥ توفي جاك الأول ومما يذكر له من الاعمال نشره قانوناً شهيراً سماه بالقانون الحقيقي للملكيات الحرة أثبت فيه ان سلطة الملوك ممنوحة لهم من الله لا من غيره وأسس نظام الاكايروس الانكليكاني . وكان مستوزراً رجلا يدعى بوكنهام لا خلاق له ولا فضيلة ولا حسن سياسة

﴿ فصل ﴾

﴿ في كارلوس الاول (١٦٢٥ — ١٦٤٩) ﴾

فاستوى على العرش مكانه كارلوس الاول وكان تقياً عنيفاً مشربا مبادئ الاستبداد من نعومة اظفاره . وقد ساء الامة منه انه

استوزر رجل أبيه بيكنهام ومن امرأته تقريبها للكاثوليك واحسانها اليهم . فلم يلبث النزاع ان عاد الى ما كان عليه بين الملك والبرلمان وكان البرلمان مؤلفاً من مجلسين الاعلى والادنى وأعضاء الاعلى من الكبراء وأعضاء الادنى من أهل الطبقة الوسطى ومن ابناء البيوتات الذين لا يرثون اباءهم . اذ الورثة كانوا الابكار دون سائر أخوتهم ولا يزال الشأن كذلك في انكلترا الى هذا اليوم . وكان المألوف ان يقرر البرلمان عوائد المكس التي يجوز تقاضيها مدة ولاية كل ملك جديد غير ان المجلس الادنى او مجلس العامة ابى ان يسمح هذه المرة بتقاضي عوائد المكس الا الى سنة واحدة فغضب كارلوس الاول وفضّ المجلس ثم عقد آخر في سنة ١٦٢٦ فطلب محاكمة بوكنهام ففضه أيضاً . وظن بوكنهام انه يسير باسطول لانجاد بروتستان فرنسا في ثغر روشل فيسترضي الامة عنه ولكنه عاد فشلا (١٦٢٧) فازدادت جرأة النواب واكرهوا الملك على القبول بلائحة دستورية وضعوها ثم أرسلوا اليه انذارين احدهما لانه كان يتقاضى المكس بدون موافقتهم عليه والآخر لانه كان مبقياً بوكنهام في منصبه على الرغم من الشعب ففض المجلس مرة أخرى . ولكن أحد المتعصبين قتل بوكنهام (١٦٢٨) فاستوزر كارلوس رئيس اساقفة لود ورجلا من الكبراء يدعى سترافورد وأخذ يدير معهما شؤون حكومته مستغنياً عن البرلمان

غير أنه بدونه كان لا يستطيع ان يجمع مالا فاخذ ينهب الاغنياء باعذار وحيل مختلفة . واتفق ان لود طعن على التعاليم الدينية في اسكتلانده فثارت (١٦٣٧) فأرسل سترافورد لتسكينها فأبى جنوده ان يقاتلوا الثائرين (١٦٤٠) فرأى الملك انه في اضطرار الى عقد برلمان خامس بعد ان حكم بالاستبداد احدى عشرة سنة (١٦٤٠) فقرر هذا البرلمان ان تكون الجباية على يده والسلطة القضائية بيده وان تلغى المحاكم الاستثنائية وان يكون انعقاد جلساته في مواقيت معينة وان ستافورد جان يستحق العقوبة بالاعدام فاعدم شنقاً (١٦٤١) وفي هذا الوقت ثار الايرلنديون ثورة هائلة ذبحوا فيها ٤٠٠٠٠ بروتستاني فطلب الملك مايجب من المال والعدة لقمع الثورة فاجابه البرلمان بالتعنيف والوعيد وقرر ان يكون الجيش تحت ادارته فحاول الملك ان يقبض على زعماء المعارضين في محل الاجتماع نفسه فلم يفلح فبرح لندره ليشرع في الحرب الاهلية (١٦٤٢) .

﴿ فصل ﴾

﴿ في الحرب الاهلية (١٦٤٢ — ١٦٤٧) ﴾

وكانت للبرلمان العاصمة والمدائن الكبرى والموانى والاساطيل وللملك القسم الاكبر من الشرفاء . وكان حزب الملك منتشراً في الشمال والجنوب وحزب البرلمان منتشراً في الشرق . والوسط

والجنوب الشرقي . فتقدم الملك من نوتنهام زاحفاً على لندره وكسر اعداءه في أدج هيل وورسستر غير ان البرلمانيين لم يلبثوا ان أسسوا فرقا جديدة تحت قيادة اوليفيه كرومويل وغيره فقهروا الملك في مارستون مور (١٦٤٤) ثم في نيوبري . وعند ذلك حالفوا الاسكتلنديين ثم استمروا يحاربونه بلا مهادنة الى ان سحق الجيش الاسكتلندي آخر جيش للملك في نازبي (١٦٤٥) فيئس ودخل معسكر الاسكتلنديين تسليما فباعوه للبرلمان باربعمئة الف دينار استرليني (١٦٤٧) .

وكان كرومويل المتقدم ذكره اعظم رؤساء الاحزاب المختلفة في البرلمان دهاء وبسالة وأشدهم رغبة في الجمهورية

﴿ فصل ﴾

﴿ في مقتل كارلوس الاول (١٦٤٩) ﴾

فلما قدم الملك الى لندره مأسوراً مال فريق البرسبيتاريين في البرلمان للمفاوضة معه ومسالمته فطردهم كرومويل من المجلس فبقي حزب الاستقلاليين هو السائد فيه فحكم على الملك بان يرفع أمره الى محكمة جنائية وهذه قضت عليه بان يقتل شنقا ونفذ حكمها في ٩ فبراير من سنة ١٦٤٩ . فنتج عن هذا القضاء الظالم ان انكلترا مالت الى الملكية

﴿ فصل ﴾

٭(في جمهورية انكلترا (١٦٤٩ — ١٦٦٠) وكروميل)٭

ونودي بالجمهورية في انكلترا فثارت ايرلنده واسكتلنده احداها لانها كاثوليكية والاخرى لانها تذكرت ان الملك اسكتلندي الاصل وانه قتل ظلما. فاخضع كروميل الاولى بحرب من أعظم الحروب شراً وأخضع الثانية بعد ان انتصر عليها في موقعتي رومبار وورسستر (١٦٥١). وكان أول عمل سياسي للبرلمان الجديد ان نشر لائحة الملاحة التي حظرت دخول الموانى الانكليزية على جميع السفائن التي تأتيها ببضاعة ليست من مصنوعات نفس البلدان التي تخصها تلك السفائن وقد بقي هذا القانون معمولا به في انكلترا الى سنة ١٨٥٠

وكان هذا القانون كما يظهر بالبداهة يقتضي انكلترا من توسيع نطاق صناعتها وبحريتها ويقضي على بحرية هولنده بالضعف والانحطاط لان معظم ايرادها كان من الموانى الانكليزية. ولذلك شهرت الحرب على بريطانيا العظمى . وحدث ان كروميل تكدر يوما من البرلمان فجاء غرفة الاجتماع مصطحباً جنوده وطرد النواب منها زاعماً «ان الله لم يكن معهم » فلما خرج أقفل جنوده الباب وكتبوا عليه «منزل للكراء » (٢٠ ابريل ١٦٥٣) ثم عاد فعقد برلماناً جديداً ثم عاد فقضه

ولقب نفسه باللورد الحامي للبلاد وكان مالكا بغير لقب الملك . وقد أحسن السياسة مدة استبداده بالامر فانه وطد الامن وانمى التجارة والصناعة في الداخل وكسر الهولند بين ثلاث مرار في الخارج وعاقب القرصان الافريقيين وأخذ من الاسبانيين جزيرتي جمايك ودنكرك وأخذ بنصرة البروتستان في كل مكان واستمال لويس الرابع عشر الى محالفته . وبعد ان حكم خمس سنين على هذه الصورة توفي (١٦٥٨) وخلفه ابنه ريكاردوس ثم ناء بالحمل فاعتزل ووقعت انكلترا في الفوضى فاخذ القائد مونك يمهد السبيل لارجاع الملكية وفض البرلمان الحاضر واستبدله بآخر اطوع له من بنائه اتفق فيه المحافظون والاحرار على اعادة آل ستيوارت بلا اشتراط شيء عليهم

﴿ فصل ﴾

﴿ في كارلوس الثاني (١٦٦٠ — ١٦٨٥ ﴾

فولي كارلوس الثاني واحسن السير في بادئ الامر لاقامته على المذهب الانكليكاني وتركه للبرلمان امتيازاته القديمة . ثم احتاج الى المال لكثرة ما كان ينفقه على الفواحش فحالف لويس الرابع عشر من أجل راتب عينه له وباعه مرديك ودنكرك وكلتاهما من فتوحات كروميل (١٦٦٢) ثم الجأه شعبه ان يدخل في محالفة لاهاي الثلاثية لصد غارة الفرنسويين عن هولنده (١٦٦٦) غير

انه لم يلبث ان خرج منها وباع نفسه للويس الرابع عشر فأجرى عليه راتباً سنوياً يبلغ مليوني فرنك الى ان توفاه الله .

على ان هذه السيئات لم تلبث ان أحدثت كدراً عند الامة فقام حزب في البرلمان في سنة ١٦٧٤ معارض للملك وكان ذلك عنوان ثورة جديدة مزمع حصولها وسنأتي عليها وعلى ما كان من بقية تاريخ كارلوس الثاني في فصل آخر . ويكفينا الان اننا تبينا الى هنا ان انكلترا كانت كاسبانيا والامبراطورية النمسوية في شغل عن لويس الرابع عشر وفي عجز عن مقاومة سلطته المتسعة.

الباب الرابع والستون

﴿ في لويس الرابع عشر من ١٦٦١ الى ١٦٨٥ ﴾

﴿ فصل ﴾

﴿ في كولبير ﴾

صرح هذا الملك حين وفاة مازارين انه سيحكم غير مستعين بكبير وزراء له واستمر على ذلك طول حياته . ولم يكن من ذوي العقول السامية والذكاء الفائق ولكنه كان ملكاً عظيماً من حيث احسن اختيار رجاله وعرف ان يسيرهم بما كان عنده من المزايا الجليلة ومن أعاظم رجاله وزيره كولبير الذي انجح التجارة والزراعة

والصناعة والبحرية انجاحاً عظيما . وقد وجد المالية مثقلة بالديون والايرادات مستوفاة عن سنتين آتيتين فاصلح هذه الحالة واستزاد الايراد ووضع الميزانية التقديرية ومنح الجوائز السنية لارباب الصنائع ووسع نطاق البحرية وفتح الطرق والترع وابتنى المواني وأسس خمس شركات كبيرة للتجارة في الهند والشرق والسنغال وغيرها . وفي سنة ١٦٦٢ جهز ثلاث مئة سفينة مختلفات الحجم وأوجد لها ٨٧ الف بحار . ومن مآثره بناء ميناء روشفور وتوسيع مينائي برست وطولون ومشترى دنكرك واستعمار جزائر الانتيل وأمريكا الشمالية .

﴿ فصل ﴾

﴿ في لوفوا ﴾

وفي الوقت نفسه كان لوفوا وزير الحربية فوضع الكساء الرسمي العسكري وجدد فرقاً مختلفة وأسس مدارس لتعليم المدفعية وأجرى تحسينات عسكرية من كل وجه وكان فوبان المهندس الكبير يحصن تخوم فرنسا تحت ادارته .

﴿ فصل ﴾

﴿ في حرب الفلمنك (١٦٦٧) ﴾

عند ما توفي فيليب الرابع ادعى لويس الرابع عشر أنه حقيق

بان يرث القسم الاسباني من هولانده فرشا انكاترا وهولنده لتلزما الحياد وفتحت جنوده مراكز الفلمنك الجنوبية في ثلاثة أشهر والفرانش كونته كلها في ١٧ يوما (١٦٦٨) فوقع الرعب في قلب الدول فعقدت هولنده وانكاترا وأسوج محالفة لاهاي وحملت الملك على التوقيع على معاهدة اكس لاشابل وتركت له بمقتضاها اثنتي عشرة مدينة (١٦٦٨)

وبعد ذلك باربع سنين نوى الملك فتح هولنده كلها فرشا انكاترا واسوج لتعتزلا وارسل على تلك البلاد مئة الف مقاتل (١٦٧٢) تحت قيادة كونده وتورين فاجتازوا الرين وفتحوا كل المراكز حتى اصبحوا على مقربة من امستردام وعند ذلك وقع تباطوء من الفاتحين فثار اهل البلاد وقتلوا حاكمهم جان ويت واقاموا مكانه غليوم دورانج ففتح الحويسات فهجم البحر على قسم كبير من البلاد وغرقه فاضطر الفرنسيون ان يتراجعوا . ثم عقد غليوم محالفة مع اسبانيا والامبراطور وكثيرين من الامراء الالمانيين وانكلترا فقاومت فرنسا الحلفاء في كل جهة واخضع الملك بذاته الفرانش كونته (١٦٧٤) وطرد تورين عساكر الامبراطور من الالزاس ثم قتل في العام التالي وانتصر كونده على الاعداء في موقعة سنيف الهائلة ثم اعتزل القيادة . وكان الاسبانيون قد دخلوا فرنسا من الشمال والنمسويون من الشرق فردهم الفرنسويون على اعقابهم وكان

دوكين وستراي في الوقت نفسه يهدم عمارة الهولنديين وينهب مستعمراتهم . ولما رأى لويس ان انكلترا دخلت في المحالفة على رغم ارادة ملكها وقع على معاهدة نيماج التي اخذ بمقتضاها فرانش كونته و ١٤ مركزاً فامنكيا واكره الدانمرك وبراندبورج على ما فتحتاه من املاك اسوج وخرجت فرنسا من هذه الحرب منتصرة على اوربا كلها بعيدة الاطراف والتخوم من الشمال والشرق بما كسبته من الاملاك الجديدة؛

﴿ فصل ﴾

﴿ في نقض منشور نانت (١٦٨٥) ﴾

وسكر لويس بخمرة نصره وعظمته فوجه نظره الى توحيد الدين في مملكته لانه كان لا يطيق ان تدين بدينين كما كان لا يطيق ان تكون فيها ارادة نافذة غير ارادته . فأرسل الواعظين والمبشرين يحولون البروتستان عن مذهبهم تارة بالملاينة وطوراً بالمجافاة وفي سنة ١٦٨٥ اصدر أمراً نقض به منشور نانت وحظر حرية الضمير والمعتقد على غير الكاثوليك فاخذ البروتستان بالهجرة من فرنسا الى اوربا فبرحها نحو ثلاثمئة الف نفس منهم ٩٠٠ بحار و ١٢٠٠٠ جندي و ٦٠٠ ضابط وسائرهم من أرباب الصناعات وأبرع المشتغلين بها حملوا الى خارج فرنسا اسرار فنونها التي كانت تستدر لها

الاموال من جميع الاقطار وكان هذا الخطأ اكبر خطأ ركبه ذلك الملك الكبير

الباب الخامس الستون

﴿ في ثورة انكلترا (١٦٨٨) ﴾

﴿ فصل ﴾

﴿ في بعثة الافكار الحرة في انكلترا (١٦٧٣—١٦٧٩) ﴾

أحدث نقض منشور نانت ثورة في انكلترا اسقطت عن العرش جاك الثاني ملكها الكاثوليكي وأقامت مقامه غليوم الثالث الكلفيني .

ولقد علمنا ان كارلوس الثاني كان قد جعل نفسه مأجوراً للويس الرابع عشر براتب سنوي غير ان انكلترا لم توافق على سياسة ملكها ففي سنة ١٦٦٨ حملته على محالفة الاسوجيين والهولنديين لانقاذ هولنده الاسبانية وفي سنة ١٦٧٤ حملته على ترك محالفة فرنسا والانقلاب عليها فنتج من ذلك عقد مصالحة نيماج وهذا الفشل الذي أصاب ملك انكلترا في سياسته اصابه ايضاً في المسألة الدينية فانه كان يظن به الميل الى الكاثوليك ولذلك قرر البرلمان « لائحة القسم » قاضية باجبار كل موظف ان يقسم عند

توليه منصبه انه لا يعتقد « بالاستحالة » واستمرّ هذا القرار نافذاً في انكلترا الى سنة ١٨٢٩ . وجرت على أثر هذه الخطة الجديدة اضطهادات فظيعة للكاثوليك . وفي سنة ١٨٦٥ خلف جاك الثاني أباه على أثر ثورة اراد بها حزب الاحرار ان يمنعوه من وراثة الملك بدعوى أنه كاثوليكي ففاز فيها عليهم وقتل كثيرين من زعمائهم ونفى كثيرين آخرين . ثم ثار عليه ابن أخيه والدوق دارجيل فانتصر عليهما وقتلهما ونكل بحزبهما وأرسل سفيراً رسمياً الى الفاتيكان لمصالحة انكلترا مع الكنيسة الكاثوليكية فاحتج على ذلك رئيس اساقفة كانتوربري فسجن في البرج وستة من أشياعه

﴿ فصل ﴾

﴿ في سقوط جاك الثاني (١٦٨٨) وتولي غليوم الثالث (١٦٨٩) ﴾

هذه الخطة التي جرى عليها الملك حملت حزب الاحرار على التآمر عليه خصوصاً وقد ولدت له امرأته الايطالية الكاثوليكية وليّ عهد في سنة ١٦٨٨ كان لا بد ان يربى كاثوليكياً . فتواطأوا غليوم دورانج حاكم هولنده صهر جاك الثاني على ان يقيدوه ملكاً على انكلترا . فلما رأى جاك انه متخلى عنه من الجميع فرّ الى فرنسا واقام البرلمان مقامه غليوم الثالث بعد ان جعله يوقع على لائحة عرفت بلائحة الحقوق مؤداها ان تاج الملك هبة من الامة وان

البرلمان يعقد في مواعيد مسماة وأنه يفرض الضرائب ويشارك الملك في سن القوانين وهلم جرا . وبعد ذلك بأشهر وضع لوك احد الذين كان يضطهدهم جاك الثاني القاعدة الاساسية التي استقرت عليها الحكومة الانكليزية وهي ان سيادة الامة والحرية هما المبدآن الشرعيان اللذان تقوم بهما كل حكومة وتدوم .

الباب السادس والستون

في تحالف الدول على فرنسا (١٦٨٨ — ١٧١٤)

فصل

في عصابة اوجسبرج (١٦٨١)

لما رأت الدول ما كان من كثرة مطامع لويس الرابع عشر بحيث اصبح لا يحسب حسابا لها وأخذ تارة يستولي على بعض المدائن في حالة السلم بدعوى أنها من ملحقات فتوحاته ومن ذلك أخذه عشرين مدينة احداها ستراسبرج (١٦٨١) وتارة يسيء معاملة البابا لانه أهان سفيره وطوراً يطالب بقسم من ولاية البالاتين الالمانية وآناً يسعى لامتداد نفوذه على وادي البو في ايطاليا تحالفت عليه تحت اسم عصابة أوجسبرج في سنة ١٦٨٦ أما انكلترا فلم تدخل في المحالفة الا في سنة ١٦٨٩

﴿ فصل ﴾

* في حرب عصابة اوجسبرج (١٦٨٩ — ١٦٩٧)*

فوجّه لويس اول ضرباته الى غليوم ذلك أنه احسن وفادة جاك الثاني وأعطاه اسطولاً وجيشاً احتلّ بهما ايرلنده غير أنه انهزم في موقعة بوين فرجع . ثم ان الملك أمر تورفيل ان يهجم بسفائنه الاربع والاربعين على تسع وتسعين سفينة انكليزية فانكسر الاسطول الفرنسوي بقرب هوغ (١٦٩٢) ومن ذلك اليوم أصبحت السيادة البحرية لانكلترا غير ان فرنسا وفقت في البر فتغلب لوكسنبرج على جنود الحلفاء في فلوروس (١٦٩٢) وفي ستينكرك (١٦٩٢) وفي نيروندن (١٦٩٣) . ثم استمال لويس دوق سافوى اليه بما رده اليه من أملاكه المنتزعة منه ففصله عن الدول المتحالفة فاضطرت الى القبول بمعاهدة ديسويك (١٦٩٧) وبها اعترف لويس بغليوم الثالث ملكا على انكلترا وأرجع لالمانيا الاملاك التي انتزعها منها في مدة السلم واستبقى له سان دومنج ولاندو وسان لويس .

﴿ فصل ﴾

(في حروب الخلافه الاسبانية (١٧٠١ — ١٤ ١)

كان كارلوس الثاني ملك اسبانيا آخر سليل من الاسرة النمسوية التي توارثت سرير هذه الدولة . وكانت ثلاث دول تستعد للتنازع

على خلافته وهي فرنسا والنمسا وبافاريا. فاما لويس الرابع عشر فكان يطالب بما لامرأته ماري تيريزا من الحق وأما ليوبولد الاول فكان يطالب بمثل ذلك لامرأته مرغريته الشقيقة الثانية لماري تيريزا وأما منتخب بافاريا فكان يطالب بمثل ذلك لحفيده القاصر الذي كان أيضاً حفيد مرغريته المتقدم ذكرها . وكان كارلوس الثاني اميل الى استخلاف هذا الصبي فمات الصبي فانصرف ميله الى استخلاف دوق انجو حفيد لويس الرابع عشر فلم يكن من هذا الملك عند ما لبس حفيده تاج اسبانيا تحت اسم فيليب الخامس الا انه أعان ان حقوق حفيده بوراثة عرش فرنسا محفوظة له فخافت اوربا من ان تجدد سلطنة شرلكان ذات يوم على يد آل فرنسا كما ساءها اعتراف لويس بجاك الثالث ملكاً على انكلترا بعد وفاة ابيه جاك الثاني وعدت ذلك خروجاً عن حدود معاهدة ريسويك (١٧٠١) فتحالفت ثانية في لاهاي وكانت المتحالفات انكلترا والولايات الهولندية المتحدة والامبراطورية الالمانية والبرتغال منضماً اليها نفس دوق سوافوى صهر فيليب الخامس . وعهدت ادارة المحالفة الى ثلاثة قواد عظام هم هينسيوس الهولندي ومارلبوروك زعيم حزب الاحرار في انكلترا والبرنس أوجين الفرنسوي الاصل احد الذين هاجروا الى النمسا. فلما انتشب القتال فاز دوق فاندوم (١٧٠٢) على البرنس أوجين في لوزارا وفاز فيلارس على جيش آخر امبراطوري في فريدلنجن وفي هوشستد.

وفي الوقت نفسه نزل مارلبوروك في هولنده الاسبانية والارشيدوق كارلوس في البرتغال وثار الكاميزار وهم طائفة من البروتستان في سيفين من أعمال فرنسا وأحدق الخطر بهذه الدولة من الداخل والخارج . وفي سنة ١٧٠٤ انكسر الفرنسويون في موقعة ثانية في هوشستد فاخرجوا من المانيا ثم في موقعة راميلي فاخرجوا من هولنده الاسبانية ثم في تورين فاخرجوا من ميلانو ومملكة نابولي (١٧٠٦) وفي سنة ١٧٠٧ دنا العدو من طولون فجمع لويس الرابع عشر جيشاً جديداً جراراً ليستوقف به الاعداء في هولنده الاسبانية فانكسر في أودنارد ثم حوصرت مدينة ليل فسلمت بعد شهرين (١٧٠٨) فطلب لويس عقد الصلح فاشترط عليه انه يطرد بنفسه حفيده من اسبانيا فابى وعبأ جيشاً آخر تحت قيادة فيلارس فانكسر في مالبلاكه بعد ان قتل منه ثمانية آلاف وقتل من الاعداء ٢٠ الفاً . غير ان فاندوم انتصر على المتحالفين في فيلافيسيوزا (١٧١٠) فكان هذا الانتصار تأييداً لفيليب الخامس على عرش اسبانيا وفي سنة ١٧١١ توفي امبراطور المانيا فخلفه أخوه الارشيدوق كارلوس فخافت الدول ان يجتمع على رأسه تاج اسبانيا وتاجا الامبراطورية ونابولي وفضلت ان يبقى فيليب الخامس ملكا على اسبانيا فأخذت انكلترا تفاوض فرنسا في شأن الصلح وبعد ذلك باشهر انتصر فيلارس على الجيش الامبراطوري في دينان

انتصاراً باهراً عجل عقد الصلح فوقعت عليه انكلترا والبرتغال وسافوى وبروسيا وهولنده في اوترخت(١٧١٣)

﴿ فصل ﴾

﴿ في معاهدتي اوترخت وراستاد (١٧١٣ — ١١٧٤) ﴾

يؤخذ من معاهدة اوترخت ان لويس الرابع عشر صدق على النظام الوراثي الجديد لملك انكلترا على أثر ثورة ١٦٨٣ وترك للانكليز الارض الجديدة وقبل بهدم حصون دنكرك وبأن لا يجتمع تاجا اسبانيا وفرنسا على رأس ملك واحد. وبأن يأذن لهولنده بوضع الحاميات في اكثر مراكز الولايات الاسبانية منها لتحميها من الوقوع في أيدي الفرنسويين . وأعطى دوق سافوى صقليا ولقب الملك . ومنح منتخب براندبرج لقب الملك على بروسيا . اما امبراطور المانيا فانفرد عن الباقين ارادة اتمام الحرب الى ان يملك على اسبانيا فانتصر الفرنسويون على جيوشه في لاندو وفريبورج فوقع على معاهدة راستاد (١٧١٤) وبمقتضاها كسب جانباً من املاك اسبانيا الخارجية والولايات المتحدة الهولندية الاسبانية ونابولي وسردينيا وميلانو وتوسكانا . على أن فرنسا خسرت خسارة كبيرة في هذه الحرب ولكن اسبانيا بفقدها أملاكها الهولندية اصبحت حليفة طبيعية لها فأمنت بذلك على تخومها الجنوبية وتعززت تخومها في الشمال الشرقي .

وبعد هذه الحوادث بقليل توفي لويس الرابع عشر (١٧١٥) وكان قد حكم مدة ٧٢ سنة حكما مطلقاً الى حد أنه كان يقول «انني أنا مملكتي »

الباب السابع والستون

﴿ في الصنائع والاداب والعلوم في القرن السابع عشر ﴾

﴿ فصل ﴾

﴿ في الاداب والصنائع في فرنسا ﴾

هذه جريدة أسماء المشاهير من الفرنسويين في ذلك العصر الذهبي . كورنايل وموليارو بوالو ولافونتين وبوسويه . ومدام دي سفينيه وراسين ولابرويار وفنلون وسن سيمون وبوردالو من الشعراء والكتاب والواعظين . وكازوبون وسكاليجر وسيوماز ودوكانج وبالوز وبايل والرهبان البندكتيون من الباحثين في العلوم والتاريخ . وباسكال من الكتاب والحكماء وديكارت صاحب فلسفة الطريقة وهي أساس النجاح والمدنية وقاعدة الحاضر والمستقبل فى الدنيا لصدق مبادئها وصحةمقدماتها ونتائجها وبوسين ولسيور وكلود لورين ولبرون من أمهر الرسامين وبوجه من أبرع النحاتين ومانسار وبيروات من أشهر المهندسين البنائين ولولي من كبار الموسيقيين .

﴿ فصل ﴾

﴿ في الآداب والصنائع في الامصار الاخرى ﴾

كانت ايطاليا والمانيا واسبانيا في انحطاط وقد ظهر في اسبانيا لوب دي فيجا وكالديرون وسرفانتس من الكتاب

وأما انكلترا فقد كان ذلك العصر عصرها الذهبي أيضاً اذ نبغ فيه شكسبير وملتن ودريدن وأديسون من أعظم الشعراء والادباء. وهوبس ولوك من المتفلسفين الكبار. وظهر في امستردام الفيلسوف اليهودي الشهير سبينوزا وفي ليبزيك من المانيا العلامة ليبنتس .

اما الصنائع فكان السبق فيها لهولنده والفلمنك فقد ظهر فيهما روبنس وفانديك ورامبرند وتنيه وأخوه وظهر في اسبانيا فيلاسكش وموريليو وريبرا وفي ايطاليا لوجيد ولوبرنين واما انكلترا والمانيا فلم يكن فيهما صانع يخلق بالذكر.

﴿ فصل ﴾

﴿ في العلوم في القرن السابع عشر ﴾

علمنا ان القرون القديمة والمتوسطة ذهبت كل مذهب في ميادين الفكر والنظر والتصور ولكن كانت على جهل من حيث العلم التحقيقي الوضعي

ودامت الحال كذلك الى ظهور كوبرنيك في القرن السادس عشر فكان الاول والآخر في زمانه ولكنه ظهر في القرن السابع عشر كبلر الورتنبرجي الذي أثبت صحة ما علمه كوبرنيك من أن السيارات تدور حول نفسها وحول الشمس . ثم غاليله البيزي الذي قال بدوران الارض فعاقبه التفتيش الاستبدادي الكاثوليكي بالسجن والتعذيب على اكتشافه (١٦٣٣) ثم نيوتن الانكليزي الذي اكتشف النواميس الاولى للنور وللجاذبية العامة. ثم ليبنتس مكتشف حساب الفروق ثم باسكال مكتشف حساب الخطأين ثم ديكارت الشهير ثم بابين مكتشف قوة البخار المحركة ثم رومر مكتشف سرعة النور ثم هارفي مكتشف دورة الدم ثم كاسيني وبيكار اللذين أسسا هاجرة باريس ثم توريشلي صاحب مقياس الحرارة على وضع يختلف عن مقياس غاليله ثم هويجنس مخترع الساعة ذات الرقاص .

ومما تقدم يظهر ان السبق في هذا القرن كان لفرنسا ثم لانكلترا وتليهما سائر الدول من بعيد .



الباب الثامن والستون

﴿ في نشأة روسيا وانحطاط اسوج ﴾

﴿ فصل ﴾

﴿ في دول الشمال في أول القرن السابع عشر ﴾

بينما كان أهل وسط اوروبا وغربها يتقدمون ذلك التقدم السريع الذي وصفناه كان السلافيون والسكنديناڤيون في ظلمات من الخمول والجهل والهمجية استمروا فيها الى ما بعد فتح المغول لروسيا ففي ذلك العهد تعززت بولونيا بانتصارها المتوالي على المغول ثم اسوج بظهورها في مدة غوستاف ادولف على الالمانيين والبولونيين والروسيين . وفي منتصف القرن الثامن عشر كان البلطيك لا يزال بحيرة أسوجية محاطة بمراكز حصينة غير ان السيادة الاسوجية عليه كانت سريعة العطب والزوال لما كان حواليه من الاعداء المتهيئين لاقتسامه . وكانت اذ ذاك بولونيا لا تزال ممتدة من جبال كربات الى البلطيك ومن الاودير الى منابع الدنيابر والفولكا غير ان حكومتها الفوضوية ومالكيتها الانتخابية كانتا مضعفتيها وفاتحتي أبوابها لكل طارق من الاعداء . وفي الزمن الذي نحن في صدده كان منتخب ساكس هو الملك عليها . أما الروسيون فكان الاسوجيون والبولونيون ودوق قورلانده يحولون دون وصولهم

الى البلطيك الجنوبي وجمهورية القوقافيين الباساين التابعين بالاسم لبولونيا تفصلهم عن البحر الاسود كما تفصلهم عنه أيضاً جماعة من القبائل التترية . ولما سقطت جمهورية نوفوغورود في سنة ١٤٧٦ انفتحت لهم مسالك المحيط المتجمد وشمالي البلطيك . ثم أفنوا تتراستراكان ووصلوا الى بحر قزبين . وفي سنة ١٦٥٦ عقدوا مع البولونيين معاهدة ويلنا التي خطوا بها أول خطوة نحو اوربا حيث أدخلوا في أملاكهم سمولنسك ونشيرنكوف واوركين . وحين تولى ايوان الثالث منع تقسيم أملاك التاج بين أعضاء عائلته وترك تلك العادة جارية في بيوتات الشرفاء ليضعفوا بها . ثم خلفه ايوان الرابع الملقب بالشديد فنكل بالشرفاء تنكيلا وأصدر في سنة ١٥٩٣ أمراً بجعل جميع الفلاحين ارقاء لازمين للارض التي يوجدون عليها لا يستطيعون ان ينتقلوا من تبعية سيد الى تبعية آخر .

﴿ فصل ﴾

﴿ في بطرس الكبير (١٦٨٢) ﴾

وفي سنة ١٦٨٢ لقب بطرس بالقيصر وكان في العاشرة من عمره . فلما شب تاقت نفسه لزيارة اوربا واقتباس فنونها فزار ساردام بهولنده ليتعلم كيف يبني مركباً ثم انكلترا ليستطلع احوال الصناعة فيها ثم المانيا لمشاهدة نظاماتها الحربية . وبينما هو في ويانه علم

بثورة قام بها جيش الحرس القيصري فهرع الى موسكو وقتل منهم ٥٠٠ وسجن الفين . ثم أسس الفرق المنظمة وحمل اولاد الكبراء على الخدمة فيها جنوداً قبل أن يصيروا ضباطاً وشيد المدارس للحساب والفلك والبحرية وشرع في حفر ترعة من الدون الى الفولكا غير ان احدى الحوادث العظيمة كفّته عن هذا العمل العظيم .وذلك ان ملك اسوج كارلوس الحادي عشر توفي فظنت روسيا والدانمرك وبولونيا ان تلك فرصة لاقتسام البلطيك (١٧٠٠) ولكن كارلوس الثاني عشر مع حداثة سنه وكان لا يتجاوز الثامنة عشرة أراهم تحقيق ما قيل فيه من انه « ان لم يكن الاسكندر بذاته فهو أول جندي بين جنود الاسكندر » فانه هجم على الدانمرك ليغزوها ثم زحف بثمانية آلاف اسوجي على ثمانين الف روسي فردهم على أعقابهم وطرد السكسونيين من ليفونيا ولحق بهم الى ساكس فخلع أغسطس الثاني وأجلس مكانه على العرش ستانيسلاس لكزينسكي (١٧٠١ — ١٧٠٦) . وفي هذه الاثناء الف بطرس جيشاً كبيراً على مثال الجيوش التي رآها في اوربا وفتح انجريا وكاريليا وأسس بطرسبرج (١٧٠٣) ليستولي بها على خليج فنلانده ولما فرغ كارلوس الثاني عشر من أعماله التي ذكرناها قصد بطرس لمحاربته غير انه ضلّ سبيلا في مستنقعات بنسك عن القائد القوقافي مازيبا الذي كان قد وعده بانجاده بمئة الف مقاتل .فانتهز بطرس

هذه الفرصة وأوقع بمازيبا على انفراد ثم بنجدة اسوجية كانت آتية لامداده . وحدث ان شتاء سنة ١٧٠٩ كان شديداً فأتم شقاء كارلوس الثاني عشر حيث أدركه الروسيون في بولتاوا (١٧٠٩) فالجأوه الى الفرار مع خمسمئة من خيالته فذهب الى بندر وحرض الاتراك على الروسيين فأرسلوا مئة وخمسين الف مقاتل فاجتازوا الطونه وحصروا بطرس في معسكره ببروث وكادوا يقبضون عليه لولم يكفهم عنه الصدر الاعظم لرشوة أخذها منه . فتعهد القيصر بتسليم ازوف واجلاء عساكره عن بولونيا . وكانت هذه المعاهدة أشبه بانكسار جديد لكارلوس الثاني عشر غير أنه استمر مع ذلك ثلاث سنين في بلاد الاتراك وفي سنة ١٧١٤ عاد قاصداً اسوج وكانت الدول قد اقتسمت اسلابها فاشترى جورج الاول ملك انكلترا بريم وفردين وأخذ ملك بروسيا بريم وستاتين وشرع في حصار ستراسلند وعندذلك دخلها كارلوس الثاني عشر ودافع عنها شهراً ثم ذهب منها الى اسوج فقتل غدراً في حصار فريدريكشال (١٧١٨) وترك بلاده معيبة منهوكة ضعيفة . أما بطرس فلم يمنح الصلح في نيستاد (١٧٢١) للاسوجيين الا وقد تنازلوا له عن ليفونيا واستونيا وانجريا وقسم من كاريليا وقسم من بلاد فيبورج وفنلانده وهكذا انحطت اسوج وارتفعت روسيا.

وفي سنة ١٧١٦ سافر القيصر ثانية الى الغرب فزار فرنسا

وعرض عليها ان يحالفها فأبى الكردينال دوبوا ان يجيبه الى ذلك بايعاز من انكلترا . ولما عاد بطرس الى مملكته افادتها رحلته الثانية بقدر ما أفادتها الاولى فانه أتاها بالصناع في كل فن وبالمهندسين وأقام فيها المعامل ومصاب المعادن . ووحد الموازين والمقاييس وأسس محكمة تجارية وفتح مناجم سيبيريا للمعدنين ومهد الطرق لاجتلاب الغلال من الصين وايران والهند وأسس المجمع المقدس وخوله السلطة الدينية العليا بعد ان كانت للبطريرك على انفراده . واذ رأى ان ابنه الكسيس مخالف لهذه الاصلاحات استصدر عليه حكماً بالاعدام وقتله وأهلك جمهوراً من أنصاره وأدب الامبراطورة اودوكسيا ضرباً بالسوط. وفي سنة ١٧٢٥ توفي على أثر ماركبه من الفواحش

الباب التاسع والستون

(في نشأة بروسيا وانحطاط فرنسا والنمسا)

﴿ فصل ﴾

(في نيابة دوق اورليان عن الملك و وزارات دوبوا وذوق)

— بوربون وفلوري (١٧١٥ — ١٧٤٣) —

عند ما قبض لويس الرابع عشر الى ربه كان خلفه في الخامسة

من عمره فأقام البرلمان دوق اورليان وصياً على الملك فاستوزر استاذه الكردينال دوبوا فاخذ يحالف انكلترا ويعادي اسبانيا فنوى عند ذلك الكردينال البيروني وزير فيليب الخامس ان يحرض الاتراك على النمسا ليحتلوها ويثير مؤامرة في فرنسا لاسقاط الوصي ووزيره ويرجع آل ستيوارت الى انكلترا بسيف كارلوس الثاني عشر غير أن البرنس اوجين غلب الاتراك في بلغراد (١٧٧١) ومؤامرة سلامار في فرنسا لم تفلح وكارلوس الثاني عشر هلك في نروج . ثم هدم الانكليز الاساطيل الاسبانية بقرب مسينا ودخل الفرنسويون نافاريا وخرجت أسبانيا مستضعفة من هذه الحرب . ومن أهم ما أتاه الوصي مدة حكمه انه استعان برجل مالي شهير يدعى لاو لسد العجز الفاحش الذي تركه لويس الرابع عشر في الميزانية فأنشأ شركة الهند فنجحت نجاحاً تاماً في أول أمرها ثم سقطت فضمها الى بنك فرنسا لتستمر في مركزها ويمتنع الخراب والافلاس فسقطت هي والبنك جميعاً وفر لاو تلعنه عامة الناس لما أضاع عليهم من أموالهم باحتياله وغشه

وفي سنة ١٧٢٣ توفي الوصي ودوبوا فتولى الوزارة بوربون وأهم عمل قام به انه زوج لويس الخامس عشر من ابنة ستانيسلاس لكزنسكي (١٧٢٥) الذي أقامه كارلوس الثاني عشر ملكا على بولونيا ثم لم يلبث ان خلع . وخلف بوربون في الوزارة فلوري

أسقف فريجوس أستاذ الملك فبذل قصارى جهده في اصلاح حال المالية وتوطيد السلام في أوروبا ولكنه أضعف بحرية بلاده باجابته انكلترا الى كل المطالب المضرة التي كانت تعرضها عليه . ولما توفي اغسطس الثاني ملك بولونيا انتخبت أكثرية أهلها ستانيسلاس لكزنسكي وكان الروسيون يريدون تعيين منتخب ساكس (١٧٣٣) فاضطر ملك فرنسا ان ينجد صهره ولكنه بعث اليه عدداً قليلاً من الجنود فغلبوا جميعاً وأتى لكزنسكي الى فرنسا (١٧٣٤) فأراد فلوري ان يمحو هذا العار وحالف سافوى واسبانيا لاخراج النمسا من ايطاليا فانتصرت جنود الحلفاء في بارمه وغواستالا وأكرهت الامبراطور على التوقيع على معاهدة ويانه (١٧٣٣) التي أعطيت بمقتضاها دوقية لورينه استانيسلاس على ان تأول بالارث عنه الى تاج فرنسا وأعطي دوق لورينا توسكانا وأعطي دون كارلوس ولي عهد اسبانيا صقليا ومملكة نابولي. ثم ان فرنسا انتصرت لتركيا في معاهدة بلغراد (١٧٣٩) فمنحتها الصرب بموجبها وبعد هذا الفوز على النمسا عادت ذات النفوذ الاول في أوربا .

﴿ فصل ﴾

(في نشأة بروسيا)

في سنة ١٤١٧ اشترى فريدريك هوهنزولرن صاحب نورمبرج

من الامبراطور مارغرافية برندبورج وأصبح بذلك احد المنتخبين في المانيا . ثم قام من بعده ابنه البرت (١٤٦٩) فاصدر أمراً بان كل ما يستزيده ذووه في المستقبل من الاملاك يضم الى الانتخابية وان الانتخابية لا تقبل التقسيم . وفي سنة ١٦١٨ استزاد هذا البيت دوقية بروسيا وفي سنة ١٦٢٤ دوقية كليف وكونتيني مارك ورافنسبرج وقد رأينا في معاهدة وستفالي ان صاحب هذه الانتخابية الكبرى احتل مجدبرج وقسما من بوميرانيا (١٦٤٨) . ولما تولى فريدريك غليوم انتصر لهولانده على لويس الرابع عشر وكسر الاسوجيين في نهربلين فكان ذلك أساس شهرة الجيش البروسي . وهو الذي شيد برلين ووطن فيها وفي البقاع غير المأهولة من أملاكه عدداً عظيما من الهولنديين والفرنسويين الذين أخرجهم من بلادهم نقض منشور نانت . ثم خلفه ابنه فريدريك الثالث فاشترى من الامبراطور لقب الملك وتوج نفسه في كنيغسبرج (١٧٠١) وكان لا يزال معدوداً كسائر المنتخبين بالنظر الى المانيا . ثم خلفه فريدريك غليوم الاول (١٧١٣) فأسس الجيش البروسي وكان يبلغ ٨٠ الف مقاتل وقضى عمره في ترويض عساكره وتمرينهم ولم يقم بعمل يذكر سوى أنه فتح بقية بوميرانيا .

﴿ فصل ﴾

(في ماري تريزا وفريدريك الثاني وحرب السبع السنين ١٧٤١-١٧٤٨)

رأينا ما كان من انحطاط النمسا على أثر الصدمات التي لقيتها من بروتستان المانيا بمساعدة الاسوجيين ومن الاتراك ومن الفرنسويين الا ان البرنس اوجين الفرنسوي الاصل انقذها بانتصاره على الاتراك في زانتا (١٦٩٧) وفي بتروارادين (١٧١٦) وفي بلغراد (١٧١٧) كما أن حرب خلافة اسبانيا وسعت نطاق أملاكها بضم هولنده الاسبانية وبلانس وبارمه اليها . وفي سنة ١٧٤٠ توفي الامبراطور كارلوس السادس فانقرضت به سلالة هبسبورج من الذكور فقام الخلاف على وراثته بين ملك اسبانيا ومنتخبي بافاريا وساكس وملك سردينيا وفريدريك الثاني ملك بروسيا. فقاومتهم ابنته ماري تريزا وانضمت فرنسا الى ملك بروسيا وانكلترا الى الامبراطورة .

وكان فريدريك الثاني منقطعاً للاشتغال بالادبيات الى ان انتشبت تلك الحرب فظهر لاوربا بمظهر أعظم قواد عصره من أول حملة حملها فانه انتصر انتصاراً باهراً على ابطال البرنس أوجين في مولويتس وفتح سيلازيا . وكان الفرنسويون في تلك الأثناء قد دخلوا بوهيميا ودوق بافاريا قد توج نفسه امبراطورا . غير ان ماري تيريزا لم تلبث ان جهزت جيشاً جديداً كانت تنفق عليه من مال انكلترا وأرسلته الى براغ لحصر الفرنسويين فيها فتراجعوا وانجلوا عن بوهيميا فاسترجعها النمسويون وهجموا على بافاريا لحمل

فريدريك السلاح ثانية ودخل بوهيميا منتصراً وعقد معاهدة درسد التي أبقت له سيلازيا . وتمكن في هذه الاثناء كارلوس السابع من الرجوع الى مونيخ وأرسل ابنه يفاوض ماري تيريزا في أمر الصلح (١٧٤٥) فعند ذلك لم تبق لفرنسا مصلحة في مداومة الحرب الا لتصل الى المسالمة بطريقة تشرفها فانتصر قائدها المارشال دي ساكس على أعدائه في روكو ولوفلد وما يستريخت ثم أرسلت روسيا ١٠٠٠٠ جندي روسي لتأييد الفرنسويين فانتهت هذه الحرب بمصالحة اكس لاشابل (١٨٤٨) وفيها تعهد الفرنسويون والانكليز بان يرد بعضهم للبعض مافتحه كل فريق من أملاك الآخر . وكانت فرنسا فائزة في البر الا انها خسرت بحريتها وأضاعت فرصة استعمار الهند التي كان دوبلكس قد مهد لها طريق الاستيلاء عليها .

﴿ فصل ﴾

(في حرب السبع السنين الثانية ١٧٥٦ — ١٧٦٣)

فبادرت فرنسا الى تجديد عمارتها وتوسيع نطاق تجارتها فخافت انكلترا من سرعة نهضتها وأسرت سفائنها بدون اعلان حرب (١٧٥٥) ثم جبنت عن مداومة الحرب البحرية مع فرنسا فبذلت المال لاية دولة تشاء محاربة عدوتها براً فقبلت ذلك بروسيا

فتحالفت فرنسا وروسيا والنمسا عليها فأسرع فريدريك وفتح ساكس ثم بوهيميا فأرسلت فرنسا جيشين الى المانيا احدهما انتصر والاخر انكسر (١٧٥٧) ودارت رحى الحرب من كل جانب فبقي فريدريك بضع سنين مقاوماً لفرنسا والنمسا وروسيا واسوج والتقى جيشه بجيوشها في ثماني مواقع الى ان خارت قواه في سنة ١٧٦١ وكاد ملكه يقتسم فاتفق ان توفيت في تلك السنة اليصابات القيصرة وخلفها بطرس الثالث وكان معجباً ببسالة ملك بروسيا فاستعاد جنوده فاستأنف فريدريك الحرب وفاز على أعدائه واستبقى سيلازيا. أما فرنسا فلم تمس براً ولكنها فقدت بونديشيري وكويبك من مستعمراتها وخسرت بحريتها وقبلت بمعاهدة باريس (١٧٦٣) فكانت النتيجة من هذه الحرب الثانية ارتفاع بروسيا براً وانكلترا بحراً واذلال النمسا وانحطاط فرنسا . أما بروسيا ففقدت فيها مليون نفس والتهمت النار ١٤٥٠٠ من منازلها . وبعد أن أسس فريدريك مملكته على حدود السيوف أخذ يصلح شؤونها الداخلية فجفف المستنقعات وابتنى الجسور والسدود والمعامل واحتفر الترع وأقام بنكاً عقارياً وعمم المعارف ورقى نظامات القضاء والادارة .وفي سنة ١٧٧٢ أتم تقسيم بولونيا كما سنرى ذلك بعد قليل وفي سنة ١٧٧٧ اكره النمسا على ترك بافاريا مع انها اشترتها بمالها عقيب وفاة آخر منتخبيها وبذلك نصب نفسه بمنصب الحامي للامبراطورية الالمانية

عوضاً عن النمسا ومهد لخلفه طريق ضمها الى تملكته من بعده

الباب السبعون

﴿ في قوتي انكلترا البحرية والاستعمارية ﴾

﴿ فصل ﴾

﴿ في انكلترا من سنة ١٦٨٨ الى سنة ١٧٦٣ ﴾

ان ثورة ١٦٨٨ أحيت الحرية الوطنية والدينيـة في داخـل انكلترا وسودت بحريتها في الخارج على بحريتي فرانسا وهولانده ولما حدثت حرب عصابة اوجسبرج ثم حرب خلافة اسبانيا انتشرت سفائن الانكليز في المحيط كله. وفي سنة ١٧٠٢ توفي غليوم الثالث فخلفته الملكة حنة ثانية بنات جاك الثاني فألفت برلمان ادمبرج وضمت من ذلك اليوم اسكتلنده الى انكلترا ضما تاماً واستمرت الى سنة ١٧١٠ تحكم على يد الاحرار وتقاوم سياسة لويس الرابع عشر وقد رأينا انتصار قائدها مارلبروك على الفرنسويين في هوشستد واودنارد وراميلي ومالبلاكه. وفي سنة ١٧١٠ سقطت وزارة الاحرار وخلفتها وزارة المحافظين فعقدت مع فرنسا صلح اوترخت (١٧١٣) ثم توفيت الملكة فمنح البرلمان التاج لجورج دي برنسويك منتخب هانوفر (١٧١٤) وكان لا يعرف كلمة

من الانكليزية ولا بنداً من بنود الدستور الانكليزي فأخذ يحكم على يد وزيره روبرت والبول رئيس الاحرار وكانوا قد أسقطوا المحافظين وقاموا مقامهم الى سنة ١٧٤٢ . ثم سقطوا عند بدء الحرب لخلافة النمسا وقام بعدهم المحافظون وفي أثناء هذه الحرب نهض كارلوس ستيوارت يطالب بسرير آبائه (١٧٤٥) فأحدث دماراً كثيراً في انكلترا ثم دارت عليه الدائرة وفي ذلك الزمن ظهر النائب الشهير وليم بيت الذ عدو لفرنسا ثم لم يلبث ان أصبح وزيراً اول فأدار حرب السبع السنين على فرنسا بمهارة وثبات عجيبين . وفي خلالها أفقد فرنسا بحريتها ومستعمراتها . وعند وفاة جورج الاول سنة ١٧٢٧ خلفه جورج الثاني وتوفي سنة ١٧٦٠ وكلاهما ملكا ولم يحكما بل كان الامر للنواب يستمده الوزراء الاحرار أو المحافظون منهم والملك يوقع على ما يعرضه عليه وزراؤه وذلك ما جعل انكلترا ثابتة في سياستها قوية عزيزة الجانب مدة قرنين كاملين وحدث أن ملكها جورج الثالث اصيب بمس في عقله جملة مرار في خلال عهده الطويل الذي طال ٦٠ سنة (١٧٦٠ — ١٨٢٠) فلم يتأثر من ذلك سير الحكومة في انكلترا أقل تأثر .

﴿ فصل ﴾

(في الشركة الانكليزية للهند الشرقية)

هذه الشركة تألفت في عهد الملكة اليصابات وحصلت من المغولي

الكبير (١٦٥٠) على الاذن بالاتجار في بنغال وفي سنة ١٦٩٠ شيدت مدينة قلقوطه. غير ان المراكب الحربية الفرنسوية لم تلبث ان أضعفت تلك الشركة بمساعدة الامبراطور المغولي وحملت التجارة الانكليزية خسارة ٦٧٥ مليونا في أثناء حرب عصابة أوجسبرج.

وفي سنة ١٧٠٧ توفي الامبراطور أورنج زيب فظن الانكليز انهم ينتهزون الفرصة لتأييد سلطتهم في الهند غير ان كولبير أنشأ في سنة ١٧٢٣ شركة مناظرة لشركتهم وكان يديرها دوبلكس الذي حولها الى حكومة قوية ذات حصون ومعامل أسلحة وجيوش وأرض مساحتها ٩٠٠ كيلو متر تمتد من رأس كامورين الى كريشنه واستمر دوبلكس ثلاثين سنة مطلق الحكم على ثلاثين مليونا من الهنود غير ان لويس الخامس عشر لم يلبث ان استرجعه الى فرنسا. فمات فيها فقيراً وأخذ الانكليز مكانه واحتذوا على مثاله فنجحوا نجاحاً تاماً ولم يبقوا لفرنسا في الهند الا بونديشيري.

وحدث بعد وفاة أورنج زيب ان السوبابين أو الامراء والنابابين أو الولاة انقسموا وحاول كل منهم ان يستقل فاخذت شركة البنغال الانكليزي تنتشر بسهولة ولم تصادف معارضة الا في دقهان فان الامير حيدر علي المسلم صاحب ميسور وابنه تيبوساهب حارباها من سنة ١٧٦١ الى ١٧٩٩ ثم بقي الفوز للشركة وأخذت من

سنة ١٧٩٩ الى ٨ ١٨ تحارب المهرانيين حتى أخضعتهم . وفي سنة ١٨٤٦ فتحت البنجاب أو بقعة الانهار الخمسة ثم فتحت البقاع الواقعة وراء الكانج في الشمال الشرقي ليكون لها منها سبيل الى الصين وفي سنة ١٨٤١ حاولت ان تستولي على الشمال الشرقي من جبال افغانستان لتقابل الروس فيه فلم تفلح . وفي سنة ١٨٥٨ تنازلت الشركة للمملكة الانكليزية عن فتوحاتها في الهند وهي لا تقل مساحة عن أوربا الغربية كلها عدا روسيا فالانكليز اليوم يحكمون على مئتي مليون هندي .

الباب الواحد والسبعون

﴿ في تأسيس الولايات المتحدة الاميركية (١٧٨٣) ﴾

﴿ فصل ﴾

(في أصل الجاليات الانكليزية التي قطنت امريكا)

كانت الجماعات والافراد من الذين يضطهدون في انكلترا بسبب الدين يفرون الى امريكا الشمالية ويعيشون فيها بحرية الضمير والمعتقد وكان كل فريق من المهاجرين يستوطن بقعة فالكاثوليك اختاروا ماريلاند والبروتستان أهل البدع المختلفة عن المذهب السائد في بريطانيا العظمى اختاروا البقعة التي سميت بانكلترا الجديدة

وهلمّ جرا وكانت كل مستعمرة ذات جمعية شوروية تدير شؤونها

﴿ فصل ﴾

(في حرب امريكا (١٧٧٥ — ١٧٨٣)

عند ما انتهت حرب السبع السنين أرادت الوزارة الانكليزية ان تحمل المستعمرات قسما من ضرائب المملكة فقرضت على امريكا رسم استعمال الطوابع وعوائد على الزجاج والورق والشاي (١٧٦٧) فأبى سكانها ذلك بناء على البند الدستوري الانكليزي القاضي بان لا تؤخذ أموال من بلدة الا مايقرره نوابها . وهلم يكن لهم نواب في البرلمان البريطاني ثم تعاهد سكان ٩٦ مدينة منهم على ان لا يشتروا بضاعة انكليزية مادامت الحكومة لا تجيبهم الا ما طلبوه في احتجاجهم من تعيين نواب لهم وفي سنة ١٧٧٤ ألقى بعض المتعصبين محمول ثلاث سفائن انكليزية في البحر وبعد ذلك بأشهر كان ابتداء الثورة ثم انعقد مجتمع فيلادلفيا في ١٤ يوليو من سنة ١٧٧٦ وأعلن استقلال المستعمرات الثلاث عشرة واتحادها مع بقاء كل منها على حريتها السياسية والدينية .

﴿ فصل ﴾

(في واشنطن واشتراك فرنسا في الحرب وعصابة أهل الحياد)

ونصب واشنطن احد كبار مزارعي ويرجينيا قائداً عاما

للثائرين وكان الرجل الذي يحتاج الى مثله في مثل هذه العظائم لما كان عليه من البسالة وعدم الاستخفاف لدى النصر والجبن لدى الانكسار . فأرسل الانكليز ١٧٠٠٠ مقاتل اكثروهم من الامراء الالمانيين لمحاربته فأفقدوه نيويورك وفيلادلفيا غير انه احتفظ بمدينة هو في الشرق واستطاع بها ان يرد هجمة بورغوين عليه مع جيش أتى به من كندا لانجاد الانكليز ثم حصره في ساراتوغه (١٧٧٧) ودحره وكانت فرنسا قد ارسلت أسطولا لمساعدة امريكا فقاتل الاسطول الانكليزي لى آخر الحرب دون ان يفوز أو يفاز عليه وكذلك أرسلت فرنسا جيشاً بقيادة روشامبو ولافايت فاضطرا كورنواليس ان يسلم لهما مدينة يورك تون . وبعد قليل انضمت أساطيل اسبانيا وسائر الاساطيل الثانوية الى أسطول فرنسا وتألفت من جميعها « عصابة أهل الحياد » بحجة ان تؤمن طريق السفن التي لا تهرب أدوات للحرب فضاقت انكلترا ذرعا عن اتمام القتال ووقعت على معاهدة فرسايل التي ردت الى فرنسا بعض مراكزها الاستعمارية المسلوبة عدا كندا وأثبتت استقلال الولايات المتحدة (١٧٨٣).

ولم يمض نصف قرن على استقلال الولايات المتحدة حتى أخذت تناظر انكلترا في تجارتها البحرية . اما واشنطن فبعد ان انتهت الحرب فرق جنوده وكانوا لا يريدون الانفكاك عنه وعاد

الى بلدته ايعيش كسائر الناس الى ان دعاه قومه في سنة ١٧٨٩ لتولي الرئاسة عليهم وانقاذهم بحسن سياسته من ورطة وقعوا فيها كما أنقذهم قبلها بسيفه وبسالته فاستلم أزمة الحكم مرتين ثم رجع الى عزلته وفي سنة ١٧٩٩ أدركه أجله وقد ترك في الدنيا أطهر ذكر وأشرف اسم بين أسماء المشاهير من أهل الازمان الحديثة .

الباب الثاني والسبعون

﴿في اقتسام بولونيا وانحطاط تركيا وارتفاع روسيا﴾

﴿فصل﴾

﴿في كاترينه الثانية (١٧٦١) وفريدريك الثاني وتجزئة بولونيا للمرة الاولى (١٧٧٣)﴾

كانت بولونيا بما هي عليه من تولي ملوكها بالانتخاب وفوضوية الشرفاء والمنازعات الدينية مقضيا عليها اما بالفناء او باصلاح هذه الحالة . ولكن جيرانها حالوا دون اصلاحها وتآمرت روسيا وبروسيا سراً على اقتسامها . غير ان القيصرة كاترينه الثانية التي كانت أفضل خلف لبطرس الاكبر بدهائها وحسن سياستها طاولت في الامر على أمل أن تغنم الغنيمة وحدها بعد حين . وكانت كاترينه هذه قرينة بطرس الثالث حفيد بطرس الكبير وقد أماتت زوجها

خنقاً لتملك مكانه . فلما رأت ان مجلس نواب بولونيا قرر اضطهاد « المنشقين » ويعني بهم الروم غير الكاثوليك جعلتهم تحت حمايتها فتحالف الكاثوليك ليقاتلوا المنشقين وقتل الفلاحون سادتهم وغرقت بولونيا بدمآء أهلها فدخلها الروسيون وانتشروا في كل جوانبها وأتاها البروسيون من الغرب والنمسويون من الجنوب.واذ كانت فرنسا لا تستطيع انجاد بولونيا حركت الاتراك على كاترينه فدمرت اسطولهم واحرقته في جشمه وأخذت جانباً من ولاياتهم فهال فريدريك الثاني ذلك الفوز العظيم ودعا كاترينه الى استئناف الكرة على بولونيا منذراً لها بان يحالف النمسا لمحاربتها ان لم تفعل فابته على الرغم منها وتم ذلك الاثم في ١٩ ابريل من سنة ١٧٧٣ فأخذت ماري تريزا غاليسيا وفريدريك كل البقعة التي كان يحتاج اليها لضم الارض للبروسية برمتها الى ما كان يمتلكه من البلاد الالمانية . وكاترينه بعض الولايات الشرقية

﴿ فصل ﴾

﴿ في معاهدتي فينارجه (١٧٧٤) وياش (١٧٩٢) ﴾

ولما فرغت كاترينه من أمر هذه التجزئة رجعت الى مناوأة الاتراك وكان ختام هذه الحرب بمعاهدة فينارجه (١٧٧٤) التي تقدم ذكرها .

وفي السنة التالية استولى الروس على جمهورية القوقاف الاوكرانيين الذين كانوا يحولون دون تقدمهم نحو البحر الاسود. وفي سنة ١٧٧٧ اشتروا من خان القرم امارته على ما أشرنا اليه قبلا . وفي سنة ١٧٨٧ شهرت تركيا عليهم الحرب فامتدت أربع سنين وانتهت بمعاهدة ياش . (١٧٩٢)

﴿ فصل ﴾

﴿ في اقتسام بولونيا ثانية وثالثة ١٧٩٣ — ١٧٩٥ ﴾

وكان البولونيون قد تنبهوا من غفلتهم على أثر ما جزيء من ممالكهم فأخذوا يصلحون شؤونهم أثناء ما كانت النمسا وبروسيا مشتغلتين باخماد الثورة الفرنسوية غير ان هتين الدولتين كرهتا ان تقوم لتلك المملكة قائمة فاقتسمتاها مع روسيا ثانية وثالثة في خلال سنتين ومحيت هذه الامة من صحيفة الامم المستقلة وكان ذلك اكبر عار وأعظم أثم جنته الدول التي جزأتها

﴿ فصل ﴾

﴿ في محاولة اقتسام اسوج ﴾

ثم اتفقت روسيا وبروسيا سراً على اقتسام اسوج وأخذتا تدسان الدسائس لدوام المؤامرات والشقاق الذين كانا يمزقان أحشاء

تلك المملكة في داخلها غير ان دهاء غستاف الثالث ملكها(١٧٧٢) والنظام الدستوري الذي وضع لها سنة ١٧٨٩ انقذاها من الخطر المحدق بها . ثم لم يلبث الكبراءان قتلوا ذلك الملك المحب للاصلاح الكاره للروسيين (١٧٩٢) وكادوا يقضون على وطنهم بالدمار لولم تكن كاترينه في ذلك الوقت مشتغلة بمشاكلها في الشرق وبروسيا بمشاكلها في الغرب

الباب الثالث والسبعون

﴿ في ممهدات الثورة الكبرى ﴾

﴿ فصل ﴾

﴿ في الاكتشافات العلمية والجغرافية ﴾

ان القرن الثامن عشر كان عصر تجديد في العلوم كما كان القرن السابع عشر عصر تجديد في الاداب والقرن السادس عشر عصر تجديد في المعتقدات . وقد تكاملت به العلوم الطبيعية على يد فرانكلين مخترع الشاري وهو القضيب الدافع للصاعقة وفولتا وكالفاني مخترعي البطارية الكهربائية ولابلاس ولاغرانج مخترعي التحليل الكيماوي ولينه ودي جوسيو مكتشفي علم النبات وبزفون مكتشف علم الحيوان وعلم طبقات الارض ولافوازيه مكتشف النواميس الاساسية

لعلم الكيمياء . وفي سنة ١٧٧٥ اكتشف اللقاح البشري وفي سنة ١٧٨٣ اجتازت أول باخرة نهر السون واطلق أول منطاد في الجو

وكذلك قام رحالون مشاهير في مقدمتهم كوك وبوكنفيل وبيروز فطافوا حول الارض يطالعون أحوال الامم والبلاد ويرسمون ما يرونه لتقرير الحقائق وفي الجملة يطلبون الافادة العلمية لا الاستفادة المالية .

﴿ فصل ﴾

﴿ في لاداب في القرن الثامن عشر ﴾

اما الاداب فانتقلت من طور الى آخر فقد نزلت من عالم الوهم والخيال والمناقشات الدينية الى عالم المادة والتحقيق والبحث عن امراض المجتمع البشري لمداواتها وكان في مقدمة أهل هذه المباحث من مشاهير الادباء العظام فولتير الذي جاهد كل حياته في سبيل اطلاق حرية الفكر ومونتسكيو الذي بحث عن أصل وضع الشرائع وقابل بين الموجودة منها ليرشد الناس الى أفضلها وهي شريعة الدستور الانكليزي وروسو الذي قرر في كتاباته حق السيادة في الحكم للامة لا للملوك وأشار بضرورة الانتخابات العامة ثم أصحاب كتاب موسوعات العلوم وقد نقلوا في تأليفهم جميع المعارف البشرية على شكل مناف للدين داع الى اصلاح الهيئة التي كان

عليها المجتمع الانساني. ثم كنساي واضع علم الاقتصاد السياسي القاضي ايضاً بتعديل الشكل الاجتماعي واصلاحه

﴿ فصل ﴾

(في اختلاف الافكار ونظامات الحكومات)

ان عدم التلاؤم بين هذه الافكار التي انتشرت وبين حال الحكومات في ذلك الوقت كانت ولابد داعية الى تغيير الملوك لنظامات بلادهم فان لم يفعلوا ثار الشعب عليهم وتولى ذلك بنفسه وهذا ما حصل على ما سنراه غير ان اكثر ملوك اوربا شعروا بالحاجة الى الاصلاح فأجروه وكان قليلا بطيء السير وخصوصاً من حيث تعميم المعارف فان القيصرة كاترينه كانت تنشيء المدارس ولا تقبل فيها احداً وذلك لكراهتها ان يتنبه الشعب فيكون بذلك سقوط سلطتها وكان سائر الملوك يرون مثل رأيها ومع ذلك فقد اصلحوا ما أصلحوه من حال رعيتهم بحكم الاضطرار وكان أرشدهم في ذلك وأعظمهم عملاً فريدريك الثاني ملك بروسيا

﴿ فصل ﴾

(في اواخر سني لويس الخامس عشر (١٧٦٣ — ١٧٧٤)

عرفنا ما كان من انحطاط فرنسا على أثر حرب السبع السنين فهي بعدما خسرته من السطوة والاملاك والاساطيل لم تزد الا ولاية

اللورين التي كانت تحتلها بعساكرها من زمان قديم (١٧٦٦) وجزيرة كورسكا التي اشترتها من جنوا بأربعين مليونا . (١٧٦٩)

هذا ما كان من عمل لويس الخامس عشر في الخارج وأما في الداخل فانه استبد وأساء التصرف فأغضب الامة اغضاباً عيل معه صبرها لانه حكم عشيقاته في رقابها وكان يسلب أموال الاغنياء ويسجن من يريده أو يعدمه بلا محاكمة ومما زاد النفار منه حله البرلمان ونفيه الجزويت . وقد شعر في اخيرات أيامه بخرق سياسته فقال « ان هذه الحالة تدوم مادمت وعلى من يخلفني ان يخرج منها كما يمكنه الخروج »

﴿ فصل ﴾

(في لويس السادس عشر الى ابتداء الثورة)

خلف هذا الملك لويس الخامس عشر وكان مستقيما عفيفاً محباً لبلاده ضعيف الرأي قلق الجنان . فالغى السخره والتعذيب وأخرج البروتستان من اعتبارهم سفهاء بمقتضى القانون . ومن مآثره انه استوزر تورغو فشرع في الاصلاحات التي كانت تقضي بها الظروف فعاداه الحاشية وأهل البلاط واستمروا يقاومونه حتى عزله الملك وهو يقول « لا يحب الشعب أحد كما نحبه انا وتورغو » ثم استوزر نيكر أحد الصيارفة فلم يستطع ان يخرج فرنسا من

الافلاس الذي وقعت فيه ولا سيما على أثر حرب امريكا . وبعده استوزر كالون فزاد دين المملكة ٥٠٠ مليون في ثلاث سنين فعقد الملك جمعية من الاعيان للنظر في دواء يزال به ذلك الداء (١٧٨٧) فلم تفلح في قرارها فاخذ الشعب يطالب عقد مجلس النواب بكل لسان فوعدته بذلك الحكومة واستعادت نيكر المحب للاصلاح الى الوزارة فاستصدر قراراً بعقد مجلس النواب وان يكون فيه عدد المنتدبين عن قسم العامة من الامة مساوياً لعدد المندوبين عن الشرفاء والاكليروس .

وكان ذلك مفتتح الحوادث التي جرت بعد الاجتماع الذي تم على هذا الشكل مما سيأتي بيانه في القسم الرابع من هذا الكتاب ان شاء الله .



﴿ القسم الرابع ﴾

﴿ في التاريخ العصري ﴾

« ١٧٨٩ — ١٨٩٦ »

﴿ الباب الرابع والسبعون ﴾

(في الثورة (١٧٨٩ — ١٧٩٢)

﴿ فصل ﴾

﴿ في الجمعية الواضعة للدستور وسقوط البستيل ﴾

رأينا مما تقدم ان الملك الاستبدادي في فرنسا كان ولا بد زائلا لما كثر من نفقات الملوك الفاحشة التي ضاقت الامة ذرعا عن تحملها ولما ركبوه من الاغلاط السياسية والادارية التي كانت تقضي قضاء محتماً بتغيير الشكل الذي كان عليه نظام الحكومة في ذلك الوقت ولما تغير من أفكار الامة ومشاربها بعد انتشار أفكار الفلاسفة والعلماء الاصلاحيين المتقدم ذكرهم بينها فلما اجتمع النواب في اليوم الخامس من شهر مايو سنة ١٧٨٩ فى فرسايل كان المندوبون عن العامة منهم وجماعة من المندوبين عن الشرفاء والكهنة يرون ضرورة التسوية بين جميع الافراد لدى القانون للتوصل بذلك الى الوحدة السياسية والاجتماعية فى فرنسا . فنشأ عن التوافق فى

هذا الفكر ان انضم فريق من الشرفاء والاكليروس الى نواب العامة وقرروا في اجتماعهم ان تلقب جمعيتهم بالجمعية الواضعة للدستور . وفي السابع والعشرين من الشهر تم انضمام أهل الطبقات الثلاث من النواب بعضهم الى بعض ولم يزدهم ما حاوله الملك من تشتيت شملهم بالقوة وما القاه من الخطاب التهديدي عليهم الا ثباتا في عزيمتهم فاعلنوا على أثر ذلك انهم فوق العقوبة لنيابتهم عن الشعب . فجمع الملك ٣٠٠٠٠ مقاتل من جنوده الاجانب حول باريس وفرسايل لارهاب الجمعية ونفي نيكر الوزير الذي كان الشعب يميل اليه فجدد النواب تحالفهم على ان لا يفترقوا قبل ان يضعوا دستوراً لفرنسا . فهجم المقاتلون على باريس لالقاء الرعب في القلوب فحمل السكان السلاح وهجم فريق منهم على الجنود فتقهقرت الى فرسايل وذهب فريق آخر الى سجن البستيل فأخذوه عنوة وقتلوا قومندانه وكان ممن قتلوه الوزير فولون والمستشار برتيه (١٤ يوليو)

﴿ فصل ﴾

﴿ في واقعة اكتوبر والهجرة ودستور سنة ١٧٩١ ﴾

فلما علم الملك بما حدث قال « اذن فذلك عصيان » فأجابه الدوق لاروشفوكو « لا يا مولاي وانما هو ثورة وانقلاب »

وفي ٤ أغسطس الغت الجمعية الحقوق الاقطاعية ومبيع المناصب ثم قررت لائحة « حقوق الانسان » الشهيرة ووضعت المجلس التشريعي وابت على الملك ان يكون له حق رفض القرارات النيابية ما شاء فاستدعى لويس جيشاً جديداً لتأمينه على نفسه وارهاب الثائرين فلم يفلح بهذه الحيلة . وكانت في تلك الاثناء المجاعة عامة في فرنسا ففي خامس اكتوبر تألف جيش جرار من نساء باريس وذهبن الى فرسايل لارجاع الملك منها اعتقاد ان رجوعه يعيد الخصب والسعة الى باريس . وكان جماعة من الحرس الوطني الذي أوجده القائد الشهير لافايت يسيرون لخفارتهن فلما وصلن الى فرسايل دافعهن حرّاس الملك فقتلن رهطاً منهم وأهانوا الملكة وانتهكن احترام القصر وبعد يومين عدن بالملك وسائر أهل البلاط الى باريس

وحدثت أيضاً في داخلية البلاد حركات ثورية كثيرة فان الفلاحين كانوا يوقعون بالشرفاء ويهدمون استحكامات قصورهم فيفرون الى الخارج وكذلك جماعة من الامراء والكبراء من حاشية الملك تركوه منفرداً في هذه الشدة ولجأوا الى الدول الاجنبية يواطئونها على دخول فرنسا لاعادة الامن وسلطة الملك اليها

أما الجمعية فكانت توالي أعمالها وكان مما قررته حرية المعتقدات واقامة الشعائر الدينية وحرية الصحافة والصناعة وأن يرث جميع الاولاد أباهم المتوفى على السواء وأن تلغى القاب الشرفاء وأن يقبل

جميع الفرنسويين في المناصب بلا تمييز من حيث الكفاءة وأن تقسم فرنسا الى ٨٣ مقاطعة عوضاً عن تقسيمها القديم . وأن تستبدل البرلمانات في المدائن بمحاكم وأن تصادر املاك الاكليروس وتصدر قراطيس مالية بقيمة اربعمئة مليون مضمونة برهن تلك الاملاك وذلك لسد ما اشتد من حاجة الحكومة الجديدة الى المال وأن لا تكون في القانون مزية للرهبنات على غيرها من الشركات .وأن تكون ارادة الامة هي السائدة وتصدر عنها كل سلطة ومن أجل ذلك عمم الانتخاب في كل مكان وجعل في كل مقاطعة وفي كل مركز وفي كل مدينة مجلس انفاذي . وفي شهر نوفمبر من سنة ١٧٨٩ أخذ أهل فرنسا يتآخون وهم شاكو السلاح ويهني بعضهم بعضاً في القرى والمدائن بنجاة الوطن واستمروا على هذه الحال بضعة أشهر مطمئنين ثم أعدت باريس ساحة الشان دي مارس للاحتفال بعيد للمؤاخاة فوفد اليها مندوبون من قبل الجيش ومئة الف مندوب عن الولايات وفي ١٤ يوليو من سنة ١٧٩٠ اقسم الملك بمشهد ومسمع من ذلك الجمهور يمين الطاعة للدستور . وظن ان الامن يبيت موطد الاركان غير انه لم يلبث ان تكدر صفوه بما وقع من النزاع الجديد بين الملك والجمعية وذلك انها عرضت عليه لائحة لاصلاح الاكليروس على الشكل الدستوري المدني فأبى الموافقة عليها وحظر البابا على رجاله ان يقبلوها فوقع من جراء ذلك شقاق في كنيسة فرنسا نتجت

عنه اضطادات وحروب فظيعة . وكذلك ساء لويس السادس عشر ما كان يعرض عليه من القوانين الشديدة لمعاقبة اعزائه وأعوانه الذين كانوا يهجرون فرنسا ويلجأون الى الدول الاجنبية فرأى ان الافضل له ألفرار الى متس والاستنجاد بالنمسا وبروسيا على قومه فقر (١٧٩١) ولكنه قبض عليه في فارين فقررت الجمعية معاقبته بكفه عن أداء وظيفته السامية وفي ١٧ يوليو طاب الشعب في ساحة الشان دي مارس ان يستقبل الملك فنشر القائد بابي الراية الحمراء وأطلق البنادق على الجموع ففرقها . وبقي الملك سجيناً في قصر التويلري الى ١٤ ستمبر ثم قبل بدستور سنة ١٧٩١ القاضي باقامة مجلس واحد للتشريع لا يجوز للملك أن يمنع انفاذ أحد قراراته اكثر من أربع سنين وعند ما أنجزت الجمعية أعمالها أصدرت عفواً عاما وأوصت بالمسالمة وأعادت حرية السفر والجواز والغت كل القوانين الاستثنائية لتسترجع بذلك المهاجرين الى وطنهم. ثم ارفضت على ان لا يدخل في الجمعية التي تخلفها أحد من أعضائها . وكان أشهر رجالها مونيه ومالواي وبرناف وسيايس وخصوصاً ميرابو احد اعاظم خطباء الدنيا

الباب الخامس والسبعون

{ في تحالف الملوك على فرنسا وانخذالهم وذكر الثورة من سنة

— ١٧٩٢ الى ١٨٠٢ — }

{ في الجمعية التشريعية (١٧٩١ — ١٧٩٢) }

كان اول اجتماع لهذه الجمعية في غرة اكتوبر سنة ١٧٩١ وآخر اجتماع لها في ٢١ ستمبر من السنة التالية وكان زعماؤها من الحزب الذي عرف بحزب الجيرونديين واشهرهم بريسو وبتيون وفرنيود وجانسونه وديكو وفالازي وجل ما فعلوه انهم سعوا لاسقاط الملك واقامة الجمهورية

{ فصل }

{ في تأثير الثورة خارج فرنسا والتحالف الاول (١٧٩١) }

ان الثورة لم ينحصر تأثيرها فى فرنسا بل تجاوزها الى بلجكا وهولنده وامارات الرين والمانيا وانكلترا حتى وروسيا فاغضب ذلك الامراء والملوك واخذوا يستعدون لمقاومة هذا الروح الجديد ومعاقبة الذين احدثوه وبثوه فاتفق على ذلك ملوك النمسا وبروسيا والبيامون واسبانيا وحكومات سويسرا ولما انتهت اسوج من محاربة روسيا وبروسيا من محاربة تركيا وتركيا من محاربة النمسا التق

ملك بروسيا وامبراطور النمسا في بلينتس ورسما خطة دخول المتحالفين لفرنسا وردّ سلطة ملكها اليه (١٧٩١) فاجابت الجمعية التشريعية على ما بلغها من هذا الاستعداد بانها تنصح لاولئك الملوك بالعدول عنه والا دخل الفرنساويون بلادهم واعملوا فيها السيف والنار وادخلوا اليها الحرية فليحذروا مما يقدمون عليه. وعلى أثر هذا الجواب انتشبت حرب هائلة دامت ٢٣ سنة كان الفوز في ختامها للفرنسويين وجزى فيها من الدماء مقدار ما كسبته فرنسا من الفخر والمجد

﴿ فصل ﴾

﴿ في كومون باريس وواقعتي ٢٠ يونيو و ١٠ اغسطس سنة ١٧٩٢ ﴾
﴿ ومذابح سبتمبر ﴾

واول ما فعلته الجمعية بعد قرار بيلنتس انها سنت قوانين شديدة الوطأة على المهاجرين والقسس الذين ابوا ان يحلفوا اليمين المدني بدعوى انهم هم سبب العصيان الذي قام في مقاطعتي فاندي وبريتانيا على قدم وساق. فتردد الملك في التوقيع على هذه الاوامر ثم امضاها وشهر الحرب على النمسا في ٢٠ ابريل سنة ١٧٩٢ غير ان كبار الثائرين كانوا يشعرون بان للملك تواطؤاً سرياً مع الدول المعادية لفرنسا ولذلك سعوا في اضعاف حزبه الذي كان صاحب الاغلبية

في الجمعية التشريعية ثم حالوا دون اقامة لافايت رئيس هذا الحزب محافظاً لباريس فعين بتيون احد الجيرونديين في ذلك المنصب. وفي ٢٠ يونيو دخل الشعب قصر التويلري وأهان الملك وأكرهه على لبس القبعة الحمراء علامة الرضى بالثورة فاحتج لافايت على محدثي هذه الاهانة فنقم الجمهور عليه واضطر ان يخرج من فرنسا بعد ذلك بشهرين وسقط بخروجه حزب الملكية الدستورية وفاز حزب الجمهورية . وفي ١٠ أغسطس كان غضب الشعب قد بلغ منتهاه لما رآه من شدة لهجة الدول المعادية وخصوصاً منشور الدوق دي برونسويك فكانت كل فرنسا مستعدة لحمل السلاح

وفي ١٠ أغسطس قتل بعض رعاع الجمهوريين والجنود حرس القصر ودخلوه فلجأ الملك الى منتدى الجمعية التشريعية فارسلته الى سجن يعرف باسم سجن الهيكل والحقت أسرته به وأعلنت انه مكفوف عن أداء وظيفته . وفي أثناء هذه الحادثة قتل نحو أربعة آلاف نفس . ثم أريد استبدال الدستور الحاضر بآخر فانتخبت جمعية الاتفاق الوطني (لا كونفانسيون) وخلفت الجمعية التشريعية التي لطخت أواخر أيامها بلطخة سوداء قبيحة وهي ان حزب الكومون في باريس رشا جماعة من السفاحين فأخذوا يستفتحون السجون من ٢ الى ٥ ستمبر ويذبحون المعتقلين فيها حتى بلغ عدد القتلى ٩٠٠ وستا وستين نفساً

﴿ فصل ﴾

﴿ في التحالف الاول وانكسار البروسيين في فالمي (٢٠ سبتمبر سنة ١٧٩٢ ﴾

عند ما ابتدأت الحرب زحف النمسويون على فرنسا من الشمال والبروسيون من جهة نهر الموزيل وملك سردينيا من جهة الالب. فانتصر الفرنسويون على أعدائهم في الشمال وأخذوا سافوا ونيقا. والتقى ديموريز القائد الفرنسوي بجيش البروسيين في فالمي من مقاطعة شمبانيا فتغلب عليهم وردهم على أعقابهم الى الرين وهناك تولى القائد كوستين الهجوم ففتح سبيرا وورس ومايانس. ثم سطا ديموريز على النمسويين بعد رفعهم الحصار عن مدينة ليل لعجزهم عن أخذها عنوة فظهر عليهم في موقعة جاماب وفتحت له بذلك أبواب هولنده.

﴿ فصل ﴾

﴿ في جمعية الاتفاق الوطني (١٧٩٢ — ١٧٩٥) وتأسيس ﴾

« الجمهورية الفرنسوية (٢٠ سبتمبر ١٧٩٢) ومقتل لويس السادس عشر »

كان أول ما قررته هذه الجمعية الغاء الملكية والمناداة بالجمهورية وفي ٣ دسمبر قررت محاكمة لويس السادس عشر امامها خلافا للدستور القاضي بان يكون الملك فوق سلطة القضاء ولا يعاقب الا بالخلع. فحكمت عليه بقطع رأسه وتم ذلك فى ٢١ يناير سنة ١٧٩٣

قال دانتون « ولنرم رأس هذا الملك لاعدائنا المتحالفين فيكون لهم عبرة وانذاراً »

﴿ فصل ﴾

﴿ في حكومة الارهاب ﴾

ولما انتشر نعي لويس السادس عشر دخلت الدول التي كانت لازمة الحياد في معاداة فرنسا وأطبقت جيوشها بها من كل جانب وفضلا عن ذلك فقد شبت الحرب الاهلية في فاندي وبريتانيا وترك دعوريز جيشه وانضم الى النمسويين فقاومت الجمعية أعداءها الداخليين والخارجين جميعاً ولكنها ركبت فظائع لا توصف وذلك انها وضعت المحكمة الشوروية الشهيرة لتقضي بالقتل على كل متهم بكلمة قالها أو بحركة مشتبهة أبداها (١٠ مارس ١٧٩٣) ثم قررت ان أعضاءها خاضعون لتلك المحكمة وانتخبت من بينهم لجنة سميت باجنة النجاة جعلت في يدها السلطة الانفاذية . وهذه الحكومة لقبت بحكومة الارهاب وكان أعضاء الجمعية فريقين الجيرونديين برئاسة دانتون والجبليين برئاسة روبسبيير الشهير بقوته ومارا الشهير بنفثات قلمه التي كانت تنشر في جريدته ودانتون الشهير بفصاحته . وقد احتال هؤلاء حتى استصدروا حكماً باعدام ٣٢ عضواً من الجيرونديين (٢ يونيو) فنفذ الحكم على بعضهم وفر بعضهم الى المقاطعات يستثيرون الناس على الجمعية فثارت بايعازهم

أكثر مدائن الجنوب وفتحت طولون أبوابها للانكليز وسلمتهم أسطول البحر المتوسط ووقعت كونده وفالانسين ومايانس في أيدي الاعداء فدخلوا فرنسا من الشمال والجنوب . وفي تلك الاثناء كان الفاندون منتصرين على جنود الجمهورية وكانت فرنسا كلها مبتلاة بمجاعة هائلة فقد معها كل امن واختل كل نظام . ولما رأت الجمعية انه لم يبق لها الا ثلاثون مقاطعة تعتمد عليها قررت لائحة « المشتبهين » التي عرضها عليها مرلين فاعتقل بسببها ٣٠٠٠٠٠ نفس في الحبوس . ثم قررت ماعرضه عليها بارير نيابة عن لجنة النجاة وهو ان تعتبر الجمهورية كلها كمدينة محاصرة . وان تحول فرنسا الى معسكر ويدعى الرجال على اختلاف أعمارهم الى الدفاع عن الوطن والحرية فالشبان يقاتلون والمتزوجون يصنعون الاسلحة والنساء تهيء الملابس والخيام للجنود والاولاد يقتطعون من الاكسية البالية اربطة للجراح والشيوخ ينتقلون الى الساحات العامة لايقاد الحماسة في الصدور » وعلى أثر ذلك جهز مليون ومئتا الف رجل للحرب وعادت ليون وبوردو الى الطاعة واسترجع بونابرت مدينة طولون وكان اذ ذاك يوزباشياً في المدفعية وطرد الفاندون عن أبواب نانت وجعل جوردان قائداً عاما للجيش فكف غارة المتحالفين . وكانت دماء الشرفاء والكهنة والمشتبهين على اختلافهم تجري انهاراً في جميع انحاء فرنسا . واتفق أن امرأة تدعى شارلوت

كورداي قتلت مارا ظناً منها انها تسقط بقتله حكومة الارهاب ولكن النتيجة وقعت على العكس وكان ممن قتلوا على أثر هذه الحادثة ماري انطوانت امرأة الملك واليصابات شقيقته وبايلي وزعماء الجيرونديين ودوق أورليان والقائد كوستين ومدام رولان الكاتبة الشهيرة ولافوازيه العالم ومالزرب وكاميل ديمولين ودانتون والفوضويون حزب هيبير والشاعر اندره شنيه وكان في شرخ شبابه .

﴿ فصل ﴾

﴿ في تاسع ترميدور أو ٢٧ يوليو ﴾

وبعد هذه المنكرات أراد روبسبير ان يصل الى الانفراد بالسلطة فتنبه لمقاصده زمرة من الزعماء منهم فوشه وتاليان وكاريه وبيود فارين وكولودربوا وفاديه وآمار وغيرهم فاحدثوا ثورة تاسع ترميدور(١) واوقعوا في التهمة روبسبير وكوتون وسنجوست وابن روبسبير وليباومئة من أنصارهم فقتلوا جميعاً. وعند ذلك استراحت فرنسا من هذه المجزرة ومالت الحكومة الى الاعتدال بحكم

---

(١) هو اسم أحد الشهور من التاريخ الجديد الذي جعلت الثورة مبدأه . وكان الثورويون قد غيروا أسماء الشهور والاسابيع والايام غير ان التاريخ القديم لم يلبث ان عاد الى ما كان عليه

الضرورة وكان عدد الاحكام التي أصدرتها المحكمة الثورية بالاعدام يبلغ ٢٦٦٩ عدا الاحكام التي أصدرت بمثل ذلك في ليون واراس ونانت وتولوزو مرسيليا وبوردو مما يكاد لا يقع تحت حصر.

﴿ فصل ﴾

﴿ في المواقع التي جرت من ١٧٩٣ — ١٧٩٥ ﴾

عرفنا ان جميع الدول تحالفت على فرنسا بعد مقتل لويس السادس عشر ولم يسالمها الا الدانمرك وأسوج . ففي شهر أغسطس من سنة ١٧٩٣ كان الاعداء قد دخلوا فرنسا من جميع تخومها

وفي آخر دسمبر كانت فرنسا منتصرة عليهم في جميع الجهات فان هوشار دحر الانكليز في هندشوت . وجوردان كسر النمسويين في واتيني وبونابرت فاز في طولون وهوش في ويسمبرج وحزب الجمهوريين تغلب على الفانديين وأنهى هذه الحرب الداخلية التي طال أمرها واشتد على فرنسا كثيراً . وبعد ذلك باشهر تغلب الفرنسويون على أعدائهم في فلوروس فاستفتحوا أبواب هولانده وردوا الاسبانيين الى ما وراء البرانس والبيامونتيين الى ما وراء الالب والالمانيين والبروسيين الى ما وراء الرين ثم دخل بيشغرو هولنده في فصل الشتاء وان هذا الفشل المتتابع حمل دولتين على الخروج من المحالفة وهما اسبانيا التي كان يحكمها رجال متقاعدون

وبروسيا التي كانت تحتاج الى الراحة لاهتضام بولونيا وتجزئتها للمرة الثانية ثم الثالثة. غير ان انكلترا والنمسا وسردينيا والدول الجنوبية والمانيا استمرت مستعدة للنزال واشتركت معها روسيا فارسلت مراكبها تعين انكلترا على محو الاساطيل الفرنسوية وأخذ مستعمرات فرنسا وهولنده حليفتها . ومن نكد طالع فرنسا ان ابطال بحريتها كانوا قد هجروها بسبب الثورة ولذلك لم تستطع سفائنها الظهور على السفائن الانكليزية مع ما كان عند رجالها من البسالة وحدث في غرة يونيو من سنة ١٧٩٤ ان الاميرال فيلاده جوايوز « وأصله قبطان صغير » هاجم ستا وثلاثين سفينة انكليزية بست وعشرين ليحمي من سطوها مراكب كانت مشحونة قمحاً وآتية به الى فرنسا لدفع المجاعة عن بعض مقاطعاتها ففاز بما أراده ولكنه فقد سبعة من مراكبه وكان أحدها يسمى المنتقم فغرقه بحارته بانفسهم وهم ينشدون النشيد الثوري لئلا ينكسوا علمه وماتوا عن آخرهم

﴿ فصل ﴾

(في دستور السنة الثورية الثالثة ويوم ٥ا كتوبر سنة ١٧٩٥)

عند ما خرجت جمعية الاتفاق الوطني ظافرة من الفتن التي قامت عليها بعد واقعة ٩ ترميدور الغت الدستور الموضوع في سنة

١٧٩٣ وكان لم ينفذ بعد وجعلت السلطة التشريعية في يد مجلسين مجلس الخمسمئة ومجلس القدماء والسلطة الانفاذية في يد لجنة مؤلفة من خمسة أعضاء غير أن الشعب لم يرض عن هذا المشروع فانتهز الملكيون فرصة كدره واستثاروا بعض شراذم من الحرس الوطني وهاجموا الجمعية فعهدت الى باراس القائد العام في قمع هذا العصيان فكلف به بونابارت الذي أظهر في يوم ١٥ اكتوبر براعة حربية لامزيد عليها فانه نظم جنوده مع قلتهم بحيث يستظهرون على الثائرين مهما بلغ عديدهم من الكثرة وفي اليوم السادس والعشرين من ذلك الشهر عينه أعلنت الجمعية انها انحلت . وقد ذكرنا ما كان من بعض سياستها الداخلية ونزيد الآن على ذلك تتمته فانها بينما كانت البلاد مجاهدة في الخارج ممزقة في الداخل كانت تواصل أعمالها الاصلاحية فاسست وحدة فرنسا وشيدت معالم لنشر المعارف من مدارس ابتدائية وتجهيزية وهندسية وطبية وحقوقية وبيطرية وأقامت نادي الفنون والصنائع ومدارس اللغات المتكلم بها الى ذلك الوقت ومكتب المقاييس الجغرافية ونادي تدريس الموسيقى ومجمع العلماء ومتحف المواليد الثلاثة ووحدت الموازين والمكاييل بالحساب المتري ووضعت السجل الاكبر للدين العام فاستعادت به الثقة بمالية الحكومة واستخدمت التلغراف وجعلت كفالة ذوي العاهات

والامراض المزمنة على نفقة الحكومة وختمت اعمالها بالغاء الحكم بالاعدام بعد أن يسكن الهياج العام .

﴿ فصل ﴾

(في اللجنة الانفاذية او الديركتوار (١٧٩٥ — ١٧٩٩)

كان ثلثا مجلس الخمسمئة ومجلس الاقدمين من أعضاء الجمعية التي انحلت ولذلك انتخبوا الاعضاء الخمسة للجنة الانفاذية أو الديركتوار من الذين قضوا بقتل الملك وهم لبو وكارنو وروبل ولتورنو وباراس. على أن هذا النظام الجديد لم يأت بثمرة مفيدة لان المجالس الانتخابية الفرعية في المقاطعات وأقسامها كانت تسيء التصرف أو تتمادى في الاهمال والسلطة العليا كانت مقسمة بحيث لا تستطيع ان تديرها على ما يجب فنشأ عن ذلك ان اعتلت مصالح العباد والبلاد وخلت الخزينة من المال وسقطت القراطيس المضمونة باملاك الاكليروس الى آخر دركة من انحطاط القيمة ووقفت حركة التجارة والصناعة وقوفا تاما وأصبحت الجنود بلا ملابس ولا ميرة ولا ذخر للحرب .

وفي هذه الاثناء كان مورو قائد جيش الرين وجوردان قائد جيش سامبروموز وهوش يراقب شواطئ المحيط لتسكين بريتانيا وفاندي ودفع غارات الانكليز . وأما بونابرت فعهد اليه في قيادة

جيش الداخلية غير انه لم يلبث ان استبدلها بقيادة جيش ايطاليا.

﴿ فصل ﴾

*(في مواقع بونابرت في ايطاليا (١٧٩٦ — ١٧٩٧)

وكان جيش ايطاليا معسكراً في جبال الالب يناوش جنود سردينيا ولا ينال منهم مأربا مع كثرة مايعانيه من المشاق وكان النمسويون يهددون جنوا ويزحفون على مقاطعة الفار فلما استلم بونابرت القيادة ورأى انه لا يستطيع اجتياز الالب الى ايطاليا دار اليها من جوانب تلك الجبال وجعل جيشه في مركز يفصل النمسويين عن البيامنتيين فحارب كلا من الفريقين المتحالفين على انفراد وغلبه ثم نكل بالسردينيين حتى القوا السلاح وسلموا فعاد الى النمسويين فتقهقر قائدهم بوليو لما وقع في قلبه من رعب بونابرت على أثر ماراه من عجائب بلائه في مواقع مونتنوتي (١١ ابريل) وميلازيمو (١٤) وداغو (١٥) ومبوندوفي (٢٢) فلحق به بونابرت وأدركه وسحق جيشه وأراد النمسويون ان يصادموا هذا البطل على قنطرة لودي فاطلقوا عليه قنابل مدافعهم كالمطر فاستظهر عليهم (١٠ مايو) فأرسلت النمسا ورمسر أحسن قوادها ليخلف بوليو وأمدته بجيشين ضخمين أحدهما بعد فتغلب عليهما بونابرت في لوناتو وكاستيليوني (بين ٣ و٥) أغسطس وفي باسانو (٨ ستمبر) فخلف الفنزي ورمسر فقهر في أركول (نوفمبر ١٧٩٦) وفي ريفولي (يناير ٩٧) فأرسل

الارشيدوق كارلوس فأصابه نصيب سابقيه . وهكذا تحطم كل قواد النمسا وكل جيوشها فى ملاقاتهم لجيش ايطاليا الذي كان مؤلفاً من ٤٠ الف مقاتل يقوده شاب لم يتجاوز الثامنة والعشرين من عمره. ولذلك أهدي الديركتوار الى ذلك الجيش الباسل راية مكتوباعليها ماياتي « انه أي الجيش » أسر مئة وخمسين الفاً من الاعداء وأخذ ٧٠ راية ومئة وخمسين مدفعاً للحصار و٦٠٠ مدفع للميدان وخمس شراذم من عمال القناطر وتسعة مراكب و٣٨ بارجه وأعطى الحرية لشعوب شمال ايطاليا وأرسل الى باريس أحاسن مصنوعات ميكيلانج وغرشين ودي تيسيان وبول فيرونيز وكوريج ولالبان وكاراش ورافائيل وغيرهم وظفر في ١٨ موقعة وصادم الاعداء ٦٧ مرة . »

وفي أثناء هذه الحرب العجيبة كان الارشيدوق كارلوس قد انتصر على جوردان في ويرتزبرج نخلا بذلك مورو من السند فرجع القهقرى ولكنها رجعة كانت أجل من الفوز لانه قضى أربعين يوما حتى اجتاز مسافة مئة ميل بدون ان يمكن الاعداء من ملاقاته . وفي ١٧ اكتوبر سنة ١٧٩٧ وقع بونابرت على معاهدة كامبو فورميو فارجعت الرين حدًّا لفرنسا وأعطت فرنسا حليفة جديدة هي جمهورية ما وراء الألب التي قامت حديثاً في لمبرديا .

﴿ فصل ﴾

«(في حملة مصر (١٧٩٨ — ١١٩٩) والتحالف الثاني (١٧٠٨)»

« وموقعة زوريخ »

عند ما عقدت المعاهدة المتقدم ذكرها القت النمسا السلاح أما انكلترا فلا وذلك لتحصنها في جزيرتها فأراد الديركتوار ان يعاقبها بقطع الطريق على تجارتها فعهد الى بونابرت في تسيير حملة على مصر. وكان هذا القائد العظيم يأمل ان يدرك انكلترا في الهند ويخلع سيادتها عنها . فانتصر بادئ بدء في موقعتي الاهرام (٢١ لوليو ١٧٩٨) وجبل الطور (١٦ ابريل ١٧٩٩) غير ان فوز الانكليز على أسطوله في أبي قير (٢١ أغسطس ١٧٩٨) كان قد أفقده مدافع الحصار فلذلك لم يفتح عكاء (٢٠ مايو ١٧٩٩) وانحصر في مصر فوجد انه لا يستطيع فيها كبير أمر فرجع الى فرنسا بعدما ان تغلب على جيش عثماني في أبي قير (٢٥ لوليو ١٧٩٩)

وكان الوزير الانكليزي بيت قد انتهز فرصة غياب بونابرت وجيشه ليفقد فرنسا ثمار معاهدة كامبو فورميو فشرع من شهر مايو سنة ١٧٩٨ في عقد تحالف ثان على فرنسا فدخل فيه بولس الاول قيصر روسيا وبعض امراء المانيا الخاضعين للنفوذ النمسوي وامبراطور النمسا واشتركت فيه أيضاً نابولي وبيامونتي وتركيا فعظم الخطر على فرنسا لانها كانت بلا مال ولا تجارة ولا حكومة

محكمة النظام ولا حماسة كالحماسة الاولى التي بثها فيها رجال سنة ٩٣ ومع ذلك فان جوبير طرد ملك سردينيا من نابولي وشامبيونه حول نابولي الى جمهورية . غير أن المتحالفين كان لهم ثلاثمئة وستون الف مقاتل وكان لفرنسا سبعون الفاً فقط . فاحتل جيش مؤلف من الانكليز والروسيين هولنده وقهر الارشيدوق كارلوس جوردان في ستوكاخ وحاصر كهل تجاه ستراسبورج ودخل مئة الف روسي ونمسوي الى ايطاليا بعد تغلبوا على شرر في ما غنانو (١٥ ابريل ١٧٩٩) وما كدونالد في تريبيا (١٧ — ١٩ يونيو) وجوبير في نوني (١٥ أغسطس) الا ان ماسينه انتصر في زوريخ(٢٥ ستمبر ١٧٩٩) وبرون في برجن (١٩ ستمبر) فأنقذا فرنسا من غارة الاعداء عليها .

﴿ فصل ﴾

(في الفوضى الداخلية وثامن عشر بروميير (أو ٩ نوفمبر)

ولم يلبث تنازع الاحزاب ان عاد الى داخلية فرنسا فقد جاء حين ظن فيه الملكيون انهم يفوزون بارجاع الملك الى فرنسا وأخذ المهاجرون منهم يرجعون ومنحت لهم الاغلبية في الانتخابات للمجالس غير ان الديركتوار قتل هذا الامل حيث طرد كارنو وبارتلمي من أعضائه بدعوى انهما يميلان الى الملكية ونفى ٥٠

من النواب لمثل هذا السبب (٤ ستمبر ١٧٩٧) وبعد ذلك بقليل كسر الديركتوار انتخاب جماعة من النواب الملقبين بالوطنيين فأجاب المجلس التشريعي على هذا القرار الذي ساءه بقرار قضى فيه على أعضاء الديركتوار بالاستقالة من مناصبهم . وكان الناس قد ملوا هذه الحكومة التي لا حول لها ولا قوة فمالوا الى جعل أزمة الامر في يد بونابرت وقد زاد نفوذه على أثر عودته من الشرق وارادوا منحه الرئاسة على حكومة جديدة تتولى ادارة شؤونهم فثاروا وأسقطوا الديركتوار بمساعدته (١٨ بروميرأو ٩ نوفمبر ١٧٩٩)

﴿ فصل ﴾

(في دستور السنة الثامنة والقنصلية)

أما القنصلية فتألفت من ثلاثة أعضاء أولهم بونابرت وثانيهم سياياس وثالثهم روجه ديكوس . غير أن بونابرت لم يمهل زميليه ان اسقطهما واختار كامباسريس ولبرون مكانهما واستمنح لقب القنصل الاول وسن دستوراً دعي بدستور السنة الثامنة جعل في يده عامة الاحكام

وبمقتضى هذا الدستور انشيء « مجلس حكومة » يعد القوانين التي يوعز بها اليه القناصل ثم مجلس شورى يبدي رأياً في استحسان

المشروع المعروض أو استهجانه دون ان تكون الحكومة مقيدة بذلك الرأي ثم مجلس تشريع يرفع اليه المشروع بعد عرضه على الشورى ويتناقش فيه ثلاثة من أعضاء هذا المجلس وثلاثة من نواب الحكومة ومتى انتهى الجدال فيه قبله الاعضاء أو طرحوه .

وأنشئ فوق هذه المجالس مجلس للشيوخ مؤلف من ثمانين عضواً غير قابلين للعزل مكلفين بمراقبة انفاذ الدستور ومحاكمة كل من يخالف شيئاً من القانون الاساسي وبانتخاب أعضاء مجلسي الشورى والتشريع . وكان كل فرنسوي في الواحدة والعشرين من عمره منتخباً وكان المنتخبون من كل مركز ينتخبون العشر منهم ليعينوا في وظائف المركز وأصحاب هذه الوظائف ينتخبون العشر منهم لينتخب منهم مجلس الشيوخ الاعضاء لمجلسي الشورى والتشريع على ان بونابرت أظهر من المهارة في الادارة مثل ما أظهر من البراعة العجيبة في الحروب فانه وضع وظائف المديرين وجعل كلا منهم تحت سلطة وزير الداخلية مباشرة وفي يده جميع السلطة الانفاذية وجعل بجانبيه مجلسين أحدهما مجلس المقاطعة على مثال مجلس الحكومة العالي والآخر المجلس العام على مثال المجلس التشريعي . ثم جعل وكيل المدير مرتبطاً بمجلس المركز والعمدة مرتبطاً بمجلس القرية وجعل في كل مركز محكمة مدنية وجابيا للمالية . وشيد سبعا وعشرين محكمة للاستئناف ومحكمة للنقض

والابرام والف لجنة من بورتاليس وترونشه وبيغو وبريامنوومالفيل لوضع القانون المدني المشهور بكود نابليون وكان في الغالب يرئس تلك اللجنة فلما فرغت من عملها عرضته على مجلسي الحكومة والتشريع فتناقشا فيه بعد ان نقحه كبار رجال القضاء وأعضاء مجلس الشورى . وفى سنة ١٨٠٤ أمضي .ومن مآثر بونابرت تشييد بنك فرنسا فانه خدم البلاد أجل الخدم في أوقات اعسارها .

﴿ فصل ﴾

﴿ في موقعة مارنغو وصلح لونيفيل وصلح اميان ﴾

عند مارأى الملكيون خيبة آمالهم رفعوا راية الثورة في غرب البلاد فقمعها بونابرت بالوسائل الشديدة ثم وجد ان فرنسا في خطر عظيم من جهة ايطاليا فسار اليها واجتاز الالب اجتيازاً وهبط على مؤخر جيش ملاس النمسوى الذي فتح جنوا وكان مزمعاً الفتك بالغار فسحقه سحقة قاضية في مارنغو ارجعت ايطاليا لفرنسا (١٤ جونيو ١٨٠٠) وكان مورو قد فتك بالنمسويين أيضا في هوهاندن فاضطرت النمسا ان توقع على صلح لونيفيل (٩ فبراير سنة ١٨٠١)

أما انكلترا فاصرت على عدائها . وأدركت الدول انها هي وحدها التي ربحت من تلك الحرب الهائلة دونهن فاجتمع

قيصر روسيا وملوك بروسيا والدانمرك واسوج وجددوا عصابة أهل الحياد لتقرير حرية البحار (دسمبر ١٨٠٠) فصادرت انكلترا مراكب الدول المتحالفة التي كانت في موانيها وأرسلت نلسون فمر من السوند وتهدد كوبنهاغن. واتفق ان توفي القيصر بولس الاول فانحلت العصابة على أثر وفاته لما أظهرته انكلترا من البسالة والقوة البحرية وبقيت فرنسا منفردة في الدفاع عن حرية البحار وكانت انكلترا مع ما نالته بعد ذلك من جلاء الفرنسويين عن مصر ومن وقوع مالطه في أيديها عقيب حصار دام ٢٦ شهراً قد أثقلتها ديونها التي بلغت اثني عشر ملياراً وأضعفتها فاقة أهل الطبقة الدنيا من سكانها وثوراتهم المستمرة من أجل ذلك وهالها ما رأته من تجدد قوة فرنسا البحرية والاستعدادات التي كانت تجريها في بولونيا لمحاربتها وانتصار ثلاث سفائن فرنسوية في الجزيراس على ست سفائن بريطانية وتغريقها اثنتين منها فاسقطت وزيرها بيت قبيل عقد معاهدة لونيفيل ثم وقعت على صلح اميان في ٢٥ مارس من سنة ١٨٠٢ وبموجبها اعترفت بالجمهوريات التي أنشأتها فرنسا وردت اليها جميع مستعمراتها وتعهدت برد مالطه الى فرسانها والرأس الى هولنده واحتفظت بجزيرة الثالوث الاسبانية وجزيرة سيلان المتممة لمستعمراتها الهندية

وعند ذلك استتب السلم في البر والبحر وخرجت فرنسا من الحرب ظافرة على الملوك المتحالفين

الباب السادس والسبعون

(في عظمة فرنسا (١٨٠٢ — ١٨١١)

فصل

(في ما تقرر من منح بونابرت القنصلية مدة حياته)

ان صلح لونيفيل زاد رفعة شأن بونابرت الى منتهى ما يطمع فيه انسان وكان مع ذلك قد أعاد الامن وبرأ الطرق من اللصوص والسلابين وشيد ثلاث قناطر على نهر السين في باريس واحتفر ترعة سنكانتين وأقام مستشفيات جمة منها ما شيد على قمة جبال الالب وفتح طريق سمبلون الجميلة بين فرنسا وايطاليا ونظم المالية ونشط التجارة وأخذ بنصرة الصناعة والاداب والفنون وانشأ وسام جوقة الشرف (اللجيون دونور) وأحسن وفادة الراجعين من الهجرة واسترجع الكهنة وعقد اتفاق الكونكورداتو الشهير مع البابا بيوس السابع وحاول ان يوحد الاحزاب ويزيل الضغائن وكان يحضر بنفسه جلسات اللجنة الواضعة للقانون وينظر في كل أمر ويستدرك كل خلل ولا يفوته أمر صغير أو كبير مما هو جار أو ينبغي

اجراؤه . غير انه اشتد على أعدائه كثيراً وقتل ونفى منهم وبعد مضي أربعة أشهر من صلح لونيفيل استصدر قراراً بمنحه القنصلية مدة حياته . وعند ذلك عدل دستور السنة الثامنة من حيث الانتخابات وزاد نفوذ مجلس الشيوخ وسلطته

﴿ فصل ﴾

*(في ارتقاء بونابرت اريكة الامبراطورية (١٨ مايو ١٨٠٤) *

وفي اليوم الثامن عشر من شهر مايو سنة ١٨٠٤ التمس مجلس الشيوخ من القنصل الاول ان يحكم الجمهورية الفرنسوية حكماً وراثياً بلقب امبراطور ويدعى نابوليون الاول فقبل وكان قد عارض في هذا المشروع جماعة من ابدال الاحرار كدونو وكارنو وشنيه ولانجويناي ونجمان كونستان ومدام دي ستال وشاتو بريان فلم يفلحوا في انقاذ فرنسا من سيد يقبض على اعنتها بيده بل وافق الشعب على تأسيس الامبراطورية بثلاثة ملايين ونصف مليون صوت . وأتى البابا بيوس السابع بنفسه الى باريس لحضور تتويج نابليون (٢ دسمبر ١٨٠٤) وكان محفوفاً بحاشيته من الكونتية والدوقية والقرناء والمشيرين والامراء وسائر موظفي البلاط الذين منحهم الالقاب والمناصب والاملاك . وفي ١٨ مارس سنة ١٨٠٥ استبدل نابليون لقب رئيس جمهورية ايطاليا بلقب الملك عليها . وكان

زعيماً اسويسرا تحت لقب الوسيط فضم الى عمالاتها المتحدة ستا أخرى ووحد النظام لجميعها والغى امتيازات بعضها على البعض ولما أصبح امبراطوراً لم يغير نظامها بل اتخذ منها جيشاً لخدمة فرنسا

﴿ فصل ﴾

(في التحالف الثالث . وموقعة اوسترلتس ومعاهدة برسبورج ١٨٠٥)

في ١٥ مايو من سنة ١٨٠٤ رجع بيت الى الوزارة في انكلترا فساد معه الحزب المائل الى الحرب وكانت انكلترا قد نكثت بوعدها ولم تجل عن مالطه وصادرت ١٢٠٠ مركب فرنسوي وهولندي بدون اعلان حرب فعاقبها نابليون على ذلك بشن الغارة على مقاطعة هانوفر التي كانت لها ثم جمع جيوشه في بولونيا استعداداً لاجتياز المانش ومحاربة بريطانيا العظمى براً فخافت من ذلك الخطر العظيم وبذلت المال لتعقد محالفة ثالثة فاشتركت فيها اسوج وروسيا والنمسا ونابولي فلما علم نابليون ان ١٦٠ الف نمسوي زاحفون بعضهم على الاديج تحت قيادة الارشيدوق كارلوس وبعضهم على الرين تحت قيادة القائد ماك وان وراءهم جيشاً روسيا لانجادهم ارجأ فكر الانتقاض على انكلترا وخرج بجيشه من بولونيا واستقدم « الجيش الكبير » الى الرين وبينما كان ماسينه واقفاً ازاء الارشيدوق كارلوس دار نابليون حول ماك وحصره

في أولم (١٩ اكتوبر) وأخذه فيها . وبعد ذلك بيومين بلغه خبر انتصار ويلسون على أسطوله فى ترافلغار (الطرف الاغر) فعدل عن محاربة الانكليز فى نفس بلادهم وعزم على هدم تجارتهم . وفى ١٩ نوفمبر دخل ويانه وفى ٢ دسمبر انتصر على امبراطوري النمسا وروسيا فى موقعة أوسترلتس وهي احدى المواقع الكبرى التى ورد ذكرها فى التاريخ . فتراجعت بقايا الجيش الروسي مسرعة الى بلادها وتعهد امبراطور النمسا فى معاهدة برسبورج بترك ولايات البندقية ودلماسيا لتضم الى ايطاليا وبترك التيرول وسواب لتضما الى أملاك دوق ورتمبرج ودوق بافاريا ودوق بادن . وجعل نابليون الاولين ملكين والاخير ارشيدوقا (٢٦ دسمبر)

﴿ فصل ﴾

(في محالفة الرين والحكومات التابعة للامبراطورية)

وكان نابليون يطمع فى تغيير الشكل الذي كانت أوربا عليه فلما فاز فى اوسترلتس شرع فى انشاء محالفة الرين فأكره فرنسيس الثاني على ترك سرير المانيا فاستبدله بسرير النمسا وانحلت باستقالته امبراطورية المانيا بعد ان دامت عشرة قرون ثم أخذ نابليون يضم بعض الولايات الالمانية الى بعض حتى أنشأ منها ٣٠ أو ٤٠ مملكة وامارة وولاية كبيرة وكانت فى الاصل ٣٧٠ وجعل كلا منها مستقلة

عن الاخرى بداخليتها مرتبطة معها في ادارة الشؤون الخارجية بما يقرره النواب في اجتماعاتهم بفرانكفورت . وانما فعل ذلك ليفصل النمسا وبروسيا وفرنسا بعضها عن بعض بتلك الحكومات فيؤيد السلام . ثم انه بعد موقعة تيلست التي سيأتي ذكرها تمادى في مقاصده لجعل نصف أوربا حكومات تابعة لفرنسا وجمع على رؤوس ذويه من التيجان مالم يجتمع على رؤوس أسرة قديمة العهد بالملك كاسرة بوربون وآل النمسا . فقد منح اخوته الثلاثة لويس وجيروم ويوسف ممالك هولنده ووستفاليا ونابولي ونسيبه أوجين بوهارني وكالة مملكة ايطاليا اذ كان هو ملكها وصهره مرات غراندوقية برج ثم مملكة نابولي ونقل أخاه يوسف من نابولي فجعله ملكا على اسبانيا . ووهب شقيقته اليزا امارة لوك وبيومبينو ثم غراندوقية توسكانا وشقيقته الاخرى بولينا دوقية غواستالا وكان هو لا يزال وسيط سويسرا على ما قدمنا بيانه .

ولم يكتف بذلك كله بل أقطع كثيرين من كبار حاشيته وضباطه امارات وعمالات

﴿ فصل ﴾

﴿ في موقعة يانا (١٨٠٦) ومعاهدة تيلست (١٨٠٧) ﴾

ان انتصار نابليون على المتحالفين في اوسترلتس أسقط

وزارة ويليم بيت العدو الالد لفرنسا تخلفتها وزارة فوكس وكان أقل حماسة وأميل الى السلام فاراد الامبراطور أن يعقد معه صلحاً ثابت الاركان والمع الى أنه يرد مقاطعة هانوفر لانكلترا واذ كانت بروسيا تطمع في هذه المقاطعة غضبت واستعدت للقتال

واتفق أن توفي فوكس وعاد حزب محبي الحرب الى ادارة سياسة انكلترا فانجد بروسيا فنازلت جيوش فرنسا فدحرها الامبراطور في يانا واورستاد (١٤ اكتوبر ١٨٠٦) واسقط ملكها ثم التقى بالبروسيين فكسرهم في ايلو (٨ فبراير ١٨٠٧) وفي فريلند (١٤ يونيو) وختمت هذه الحرب بمعاهدة تيلست التي وقع عليها القيصر وكان من مقتضاها ان جعلت بروسيا اقل من نصف ما كانت وأصبح سكانها خمسة ملايين نفس واعطيت فنلانده لروسيا .

﴿ فصل ﴾

﴿ في الحصار البري ﴾

وبعد موقعة يانا اصدر نابليون أمراً من برلين قضى باعتبار انكلترا في حالة حصار وحظر كل تجارة معها

﴿ فصل ﴾

(في فتح اسبانيا (١٨٠٧ — ١٨٠٨)

ولما كانت البرتغال قد أبت ان توافق على هذه السياسة الحصارية

عبأ نابليون جيشاً لطرد الانكليز منها . وكان في تلك الاثناء ولي عهد ملك اسبانيا كارلوس الرابع ثائراً على أبيه يريد خلعه فاستعان الملك على ابنه بالامبراطور فوجد الفرصة على مرامه فقدم اسبانيا واقنع الملك باعتزال سريره بعد أن ابعد ابنيه فاجابه الى طلبه (٩ مايو ١٨٠٨)فاستقدم الامبراطور أخاه يوسف لينصبه على عرش تلك المملكة ولكن أهلها قاوموه أشد المقاومة غير انه أنزلهم على حكمه بعد مواقع كثيرة وادخل جنوده مدريدوقبل ان يتم اخضاع تلك البلاد كانت انكلترا قد دعت الدول الى محالفة خامسة على فرنسا فاجابتها اليها خلافاً لما تعهد به ملوكها للامبراطور في مقابلة ارفورث .

﴿ فصل ﴾

﴿ في موقعة واغرام (١٨٠٩) ﴾

فبرح نابليون اسبانيا قاصداً المانيا وفي ٢ مايو من سنة ١٨٠٩ دخل ويانه ثانية وفي ٦ يوليو التالي فاز في معركة واغرام الهائلة التي عقدت على أثرها معاهدة ويانه . وقد فقدت النمسا في هذه الحرب أرضاً يقطنها ٣٤٠٠٠٠٠ نفس قسمت بين فرنسا وروسيا وبافاريا وساكس وغراندوقية فرسوفيا : وبهذه المعاهدة بلغ نابليون منتهى مجده الحربي وامتدت سلطنته من مصاب الالب الى مصاب التبر .

ثم طلق امرأته جوزيفين على تراض بينهما وتزوج ماري لويز سليلة آل النمسا أقدم بيت ملكي في اوربا وفي ٢٠ مارس من سنة ١٨١١ رزق منها غلاماً لقب منذ ميلاده بملك رومه وكان ذلك منتهى سعادة هذا الرجل وتوفيقاته

الباب السادس والسبعون

فصل

(في فوز تحالف الشعوب والملوك على نابليون (١٨١١ — ١٨١٥)

« تنبه الشعوب واستعداد المانيا للثورة »

ان الشعوب التي لم تتأثر بادئ بدء لما أبدله نابليون من ملوكها وأمرائها لم تلبث ان شعرت بانها أخطأت وعرضت كرامتها للانحطاط اذ ان ربقة الاجنبي لا تطاق ولو كان الاحسان مثقلها فنهضت من غفلتها وأبغضت فرنسا بعد الحب لها وسنرى ملوكها يقوون على نابليون بمعونتها بعد ان كانوا يعجزون عنه بدونها.

ولما انتصر نابليون في واغرام وهدم المحالفة الخامسة كان قائداه جونو وماسينا في اسبانيا لم يستطيعا فتح البرتغال التي كانت انكلترا تمدها بالمال والقواد وسلم القائد دوبون مدينة بايلني بصورة مخجلة فاشتدت عزائم انكلترا ونوت الحرب الى ان تفوز اذ

رأت ان هذا الفشل دليل على ان جيش الامبراطور مع كل ماسبق له من الانتصارات صار الى حالة يجوز معها التغلب عليه .

اما بروسيا فانها بعد ان سلمت جيوشها وحصونها على أثر موقعة يانا أخذت تصلح شؤونها على يد وزراء أجانب أحيوها وعززوها وهم البارون شتين دي ناسو وشارنهورست الالمانيان وهاردنبرج الهانوفري . وكان شروع أولهم في اصلاحها عقيب مصالحة تيلست فالغى رق الفلاحين ومنحهم حق الامتلاك وجعلهم يشعرون بوجودهم السياسي وجعل رتب الضباط في الجيش مشروعة للشريف والوضيع بلا فرق الا في الكفاءة والبسالة واستطاع ان يعد في سنين قليلة ١٥٠ الف مقاتل مع انه كان محظوراً على بروسيا ان يكون لها أكثر من ٤٢ الف جندي عامل .وفي ذلك الوقت الف بعض الاساتذة جمعية سرية تحت اسم جمعية الفضيلة انتشرت انتشاراً عظيماً في جميع المانيا وفي سنة ١٨٠٩ حاول أحد أعضائها قتل نابليون في شن برن فاضطدها من أجل ذلك فظلت تعمل في الخفاء الى ان ظهرت نتائج مساعيها في نهضة ١٨١٣ .

﴿ فصل ﴾

﴿ في تقدم الافكار الحرة في أوربا ﴾

عندما كانت ترد أخبار مقاومة الاسبانيين لجنود نابليون كان

الوزير شتين يهول بها ويجسمها لاستنهاض همة الشعب فعزله نابليون فاستخلفه ملك بروسيا فريدريك غليوم بهاندوف فجرى على خطته ولكن باعتدال ومن مآثره تأسيسه كلية برلين التي كان يصدر منها الاستاذ فشت خطبه المهيجة للشعب الالماني . وكان كذلك جماعة من الشعراء يكتبون القصائد الحماسية ينشدون بها الوطن المفقود

اما اسبانيا فلما عجزت عن مقاومة الامبراطور بالسلاح حاربته بطلبها الحرية على مثال ما سنتها فرنسا في ثورتها وكان القائم بهذا الاقتراح مجلس نواب قادس وجرى ملك نابولي المعزول الذي لجأ الى صقليا على هذا المجرى في تلك الجزيرة فانه منح شعبها دستوراً كدستور انكلترا . وعلى هذا النمط انتشر روح الحرية بين الشعوب فكان لا بد ان يسقط استبداد فرنسا بهامها مهما عظم الرجال القائمون به

﴿ فصل ﴾

﴿ في موقعتي موسكو (١٨١٢) وليبزيك (١٨١٣) ﴾

« والغارة على فرنسا ١٨١٤ »

وبينما كان نابليون مستخدماً ٢٧٠ الف مقاتل من أفضل جنوده في محاربة قادس والجيش الانكليزي الذي ارسل لانجادها بقيادة ولنجتون الشهير اراد اكراه روسيا على الاشتراك في الحصار البري وفي ٢٤ يونيو ١٨١٢ اجتاز نهر النيامن في ٤٥٠ الف مقاتل وكسر

الروسيين في ويتبسك وسوملنسك وفالوتينا وموسكو ثم دخل مدينة موسكو وقد أحرقها أهلها قبل مغادرتها فاضطر أن يتقهقر بعد زمان قليل خوف قضاء الشتاء في بقعة خربة ففقد في الطريق بين الثلوج وخصوصاً في ممر البرسينا قسماً كبيراً من الجيش وجميع الركائب ومعظم الاثقال .

وكان الشاعر أرند في اسوج والوزير السابق شتين في روسيا يعلان بروسيا قصائد ورسائل يدعوان بها الشعب الى الثورة على نابليون ويحثون الجنود البروسيين المقاتلين معه على الغدر فنتج من ذلك أن جيشاً بروسياً بقيادة يورك ترك نابليون وانضم الى الروس وان ولايات المقاطعة البروسية ثارت وجهزت ٦٠ الف مقاتل عملا بايعاز شتين الذي قدم اليها وهذا قصده فاضطر الملك فريدريك غليوم بعد تردد طويل ان يحالف روسيا بمعاهدة كاليش (٢٨ فبراير ١٨١٣) على ان تضمن له الاستيلاء على مملكة ساكس الالمانية . ثم أصدر أمراً يدعو به شعبه الى السلاح والتفاني في سبيل الوطن وأخذت الخطباء تخطب والكتاب تكتب في هذا المعنى وكان ذلك ابتداء ما سمي « بحرب الامم »

أما نابليون فبعد أن اجتاز البرسينا ذهب مسرعا الى باريس وعبأ جيشاً . وكانت الدول حليفاته قد خذلته عدا الدانمرك . وكانت اسوج اول الدول التي حملت السلاح عليه بقيادة برنادوت أحد قواد فرنسا

السابقين وكانت النمسا مع ما بين امبراطورها ونابليون من النسب تنتظر الفرصة للانضمام الى الروسيين وكانت المانيا تحركها الجمعيات السرية لقلب ظهر المجن للفاتح. غير ان انتصارات نابليون الباهرة في لوتزن وبوتزن وورشن سنة ١٨١٣ منعت النمسا من الخروج عليه الى حين. ولكنها لم تلبث ان ضمت جيوشها الى جيوش الاعداء وكانوا ثلاثمئة الف يوم التقوا في ليبزك بجيش نابليون المؤلف من ١٣٠ الف مقاتل فاعترك الفريقان ثلاثة أيام كاملة اعتراكاً هائلاً ثم انفصل الساكسونيون عن جيش نابليون ليحاربوه مع أعدائه فدارت الدائرة عليه للمرة الاولى وعاد راجعاً الى الرين. على ان نابليون لو امتنع عن محاربة روسيا وأعان امريكا في الحرب التي شهرتها على انكلترا قبل سفره الى موسكو لما أصابه هذا الفشل ولقضى لبانته من اذلال بريطانيا العظمى.

وفي السنة التالية كان ابتداء حرب فرنسا التي أظهر فيها الامبراطور من عجائب ذكائه وبسالته ودهائه مالا يحيط به الوصف. فقد قاتل جيوش أوربا كلها ببضعة آلاف من الجنود وانتصر عليها في شامبوبير ومونميرايل ومونترو غير انها كانت مع ذلك تتقدم لان طلاب الحرية ودعاة الملكية كانوا يقابلونها مقابلة المنقذين والاعوان ويخذلون نابليون لينضموا اليها. وكان ولنجتن قد دخل من الجنوب بجيش انكليزي وقوبل بالترحيب غير ان

المارشال سولت صادمه في طولوز فصده عن التقدم حيناً ولم يستطع ارجاعه . ولما وصل الاعداء الى أبواب باريس كان في وسع الامبراطور ان يهاجم الاعداء من خلفهم ويرجعهم عنها غير انها سلمت في اثنتي عشرة ساعة (٣ مارس) وقرر مجلس الشيوخ خلع الامبراطور . وفي ١١ ابريل وقع نابليون على كتاب استقالته .

فصل

في العود الاول والايام المئة وموقعة واترلو (١٨١٤ — ١٨١٥)

فاتفق الفاتحون على تعيين لويس الثامن عشر ملكا لفرنسا فخلفت الراية البيضاء الراية المثلثة الالوان وأعيدت فرنسا الى تخومها التي كانت لها قبل الثورة ورد الملك الى الاعداء بمقتضى معاهدة باريس ٥٨ من المعاقل والحصون التي أجلى الفرنسويين عنها و ١٢٠٠٠ مدفع و ٣٠ سفينة عادية و ١٢ بارجة (٣٠ مايو ١٨١٤) ثم حاول ان يسترضي الامة بعد هذا الذل بما منحها اياه من الامتياز الدستوري الذي عدل به نظام الملكية القديم وأهم مواده ان يكون لفرنسا مجلسان عاليان تعرض عليهما المسائل العظمى . وبهذا لم يرض الملك حزبه ولا غيره فعلم ذلك نابليون وهو في جزيرة الب فتقدم فرنسا في ثماني مئة جندي ونزل على أحد شواطئ بروفانس فارسلت جنود لمقاتلته والقبض عليه فانضمت اليه ثم دخل باريس بدون

اطلاق زناد واحد وكان البوربونيون قد برحوها قبيل وصوله . فأول مافعله انه أصدر الدستور الاضافي وجعل فيه أكثر مواد الدستور الواضع له لويس الثامن عشر وذلك ليستميل به حزب الاحرار ثم وطد الامن توطيداً في أطراف البلاد . وكان الامراء المتحالفون لم يصرفوا عساكرهم ولم يزالوا مجتمعين في ويانه لعقد مؤتمرها وحل مشاكل أوربا فلما علموا بعودة نابليون أرسلوا ٨٠٠ الف مقاتل على فرنسا فقهر نابليون البروسيين في ليني (١٦ يونيو ١٨١٥) ثم تقدم في ٦٥ الف مقاتل فالتقى بخمسة وتسعين الفاً من الانكليز والباجكيين والهانوفريين في واترلو فقاومهم نصف نهار ظاهراً عليهم ثم أخذ وانجتن يتقهقر برجاله واذا بجيش للبروسيين تحت قيادة بلوشر قد وصل وكان فاراً من وجه القائد الفرنسوي غروشي فحمل على عساكر نابليون وهي متفرقة منهوكة من التعب فكسرها (١٨ يونيو) فاستقال نابليون ثانية على ان يخلفه ابنه (٢٢ يونيو) ولكن المتحالفين عادوا فدخلوا باريس وردوا لويس الثامن عشر اليها . اما نابليون فالتجأ الى انكلترا فغدرت به وعدته أسير حرب ونفته الى جزيرة القديسه هيلانة في وسط المحيط الاتلانتيكي فقضى فيها ست سنين وفي اليوم الخامس من شهر مايو سنة ١٨٢١ توفي ذلك الرجل العظيم الذي فاق ابسل ابطال الدنيا وأمهر مديري سياستها .

الباب السابع والسبعون

{ في مؤتمر ويانه والمحالفة المقدسة }

{ فصل }

{ في مؤتمر ويانه (١٨١٥) }

لما دخل المتحالفون باريس ثانية عقدوا فيها معاهدة غير الاولى (٢٠ نوفمبر ١٨١٥) أهم مقتضياتها ان تؤدي فرنسا غرامة حرب تبلغ ٧٠٠ مليون وغرامات لارباب ظلامات مختلفة من الافراد تبلغ ٣٧٠ مليوناً وان يحتلها المتحالفون احتلالا عسكريا مدة خمس سنين وان تخرج من حدودها شامبري وفيليبفيل ومارنبرج وسارلويس ولاندو ودوقية بويون وان تدمر الحصون والمعاقل في ثلاثة مراكز من خطها الدفاعي تسهيلا لعود المتحالفين اليها اذا مست الحاجة الى ذلك وان تستولي انكلترا على تاباغو وسنتلوسي وجزيرة فرنسا وجزائر سيشل من المستعمرات الفرنسوية وان تمنع فرنسا من تحصين مستعمراتها في الهند .

اما مؤتمر ويانه الذي عقد في سبتمبر سنة ١٨١٤ لتسوية مشاكل أوربا فقد كان أشبه بسوق بيعت فيه الرجال البيض اذ كان اقتسام الدول المنتصرة للبلاد المطموع فيها بحسب عدد

النفوس وأصناف السكان فان أحد سكان الضفة اليسرى من الرين مثلاً كان يسوى اكثر من أحد سكان الضفة اليمنى من الاودير وهكذا على أن هذه المعاهدة كادت تنقض قبل عقدها لاتفاق فرنسا وانكلترا والنمسا على ذلك بسبب ما اتفقت عليه روسيا وبروسيا من أن الاولى تضم اليها مملكة ساكس وكانت الدول التي عارضت هذا الاتفاق تود بقاء ساكس على استقلالها ففازت بما تريده وأعطت بروسيا ولايات الرين بدلاً منها وكان من هذا البدل منشأ مصائب فرنسا فيما بعد . اما روسيا فأخذت أفضل قسم من غراندوقية فرسوفيا الى أبواب بوزن وكراكوفيا وأخذت غاليسيا الغربية ودائرة زاموسك . وأما النمسا فاعطيت ولايات البندقية وراغوز وأودية فالتلين وبورميو وشيافينا وسالزبورج وتيرول وفورارلبرج واما بروسيا فمنحت دوقية بوزن وبوميرانيا الاسوجية و ٧٠٠ الف نفس فى ساكس ووستفاليا وبروسيا الرينية واما انكلترا فلم تكن لها مطامع في القارة الاوربية بل اكتفت باسترجاع هانوفر التي كانت من أملاك تاج ملوكها وبقيت له بعد ذلك الى سنة ١٨٣٧ واحتفظت بما غنمته من المستعمرات في جميع البحار من حروب الثورة والامبراطورية وهي هلبوغولند امام مصاب الالب والويزر والجزائر اليونية بمستقبل البحر الادرياتيكي ومالطه بين صقليا وافريقيا وسنت لوسي وتاباغو في جزائر الانتيل

وجزائر سيشل وجزيرة ايل دي فرانس في بحر الهند والاملاك الهولندية في رأس الرجاء الصالح وفي سيلان .

ولم تكتف الدول المتحالفة بكل ما استزادته من هذه الاملاك التي كانت لفرنسا بل ضمت باجكا وهولنده الى مملكة واحدة تحت صولجان البرنس دورانج لتكون بمثابة مركز امامي لها في شمال فرنسا وأعطت القسم الاكبر من البلاد الرينية لبروسيا وقسماصغيراً منها لهس دراmستاد وبافاريا بحيث تضبط بذلك فرنسا من الشمال الشرقي وردت سافوا للملك ياموتني بحيث جعلت مدينة ليون على مسيرة يومين من الجيوش التحالفية . اما المانيا فقد طال الجدال في أمرها ثم تقرر ان لا تعاد الامبراطورية اليها وان تبقى حكوماتها الكثيرة المختلفة على استقلالها الداخلي التام ويكون لحكامها مجلسان ينظران في الشؤون الخارجية احدهما عادي وهو الذي يجتمع فيه ١٧ من الامراء الكبار والآخر عام وهو الذي يجتمع فيه جميع الحكام ويكون المجلسان أبداً تحت رئاسة النمسا . وعلى هذه الصورة جعلت المحالفة الالمانية عدوة لفرنسا .

ثم ان سويسرا منحت قسما من جكس وآخر من سافوا فتم بذلك الاتحاد الحلفيشي (السويسري) الذي جعل المؤتمر استقلاله تحت ضمانة الدول على الدوام .

وأعيدت للبابا وللملك صقليا أملاكهما المفقودة في ايطاليا

واسترجعت النمسا نفوذها الاول فيها باخذها ميلانو والبندقية وتوابعها ووضعها الحاميات على الضفة اليمنى من البو ونصبها أحد صنائعها على عرش توسكانا واشتراطها رجوع ملكية بارمه وبايزانس وغواستالا اليها بطريق الارث عن الامبراطورة ماري لويزه التي منحت ريع تلك الدوقيات من حياتها . وفي الختام ضم المؤتمر نروج الى اسوج تعويضاً لاسوج عن فقد فنلانده التي سلبتها روسيا اياها وأعطى الدانمرك لونبورج عوضاً عن نروج فأصبح ملك الدانمرك بامتلاكه هذه الدوقية عضواً في الاتحاد الجرماني وبالتالي عدواً لفرنسا بعد ان كانت دولته حليفة لها في حالتي السراء والضراء زمانا طويلا .

﴿ فصل ﴾

﴿ في التحالف المقدس (١٨١٥) ﴾

على أن هذا المؤتمر الذي تمت أعماله في ٩ يونيو سنة ١٨١٥ كان أعظم عمل سياسي قامت به اوربا بعد معاهدة وستفالي ثم اراد امبراطور روسيا والنمسا وملك بروسيا ان يلونوه بصبغة دينية فعقدوا في ١٤ ستمبر سنة ١٨١٦ معاهدة التحالف المقدس في باريس « ليظهروا بها للدنيا صحة عزمهم على جعل أساس سياستهم في الداخل والخارج « الدين المسيحي دين العدل والمحبة والسلام » وأنهم

مندوبون من لدن الله ليحكموا النمسا وبروسيا وروسيا باعتبار أنها فروع لاسرة واحدة » وهكذا مسحت جنايات مؤتمر ويانه على كثير من الاقوام الضعيفة بصبغة التقديس وجعلت المطامع والمحارم التى ارتكبها تحت راية « دين العدل والمحبة والسلام ».

الباب الثامن والسبعون

﴿ في التحالف المقدس والجمعيات السرية والثورات ١٨١٥ — ١٨٢٤ ﴾

﴿ فصل ﴾

﴿ في الروح الحديث والروح القديم من سنة ١٨١٥ الى ١٨٣٠ ﴾

ان الثورة أحدثت فكرين عظيمين وهما المساواة بين الافراد امام القانون والحرية السياسية للامم. وقد فاز الاول وانتشر في اوربا بقانون نابليون وسيفه واما الاخر فانكره الذين انتصروا في ليبزيك وواترلو وحاربوه من سنة ١٨١٥ الى سنة ١٨٣٠

﴿ فصل ﴾

﴿ في محاولة ارجاع النظام القديم ﴾

رأينا فيما سلف ان ثورة ١٧٨٩ انشئت لتمنح الانسان كل ما يستطاع منحه اياه من الحرية ولكن الحروب التي استمرت على أثر

الثورة ثلاثا وعشرين سنة نقضت هذا المبدأ من حيث أبدلت الجنود المتطوعين بالدوريين ووحدت السلطة الادارية التي كانت متفرقة وعودت الرعية على القيام باكثر مما كانت تقوم به من ضريبة المال وضريبة الدم أو التجند. ولذلك أصبح الملوك بعدواترلو ذوي سطوة أعظم واستبداد أشد وسعوا الى تعزيز الروح القديم وقتل الروح الجديد .

ففي بالرمه ومدريد الغي دستور ١٨١٢ وأعيد الاستبداد. وفي ميلانو أبدل القانون الفرنسوي بالقانون النمسوي . ورجعت الحالة العامة في بيامونتي وفي بلاد الكنيسة الى ما كانت عليه سنة ١٧٩٠ وتعهد ملك صقليا لامبراطور النمسا انه لايخالف رأيه في المبادئ التي يجب ان تدور الحكومة عليها فنتج من ذلك ان أعيد التفتيش الديني في جنوب الالب والبيريناي وردت امتيازات الكهنة اليهم ونفي الاحرار وسجنوا وقتلوا

اما في المانيا فتناسى الامراء ماوعدوا به شعوبهم سنة ١٨١٣ من الاصلاح الدستوري الا في بافاريا وبعض الولايات الصغيرة . وأما النمسا وبروسيا فاستمرتا على حالها لكثرة ضغطهما على الشعب بالالوف المسلحة من الجنود حتى كأنه لم يحدث أمر جديد في أوربا منذ ربع قرن. وأما في انكلترا فكانت سياسة المحافظين موجهة الى تأييد مصالح الشرفاء اذ كادت تغلب على ثروتهم ثروة أرباب الصنائع

التي زادها اكتشاف اركرايت لمغازل القطن ووات للآلة البخارية وفلتون للباخرة وستفانسون للسكة الحديدية (١٨٢٤) ودافي للمصباح المأمون ولذلك وضعوا لائحة تسهل مبيع القمح في السوق الانكليزية لمحاصيل أراضي اللوردية ولو نجم عن ذلك عسر دائم للاهالي وعرضوا من أجله للمجاعة أحياناً

وأما في فرنسا فقد تحولت الحال حتى أصبح أعضاء مجلس النواب يصرحون علناً برغبتهم في الرجوع الى النظام القديم وقد استصدروا من الملك احكاماً رسمية وغير رسمية بفظائع ومنكرات كان بعضها مرغماً منها نفي ٥٧ بريئاً وقتل المارشال ناي وجماعة من القواد ومنها الايعاز بقتل المارشال برون والقائدين رامل وليغرد ومنها احداث مذابح كمذابح أيام الارهاب واقامة محكمة شديدة كمحكمة الارهاب. وقدارتكب فرديناندالسابع مثل هذه الجرائم في مدريد. وكذلك حكومة نابولي سلحت عصابة الكالدراري (المرجليين) لينهبوا ويسلبوا عصابة الكاربوناري (الفحامين) من الجمعيات السرية.

اما لويس الثامن عشر فقد ساءه مارآه من تمادي الملكيين في غيهم وفي مبادئهم القديمة المناقضة للروح الجديد ففض مجلس النواب الذي كانت أغلبية أعضائه منهم (٦ ستمبر ١٨١٦) وبعد ذلك كثر الاحرار في مجلس النواب وكانوا حزب الشمال برئاسة

لافايت وبنجامين كونستان وغيرهما وكان من ذلك العهد ابتداء سير الحكومة الفرنسوية في سبيل النيابة عن الشعب بطريقة منتظمة وساعدها الملك على هذا السير بحكمته واعتداله .

﴿ فصل ﴾

﴿ في تعاهد الكنيسة والحكومة وذكر الأخوية ﴾

روينا فيما سبق رجوع بعض الدول الى الافكار الدينية لتصبغ بها أعمالها السياسية وقد انتهزت الكنيسة هذه الفرصة لتأييد تعاليمها ومحاربة المذاهب الحرة التي كانت تخشاها أكثر من شذوذ لوثير وكالفينوس عنها وما زالت تزيد في مطالبها بقدر ما يتسع نطاق الحرية الفكرية حتى أتمت عملها في هذه الايام بما قررته من عدم قابلية البابا للخطأ .

وفي سنة ١٨١٤ أصدر البابا بيوس السابع أمراً مناقضا للامر الذي أصدره البابا اكليمندوس الرابع عشر في سنة ١٧٧٣ بالغاء رهبنة اليسوعيين فتجددت شركتهم وانبثوا في أطراف الارض ودخل بينهم أمراء ذهبوا الى أقاصي الدنيا لارشاد الناس وتولوا ادارة المدارس في أكثر بلاد أوربا الا فرنسا فان المدارس عهدت ادارتها فيها للاساقفة .

وفي ذلك الوقت قام جماعة من كبار الكتاب خصوصاً في

فرنسا يدعون الناس الى التدين وأشهرهم شاتوبريان وبونالد ودي مستر والكاهن لامناي الذي خرج عن الكنيسة فيما بعد ثم ثم هيكو ولامارتين وغيرهم . وكل ذلك اعان الكنيسة على استرجاع سطوتها . ولا عجب بهذا الانقلاب السريع الذي حدث فانما هو نزاع بين المبادئ الحرة والمبادئ التقليدية كان لابد من حصوله لتتمحص منه الحقيقة .

وقد حدث في المانيا ان فريدريك غليوم الثالث انتدب لحماية البروتستانية في المانيا وأراد ان يوحد هذا المذهب ليقاوم به وحدة الكثلكة فادخل عليه شعائر دينية منافية للمبدإ الذي وضع لاجله فقسد مقصده عليه . غير ان غليوم الاول امبراطور المانيا عاد الى تحقيق هذه الامنية في هذا العهد ولكن على شكل آخر وذلك بأنه جعل الكنيسة أية كانت صورتها خاضعة لصاحب المملكة وما يتعلق بالكنيسة تحت سيادة الحكومة .

وعلى هذا النمط تم رد الفعل الذي أحدثته الثورة غير انه لم يكن ليدوم ولم يلبث أهل الروح الجديد وأعوان الحرية ان أخذوا نقاومونه بطرائق كثيرة مختلفة سيرد ذكرها .

﴿ فصل ﴾

﴿ في حرية التحزب والجمعيات السرية ﴾

فالروح الجديد روح الدستور الموضوع في سنة ١٧٨٩ أو

الموضوع في سنة ١٨٠٤ كان ذا ملايين من الانصار في البلاد على اختلافها فهم في بلجكا وايطاليا وبولونيا دعاة وطنية لا يطيقون غير الاجنبي وفى سائر الدول زمر من الفرانماسون أو الجمهوريين المستحدثين وجميعهم يدافعون عن الافكار الحرة هذا بخطبه في مجلس نواب لم تقفله يد الاستبداد وذاك بمقالاته فى الجرائد التي لا تضيق عليها المراقبة والآخر بتآليفه من شعرية ونثرية الى ماشا كل هذه الوسائل . وهؤلاء كانوا يريدون التقدم السلمي وهو الاصح والافيد غير ان فريقاً كبيراً من ذوي المغالاة فى مبادئهم لغايات أو منافع ذاتية كانوا يريدون الثورات والقتل وهم أعضاء الجمعيات السرية التي منها « فتية الشمس » واشياع الدبوس الاسود « والوطنيون اشياع سنة ١٨١٦» وعقبان بونابرت » وهذه الجمعيات وما شاكلها كانت محلية . وكانت بازائها جمعيات أخرى عامة ممتدة فى البلاد على اختلاف شعوبها كجمعية « الوطنيين الاوربيين المصلحين » وانصار البعثة العامة » وغيرها . وهذه كانت تستثير الشعوب على الملوك ثم أخذ خلف رجالها الاولين يسعون فى توحيد الامم بدون تمييز وطن عن آخر لاعانة الفقراء على الاغنياء والفعلة على أصحاب المعامل . ومن أشهر هذه الجمعيات جمعية الكاربوناري وسموا بالفحامين لانهم كانوا يجتمعون في اقصى الغابات فى اكواخ الفحامين وكان اكثر انتشارهم في ايطاليا وفرنسا

واسبانيا . وكانت في اليونانية جمعية الهتيري وفي بولونيا جمعية « الدواوية » و الحصادين » . وكل هذه الجمعيات كانت تقاوم الحكومات في الخفاء ولذلك اتخذت الحكومات شركات تماثلها لتقاومها بها فكانت لها جمعية « السانفديست » في ايطاليا و « جنود الايمان » في اسبانيا و « إلادلسكت » في بروسيا و « والفردينا ندية » في النمسا و « الاخوية » في جميع البلدان .

وقد رأينا فيما سبق نشأة جمعية « الفضيلة » في المانيا فلماردت بمساعيها التيجان واسرة الملك الى الامراء الذين فقدوها كافأوها على ذلك بان حلوها وشتتوها فنشأت على أثرها جمعيتان سريتان احداها « الارمينيا » والاخرى « تعاون الرفاق » وكبر حزبهما وانتشرت دعوتهما لاتحاد المانيا واستقلالها بين الشعب حتى ان جمهوراً من العامة قاموا في يوم ذكرى انتصار ليبزيك ونشأة البروتستانية بمظاهرة عظيمة نشروا فيها راية الاتحاد الالماني وأحرقوا فيها الكتب المنافية لمبادئهم فكان من الامراء الجرمانيين ان عاقبوا الشعب على هذه المظاهرة بالغاء كثير من المدارس الكلية منها اربع اقفلت في البلاد البروسية وحدها .

فصل

{ في المؤامرات (١٨٠٦ — ١٨٢٢) والثورات (١٨٢٠ — ١٨٢١) }

وقد رأى الملوك والامراء أن يزيدوا الضغط على ارباب

الافكار الجديدة املاً منهم انهم يمنعون بذلك هبوب ريح الحرية التي كانت تعصف في كل مكان غير انه لم ينتج من شدتهم سوى التجاء الشعوب الى التآمر والتواطؤ وذلك من سنة ١٨١٦ الى ١٨٢٢ ثم الى قتل بعض الامراء والوزراء وبعض المنتصرين لهم من الكتاب وذلك من سنة ١٨١٩ الى ١٨٢٠ ثم الى الثورات وذلك من سنة ١٨٢٠ الى ١٨٢١ . وكان أشد التآمر في حكومات التحالف المقدس وأعظمه انتشاراً في فرنسا واسبانيا ونابولي وتورين والامارات الجرمانية واسوج واضعفه في روسيا التي كان لا يدخلها النور ولا الهواء المتجدد لتلبد طبقات شعبها بعضها فوق بعض الا بولونيا فانها اضطرت القيصر بعد الملاينة لها ان يضع المراقبة الشديدة على جرائدها ويلغي دار ندوتها ثم يعلن أن لا وجود للامة البولونية وانها فصيلة ملحقة بالشعب الروسي . أما انكلترا فسلمت من المؤامرات لان شعبها كان غير مضغوط عليه وكان يقترح ما يريده بالمظاهرات العلنية . وكان أول ما حدث من الثورات في اسبانيا فان الشعب عند ما رد لفرديناند السابع تاجه انفذ اليه نوابه فقابلوه على التخوم وعرضوا عليه دستور سنة ١٨١٢ فوافق عليه ثم قالوا له « لا تنس انك يوم تخل بهذا القانون فالعقد الذي جعلك ملكا علينا يكون محلولا » ولكن الملك نسي وبالغ في الاستبداد فاعاد التعذيب واكثر من اصدار الاحكام بالاعدام فجعل الشعب

يتآمر عليه سراً ثم يتظاهر الى أن ثار الجيش كله وأعان القائد رياغو في قادس (٥ يناير ١٨٢٠) والقائد مينا في البرانس عود البلاد الى دستور ١٨١٢ فقبل الملك وأقسم يمين الطاعة للدستور « بناء على إرادة الشعب » (٩ مارس ١٨٢٠) وفي اليوم نفسه طرد الجزويت الذين كانوا مستشاريه في استبداده والغى ديوان التفتيش وباع أملاكه لاستهلاك قسم من الدين العام بثمنها ورد الحرية للجرائد

وكان ما جرى في اسبانيا عنوان الفوز النهائي للروح الجديد على الروح القديم. وقد رنّ لهذه الثورة صدى في لشبونه (اغسطس) وآخر في صقليا ومملكة نابولي (لوليو) وآخر في بنفانتي وبونتي كورنو من عمالات الكنيسة وآخر في بيامونتي التي استقال ملكها (مارس ١٨٢١) وأخذ جماعة من ذوي المقامات يفكرون في تأليف اتحاد بين أمارات ايطاليا وممالكها وآخرون في ضم أشتاتها الى مملكة واحدة .

وعليه فان كل جنوب اوربا عاد الى الدستور وانطلقت ريح الحرية الى ما وراء البحر الاتلانتيكي فحملت مستعمرات اسبانيا على الاستقلال ومن جهة اخرى هبت على تركيا فأثارت الرومانيين واليونانيين عليها (مارس وابريل ١٨٢١) اما بولونيا فبعد فقدها حرية الجرائد (١٨١٩) ومجلس النواب (١٨٢٠) شكلت جمعيتي الدواوين والحصادين للتهييج واستعدت للثورة .

﴿ فصل ﴾

﴿ في علو كلمة التحالف المقدس في أوربا وحماتي ايطاليا (١٨٢١) ﴾
(واسبانيا ١٨٢٣)

عند ما أحست دول التحالف المقدس بوهي عملها وقرب وهنه أخذ ملوكها يجتمعون مراراً متوالية ويدير مناقشاتهم السياسي الشهير البرنس مترنيخ حاكم النمسا . وكانت خطة هذا السياسي الاحتفاظ بالحالة الحاضرة في كل مكان . ولما كثرت حوادث التآمر والقتل والهياج العام واشتبكت دسائس الجمعيات السرية اتفق مترنيخ والقيصر وملك بروسيا على تجديد الاتفاق بين الدول الثلاث فتم ذلك في اكس لاشابل (نوفمبر ١٨١٨) وتقرر ان يجتمع رؤساء تلك الدول أو وزراؤها ليقرروا المسائل التي يقتضيها السلم. وفي فبراير ١٨٢١ عقدوا اجتماعاً في ليباخ فقرروا « ان التغييرات التي تجري في الحكومات لا ينبغي ان تصدر الا عن ارادة « الذين ألقى الله عليهم مسؤولية السلطة » أي الملوك وكان معنى هذه العبارة ان كل ملك يكرهه شعبه على سن دستور لهم يحق له ان يستعين عليهم برصفائه الاجانب وكان أكثر الملكيين في فرنسا راضين عن هذه السياسة أما انكلترا فابت الاشتراك فيها وانفردت عن القائمين بها . وفي سنة ١٨١٩ انعقد مؤتمر كارلسباد في بوهيميا على أثر مقتل كوتزبو وكان الحضور فيه من الامراء الالمانيين

فقرروا وضع الكليات والمطبوعات عامة تحت المراقبة الشديدة وان تشكل لجنة في مايانس لتبحث عن أعداء النظام الجاري وتعاقبهم . ثم عقد مؤتمر في ويانه استمر ستة أشهر (نوفمبر ١٨١٩) واستصدر منشوراً من البابا شاجبا للجمعيات السرية وقرر اتخاذ جملة وسائل أخرى لمحاربة حرية الفكر وأنهى أعماله بنقض جميع الامتيازات التي كان ملوك الدول الثلاث قد وعدوا بها الشعوب الخاضعة لهم : ثم أخذ الذين في أيديهم أزمة سياسة المحالفة المقدسة ينفون ويسجنون العلماء والكتاب والفلاسفة وسائر المجاهرين بافكارهم الحرة ويلغون الجرائد والمجلات .

أما فرنسا فلما قتل فيها الشقي لوفل الدوق دي باري لتنقرض به سلالة بوربون الاولى تسلط حزب الملكيين المتطرفين على عقل لويس الثامن عشر وحملوه على مصادرة الحرية الشخصية واعادة المراقبة على الجرائد ثم فاز هذا الحزب في الانتخاب ولم يدخل مجلس النواب الا عشرة من الاحرار وذلك لما أثر في القلوب هذا الاعتداء . ولما اتفق حدوثه في ذلك الوقت من وضع أرملة الدوق دي باري غلاما (٢٩ ستمبر ١٨٢٠) ووفاة نابليون الاول (٥ مايو ١٨٢١)

أما دول التحالف المقدس فقد قررت في مؤتمرات تروبو (١٨٢٠) وليباخ (١٨٢١) وفيرونه (١٨٢٢) أن تقتل حرية الفكر

في اسبانيا وايطاليا فدخل جيش عظيم من النمسويين نابولي وتورينو ومسينا وكانت تنصب وراءه المشانق وتملأ السجون بالمتهمين في البندقية وليباخ وسبيابلر وقد وجد في سجون صقليا ونابولي ستة عشر الف نفس واعتقل ٤٠٠ نفس في الولايات التابعة للكنيسة مع انها لم تحدث فيها حركة. وأرجع ملك سردينيا السخرة (١٨٢٤) ومنع عامة الشعب الفقراء من التعلم (١٨٢٥) وأعاد للبابا القضاء المدني لمحاكم الاساقفة ورد حق الايواء والاغاثة للكنائس وصادر كل جمعية تشتغل بعلم أو أدب كرهاً لتنور أذهان الناس. ولما خلف البابا ليون الثاني عشر البابا بيوس السابع (١٨٢٣) أصدر منشوراً مانعاً للزواج المدني محمساً للملوك على عدم التساهل في أمر ديني. وأعاد التفتيش فملأ بمتهميه السجون ، وفي سنة ١٨٢٣ ظُن ان هذه السياسة افلحت حيث إمتنع التآمر والقتل والثورات ولكنه كان امتناعاً موقتاً . أما اسبانيا فارسل اليها لويس الثامن عشر جيشاً بقيادة دوق انجوليم لاخماد الثورة فيها وانما فعل ذلك لاسترضاء دول التحالف المقدس وليستعيد بعمل عسكري بعض مجد أجداده فدخل الجيش اسبانيا في ١٧ ابريل سنة ١٨٢٣ ولم يقاتل في طريقه قتالا يذكر الا قادس فانه حاصرها وفى ٣١ أغسطس أخذ مركز التروكاديرو فسلمت المدينة ودخلها الجنود ففتحوا السجون وأخرجوا منها المظلومين المطروحين فيها . ثم أصدر الدوق دانجوليم منشور

اندجوار وأراد به ان يمنع استبداد أي من الفريقين الملكي أو الحر بالآخر غير ان الملك فرديناند لم يقبل بهذا الشرط وأمر فسيق رياغو زعيم الاحرار الى المشنقة على حمار وقتل في ذلك المكان ٥٢ من أشياعه وساد الاستبداد . وقد جرى في لشبونه مثل ردّ الفعل الذي جرى في مدريد وانفرد ملكها بالسلطة . على ان الحملة الفرنسوية لم تكسب الملك فخراً يذكر في أعين مواطنيه ولم ينجم عنها في فرنسا سوى ان الوزارة «الاخوية[1]» التي قررت ارسالها فازت في الانتخابات التي جرت في ذلك الوقت بحيث لم يدخل مجلس النواب الا تسعة عشر من الاحرار

﴿ فصل ﴾

﴿ في كارلوس العاشر (١٨٢٤) والوزارة الاخوية ﴾

عند ما توفي لويس الثامن عشر المعروف باعتداله فاز المتطرفون من الملكيين كل الفوز ووضعوا التاج على رأس الكونت دارتوا (١٦ سبتمبر ١٨٢٤) وكان هذا الملك لم يستفد أدنى فائدة من العبر التي مضت مع انه كان أول المهاجرين في سنة ١٧٨٩ . ولذلك لم يكد يستقر على السرير حتى أرسل وزيره فيلال الى مجلس النواب يطلب

(١) نسبة الى الجمعية الدينية السرية المعروفة باسم الاخوية التي كانت من أعوان الحكومة الفرنسوية الملكية

منه منح ماليار تعويضاً للمهاجرين واعادة ادرة النساء وحق البكورية في الميراث وسن قانونين في نهاية الشدة على الجرائد . فوافق المجلس على جميع هذه الاقتراحات ولكن مجلس الشيوخ قاومها فاستمال الشعب اليه أياما معدودات . وفي شهر مايو سنة ١٨٢٥ جدد الملك حفلة التتويج على الشكل القديم فاقام الشعب مظاهرة عدائية ضد ذلك وكان القائد فوا من زعماء الاحرار قد توفي فشيع مشهده مئة الف نفس وفتح اكتتاب وطني جمع به مال كثير لدفع الفاقة عن أولاده .

الباب التاسع والسبعون

﴿ في اتساع نطاق الافكار الحرة ﴾

﴿ فصل ﴾

﴿ في فرنسا ونشأة المعارضة القانونية فيها وحالة الاداب والعلوم ﴾

وفي ذلك العهد توهم الناس ان فولتير بعث حياً لكثرة ما كانت تآليفه تنشر وأخذ الشعب يطالع كل قول حر بارتياح واقبال عظيم وحدث أن النفس الكتابي انقلب من الشكل القديم الى شكل جديد وسمي أربابه بأهل المذهب الروائي في الكلام (١٨٢٥ — ١٨٣٠) وقد كان الممهدون لهذا المذهب جوتي وشيلر الالمانيان وشكسبير

وبيرون الانكليزيان ثم مؤسسوه ورافعوه الى أسمى درجاته تياري وكيزو ودي بارانت ومينيه وميشله فى التاريخ وكوزين وجوفروا في الفلسفة وهوغو ولامارتين ودي فيني ودوماس وموسه وبالزاك في الشعر والروايات التمثيلية والقصص الموضوع وفيلمان وسنت بوف فى الانتقاد البياني الادبى . ووجد مثل ذلك المذهب في التصوير وامتاز به جاريكو ودي لاكروا واري شفر واينكر ودي لاروش وليوبولد روبرت وكذلك في النحت وامتاز به دافيد ورود . ثم ان العلوم التحقيقية اخذت تتقدم فاكتشف شامبوليون المكتوبات المصرية القديمة وكشف سلبي وريموزات الستار عن المشرقيات وكتب جنيو تاريخ الاديان القديمة وأوضح ما خفي من أمرها على الناس . وكل هذا زاد ترقية الإفكار واستمالتها الى الروح الجديد اياً كان شكله سياسياً أو غير سياسي . وكان لتقدم العلوم الطبيعية مثل هذا التأثير وهذه أسماء أشهر علماء فرنسا وبالتالي علماء الدنيا في ذلك الوقت: بواسون وامبير وفرسنل وكوشي شازل واراغو بيو ودولون في الفلسفة الطبيعية والحسابية وجاي لوساك وتينار وشفرول ودوماس فى الكيمياء وكوفيه وجوفروا وسنتيلار وبرونيار دي جوسيو وايلي بومون فى العلوم الطبيعية. والى سنة ١٨٣٠ كان قد تكامل اختراع البواخر والقطر و وضعت أساسات التلغراف الكهربائي .

﴿ فصل ﴾

﴿ في نشأة المعارضة القانونية في فرنسا ﴾

وكان في مجلس نواب فرنسا رجال عظام منهم شاتوبريان ورويه كولار ودي بروجلي وباسكيه ودي برانت وموله وبنجامين كونستان يخدمون الحرية خدما جليلة . ولمثل ذلك قامت جرائد عظيمة الشأن منها الكلوب والمراقب والديبا والكونستيتوسيونيل ورائد فرنسا فكانت كالحكومة الجديدة في داخل الحكومة تراقبها وترشدها . وكانت جمعية العلماء (الاكاديمي) تحتج على ما يوضع لمصادرة الحرية في نشر بعض الصحف والمحاكم تبرئ ساحة بعض كتاب الجرائد الذين كانت الحكومة تعتدي عليهم . وفي الجملة كانت الامة الفرنسوية تخطو خطوة عظيمة في طريق الفلاح لا في الآداب والعلوم والافكار وحدها بل في التجارة والصناعة أيضاً حتى انها استعادت في عشر سنين كل ما خسرته في حروبها السابقة.

وفي ذلك الوقت نشأ المبدأ الاشتراكي من قطرات قلم سان سيمون (١٨٢٦) ثم انتشر انتشاراً ضعيفاً في بدئه كان يضحك منه ولا يحسب له حساب . وكان في فرنسا حزبان الملكي والحر وكان الملكيون المتطرفون المعروفون برجال الاخوية هم السائدون. ولما توفي نابليون انقطع الرجاء من عود الامبراطورية لان ابن الامبراطور كان أسيراً في ويانه وابن أخيه لويس كان لا يؤمل منه

أمر ولذلك عول الاحرار على القبول بالملكية على شرط ان تقوم بالدستور حقيقة لا كذبا وعملوا على اسقاط وزارة «الاخوية» التي كانت اذ ذاك تتولى الشؤون وفي شهر ابريل من سنة ١٨٢٧ استعرض الملك جيش الحامية الوطنية فنادوا صفاً بعد آخر وهم تحت السلاح لتسقط الوزارة فحل الملك هذا الجيش في اليوم نفسه خوفا من الروح المبثوث فيه وأبقى الوزارة ثمانية أشهر بعد ذلك وكان رئيسها لا يزال فلالا ثم طرد ٧٦ عضواً من مجلس الشيوخ وأمر بتجديد الانتخابات العامة فاختار الشعب أكثر نوابه من الاحرار فسقطت الوزارة وخلفتها وزارة حرة رئيسها دي مارتينياك وكان ذلك منشأ أول معارضة قانونية في فرنسا فالغت الحكومة الجديدة مراقبة الجرائد وحظرت الاحتيال الذي كان يستعمل قبلها في الانتخابات وأيدت حرية الفكر وأعادت الى كلية السوربون بعض الفروع التي منع تدريسها فيها. وكان الروح الجديد في أكثر الدول الاخرى آخذاً بالسيادة على الروح القديم

﴿ فصل ﴾

﴿ في انكلترا وذكر هسكيسون وكانج (١٨٢٢) والكلام ﴾

« على ما وضع من الخطة الجديدة في السياسة »

(الخارجية وتقرير مبدإ عدم التداخل)

في سنة ١٨٢٢ سقطت وزارة المحافظين في انكلترا وخلفتها

وزارة احرار وكان كاننج تلميذ بيت الشهير قد انتقل الى هذا الحزب فتولى ادارة الحكومة وحول سياستها من خطتها القديمة الى خطة المقاومة لدول الشمال في تداخلها بما لا يعنيها من شؤون القارّة الاوروبية . وفي سنة ١٨٢٣ عين كاننج هسكيسون وزيرا للتجارة فاجرى من الاصلاحات العامة النفع ولا سيما في تعاريف المكس (الجمرك) مافرج كربة العامة الانكليزية الفقيرة ووسع رزقها واضعف امتيازات الشرفاء . وكان الايرلنديون في شقاء لايضارعه شقاء ولم يكن لهم من ينوب عنهم في مجلس النواب اذ كان الكاثوليك منهم وهم الاكثرون يعتبرون قصراً في نظر القانون فحاول كاننج اخراجهم من هذا الانحطاط فرفض اقتراحه اللوردات بعد ان قبله النواب (١٨٢٧) ولكن روبرت بيل الذي كان أول معارض لهذا الاقتراح اضطر بعد ذلك بسنتين ان يعرضه على المجلسين ويستصدر أمراً به (١٨٢٩) ومن مآثر كاننج انه وضع اللوائح الممهدة لتحرير الارقاء وكان البرلمان الانكليزي قد حظر النخاسة سنة ١٨٠٧ اقتداء بما قررته جمعية الكونفانسيون الفرنسوية في اوائل الثورة ولم يتقرر الغاء الرق الا في سنة ١٨٣٣

هذا وقد كانت طريقة اختيار النواب مختلة في انكلترا بحيث ان اثني عشر من البيوتات ذوات الاملاك الواسعة كانت تنتخب عن املاكها بمجرد ارادتها نحو مئة نائب . وكانت مدائن كبيرة

كنشستر وغيرها لا نائب لها . فلذلك تألفت جمعية بيرمنهام من جمهور عظيم وطلبت الاصلاح البرلماني وشفعته بطلب تخفيض الرسوم على الحبوب لتسهل وسائل الاقتيات بالقوت الضروري فلم يقبل الاقتراح الاول الا في سنة ١٨٣٢ والثاني في سنة ١٨٤٦ ومما تقدم يتبين القارئ ان انكلترا كانت تتقدم في داخليتها بلا زعازع ولا ثورات والفضل في ذلك للحرية التي كانت ممنوحة لاهلها. على أن كانج كان في سنة ١٨٢٤ قد خفض الضرائب باسقاطه نحو ٥٠ مليوناً من ايرادها وأسس صندوقاً للاستهلاك العام وخفض عوائد الفحم والجرائر والاصواف فزاد بذلك الثقة في مالية الحكومة ووسع نطاق للصناعة والتجارة . وقد علمنا من اشارة سبقت ان كانج كان غير راض عن سياسة تداخل البعض من الدول في شؤون البعض الآخر ولذلك نظر الى حملة فرنسا على اسبانيا لارجاع ملكها اليها بعين الكدر ثم حدث ان ثارت مستعمرات اسبانيا عليها فحمات دول التحالف المقدس سفير فرنسا على مفاتحة كانج في الوسائل التي يجب اتخاذها لاخماد انفاس تلك المستعمرات فاجابه انه ينبغي على كل دولة ان تلم شعثها بنفسها . وكان ذلك اعلانا لانفراد انكلترا عن تلك الدول في هذه الخطة .

﴿ فصل ﴾

﴿ في استقلال المستعمرات الاسبانية (١٨٢٤) ونشأة امبراطورية ﴾

{ البرازيل الدستورية (١٨٢٢) وثورة الاحرار في البرتغال (١٨٢٦) }

كانت اسبانيا تحظر الزراعات المفيدة على مستعمراتها في العالم الجديد وتستخدم اهاليها لاستخراج الذهب والفضة منها. فتستوردهما الى مدريد وترسل الى المستعمرات بدلا منهامصنوعاتها من حديد وخشب وكل شيء حاجي فلم يلبث هذا الاستبدادالذي لا يطاق ان أثار الخواطر فحملت المكسيك اول علم للانتقاض على اسبانيا في سنة ١٨١٠ اذ كان فتح نابليون لاسبانيا يمنعها عن انجاد حكامها في المستعمرات. ثم استقلت البلاتا (١٨١٦) ثم شيلي (١٨٢١) ثم بيرو وكولومبيا وامريكا الوسطى ولم تبق لاسبانيا الا بعض مراكز وجزيرتا كوباالامريكيةاليوم وبورتوريكو. وكانت اكثر الشعوب في اوربا تميل كل الميل الى الثائرين وتسر بتحريرهم دليل سعة مطانتشرت الاراء الحرة.

وقد بادر مجلس نواب واشنطن للاعتراف باستقلال تلك البلدان أما انكلترا فامتنعت عنه أولا وحظرت بيع الذخيرة للثائرين ثم عدلت عن هذه الخطة عندما أرسلت حملة فرنسوية للتداخل في تسكين ثورة اسبانيا جريا على مبادئ التحالف المقدس وأرسلت وكلاء سياسيين من قبلها الى تلك الحكومات الجديدة وطلبت عقد معاهدات تجارية معها.

وفي سنتي ١٨٢٦ جرت انكلترا على هذه السيرة الجديدة في

سياستها مع البرتغال . وتاريخ ذلك ان نابليون عند ما فتح مدريد واشبونه حرر المستعمرات الاسبانية وهو لا يدري

وقد عرفنا ما كان من ثورة هذه المستعمرات انتهازا لفرصة ضعف اسبانيا ونيلها الاستقلال . وكذلك حرر نابليون البرازيل على غير قصد منه فان قائده جونو عندما طرد من لشبونه آل براغنس وهم الاسرة المالكة في البرتغال لجأوا الى البرازيل (١٨١٥) فجعل الملك يوحنا السادس تخت ملكه فيها وأخذ يدير منها شؤون البرتغال (١٨١٥) وقد اضطر أن يمنح البرازيليين دستوراً يقيهم بوائق الاستبداد التي كانوا يحملونها قبلا ولما عاد الى البرتغال طلبت البرازيل الانفصال عنها والاستقلال فعين لها ابنه دون بدرو امبراطورا مقيداً بدستور جديد (١٨٢٢) . وكانت البرتغال قد التمست من ملكها في سنة ١٨٢٠ أن يمنحها دستورا اسوة بالمستعمرة البرازيلية فوضعه لها ولكن دسائس دون ميجل ابنه الثاني وانكسار الاحرار الاسبانيين (١٨٢٣) حالا دون انفاذه . ولما توفي يوحنا السادس (١٨٢٦) رجع الحق في خلافته الى ابنه دون بدرو فأبى تقلد تاج البرتغال ووضعه على رأس ابنته دونا ماريا ومنح الشعب دستورا جديدا . وكان قد اعتزل أيضاً امبراطورية البرازيل وتركها لابن صغير له أقام حواليه الاوصياء لادارة الشؤون . غير أن حزب الاستبداد والتأخر في البرتغال انكروا عليه دستوره واستخلاف ابنته . وكانت انكلترا ذات مصالح

كثيرة في هذه البلاد لانها كانت تستورد منها خمورها وتحمل اليها مصنوعاتها على اختلافها ولان كثيرين من الانكليز كانوا ذوي املاك واسعة فيها فعزم كانينج على الاخذ بنصرة الملكة دونا ماريا واوصيائها ثم لم يلبث ان توفي (٨ اغسطس ١٨٢٧) فقامت وزارة محافظين على أثر وزارته . وسنرى في الفصول الآتية ما كان من تأثير حل هذه المشكلة البرتغالية على السياسة العامة في الغرب

﴿ فصل ﴾

﴿ في تحرير بلاد اليونان (١٨٢٧) ﴾

كان بدء هذه الثورة في سنة ١٨٢٠ وسببها الدسائس الخفية التي كانت تدسها روسيا واشتداد الحكومة العثمانية على اليونانيين غير ان الحكومات الاوربية وفي مقدمتها الروسية انكرت هذه الثورة في اول امرها وحسبتها عصيانا ينبغي قمعه ثم لم تلبث ان انقلبت الى نقيض هذا الرأي بحكم الاضطرار وذلك لان الاحرار في جميع الدول ابدوا ميلا عظيما الى اليونانيين ثم وافقهم على ذلك المحافظون من قبيل الاكرام لليونانية القديمة ام الحضارة . وأخذ الشعراء ينشدون القصائد المؤثرة في هذا المعنى ويصفون الحمية والجرأة والمهارة التي اتصف بها الثائرون ولا سيما زعماؤهم نيكيتاس وبوتزاريس وكاناريس وأمثالهم فانهم كانوا يخرقون بالقليل من

جنودهم اكثف صفوف الانكشارية ويمرون بمراكبهم الصغيرة بين الاساطيل العثمانية فيحرقون كثيراً من سفائنها . واشهر اولئك الشعراء اللورد بيرون فانه جاد على هذا الشعب بثروته وحياته . فلما عظم اندفاع الرأي العام في هذا المجرى لم تستطع الحكومات مقاومته فطلبت انكلترا أن تكون الوسيطة فى انهاء هذه المشكلة ورفع غوائل الحرب التي ربما تنجم عنها فاجيبت الى ذلك ولكنها لم تفلح لان السلطان ابى ما عرضته عليه اعتماداً على أخذ الجيش المصري لميسولونجي واستيلائه على اكثر بلاد الموره فاضطرت انكلترا ان تتفق سراً مع روسيا وفرنسا (٦ يوليو ١٨٢٧) على وضع حد لوقائع ابرهيم باشا بن محمد علي باشا والي مصر في شبه الجزيرة التي احتلتها عساكره الفاتحة أما النمسا فلزمت الحياد خوفاً من ثورة احزابها الداخلية الكثيرة عليها فيما اذا تداخلت في عمل حربي ولبثت تنتظر الفرص وأما روسيا فكان لا يهمها امر هذه المسألة في شيء . ثم ان اساطيل الدول الثلاث المتفقة احرقت الاسطول العثماني في ميناء نافارين (٢٠ اوكتوبر ١٨٢٧) أصر الباب العالي لكن على عدم التسليم بما اقترح عليه فشهر عليه الروس الحرب (٢٦ ابريل ١٨٢٨) وكانوا قد فتحوا القسم الايراني من ارمينيا . ثم دخل الموره ١٥٠٠٠ فرنسوي بدعوى التعجيل في انهاء هذه المشكلة اليونانية التي كادت تصبح ذات عواقب وخيمة على العالم بأسره

﴿ فصل ﴾

﴿ في حل جيش الانكشارية (١٨٢٦) وفوز الروس (١٨٢٨ — ١٨٢٩) ﴾

وكانت الدولة العلية في ذلك الوقت لا قبل لها بعدوها الروسي لان السلطان محموداً كان قد حل جيش الانكشارية الشهير ونكل به تنكيلاً هائلا حيث أعدم ١٠٠٠٠ من رجاله في ٦ أيام في الاستانة وحدها (١٨٢٦) ولكنه لم يستعض عنه بقوة أخرى تقيه هجمات الاعداء ولذلك كان فوز الروس عليه سريعاً سرعة غريبة فانهم أخذوا سيليسـتريا (يونيو ١٨٢٩) ثم ارضروم (يوليو) ثم ادرنه (أغسطس) فهال هذا التقدم النمسا فاتفقت مع فرنسا وانكلترا على الزام القيصر نقولا ذلك الحد فاستعان بپروسيا فلم تجبه الى طلبه فرضي بالتوقيع على معاهدة ادرنه (١٤ ستمبر ١٨٢٩) التي قضت عليه برد فتوحاته ومنحته بدلا منها مصاب الدانوب وحق الملاحة في البحر الاسود وحماية مولدافيا والافلاق والصرب. وعلى هذه الصورة تم استقلال اليونانية التي اقيم عليها ملك في سنة ١٨٣١

اما الروح الحر فكان يزداد انتشاراً بوقوع هذه الحوادث واتساع نطاق الثروة العامة واباحة القول للجرائد .

الباب الثمانون

﴿في خيبة المساعي التي بذلت لاعادة الفوز للنظام الاستبدادي﴾
﴿القديم على النظام الدستوري الجديد﴾

﴿فصل﴾

﴿في دون ميجل في البرتغال (١٨٢٦) ودون كارلوس في اسبانيا (١٨٢٧)﴾

كان دون ميجل قد لجأ الى ويانه وأخذ يستثير البرتغال بدسائسه لاسقاط دوناماريا ابنة أخيه فزوجه دون بدرو بها وجعله وصياً عليها لينقذها من شره لحلف يمين الطاعة للدستور ولم تمض عليه أربعة أشهر حتى اغتصب الملك وأيده المحافظون الانكليز فثبتت قدمه واستبد. ويعدّ الذين قتلهم ونفاهم بالالوف ومع ذلك فقد وجده جزب التأخر على أقل مما يرومون من الاستبداد فنادوا بأخيه دون كارلوس ملكاً عليهم فلم يفلحوا.

﴿فصل﴾

﴿في وزارة ولنتن (١٨٢٨) ومجلس اتحاد فرانكفورت﴾

عند ما تولى المحافظون الوزارة على أثر وفاه كانِنج (٢٥ يناير ١٨٢٨) أخذوا يحولون السياسة الانكليزية الى وجهة جديدة وذلك انهم مالوا عن الاخذ بنصرة اليونانيين واستردوا اسطولهم من نهر

التاغوس وعضدوا الاستبداديين في البرتغال واعترفوا بحكم دون ميجل (١٨٢٩) . اما في الداخل فانهم حالوا دون استجلاب الغلال من الخارج وأبوا الموافقة على اللائحة القاضية باخراج الايرلنديين من اعتبارهم قصراً في نظر القانون غير انهم اضطروا بعد ذلك بسنة مراعاة للاحرار الذين عادت اليهم سطوتهم وتكاثر حزبهم أن يمضوا هذه اللائحة وأن يلغوا القانون القاضي على كل موظف قبل تولي وظيفته بان يحلف انه تناول السر المقدس على مقتضى الشعائر التي تجري عليها الكنيسة الانكليزية الرسمية

أما ايطاليا فكانت لا تتحرك في قبضة النمسا الحديدية وكذلك كانت المانيا بين أيدي امرائها فانهم شددوا المراقبة على الجرائد والتعليم لتكون افكار الناس كلها على ما تريده سياسة التحالف المقدس وجعلوا محاضر جلسات مجلس فرانكفورت سرية ليمتنع تأثيرها على الناس . ومع ذلك فقد جرى في ذلك العهد اصلاح كثير الفوائد المالية وهو الغاء المكوس فيما بين الامارات الالمانية وفرض ١٠ في المئة على ما يرد اليها من مصنوعات الخارج . ولقد جرى القيصر على خطة مجلس فرانكفورت في بولونيا فانه جعل مداولات نوابها سرية (١٨٢٥)

﴿ فصل ﴾

﴿ في القيصر نقولا ﴾

قبل ان توفي القيصر اسكندر في تاغانروك (دسمبر ١٨٢٥)
اكتشف مؤامرة كان هو المقصود بها وكان الجيش داخلا فيها
فاخمدها ولكنها جاءت دليلا على ان الافكار الحرة نفذت حتى
الى قلب بلاده مع منعه المطبوعات السياسية عن دخولها الا ماوافق
منها خطة التحالف المقدس .

وخلف هذا القيصر نقولا ثالث أنجال بولس الاول وكان
عنيفاً شديداً يعتقد انه منتدب من الله لتسويد الامة السلافية على
سائر الامم الغربية وحدث ان المؤامرة التي جرت في أواخر عهد
سالفه تجددت في أيامه وتقرر فيها خلعه وانشاء جمهورية اتحادية
سلافية فسحقها سحقا واستبد بحكمه مدة ربع قرن

﴿ فصل ﴾

﴿في وزارة بولينياك (١٨٢٩)﴾

كان كارلوس العاشر يحتمل وزراءه ولا يميل الى سياستهم لكثرة
ماشوش ذهنه جماعة « الاخوية » ولما انقضت عشرة شهور استبدل
الوزارة الحرة بوزارة بولينياك المحافظة المتطرفة فصرح النواب أنهم
لا يثقون بها فحل الملك المجلس فتجدد انتخاب جميع الاحرار من أعضائه

﴿ فصل ﴾

﴿ في فتح الجزائر (١٨٣٠) ﴾

إن الذي حمل فرنسا على فتح هذه البلاد ما أصاب قنصلها فيها من الاهانة فأرسلت في ٣١ يونيو سنة ١٨٣٠ جيشاً مؤلفاً من ٣٧٠٠٠ مقاتل بقيادة الكونت دي بومون فظهر على الجزائريين وفرقهم في الجبال وفي ٤ يوليو استولى على قصر الامير فامتلك به العاصمة وكان في خزائنها من الاموال ما أعاض فرنسا عن جميع نفقات حملتها

﴿ فصل ﴾

﴿ في ثورة ١٨٣٠ ﴾

وفي السادس والعشرين من ذلك الشهر أصدر الملك امرين قاضيين بمصادرة حرية الجرائد وبايجاد نظام انتخابي جديد تقرر القضاء ان ذينك الامرين غير قانونيين وثارت باريس في ٢٧ و٢٨ و٢٩ يوليو فقهرت جنود الملك فاستقال على أن يخلفه حفيده الدوق دي بوردو ولكن الشعب اختار الدوق دورليان رئيس الفرع الثاني من آل بوربون ونادى به ملكاً عليه (٩ اغسطس) بناء على نصيحة لافايت. وبلغ عدد القتلى في هذه الثورة ٦٠٠٠ نفس

الباب الحادي والثمانون

﴿ في نتائج ثورة يوليو في فرنسا وتنازع المحافظين والاحرار والجمهوريين (١٨٣٠ — ١٨٤٠) ﴾

{ فصل }

{ في الملك لويس فيليب }

قبل ان يجلس هذا الملك على سرير فرنسا اقسم انه يجري على مايقضي به الدستور الملكي وما أدخل فيه من التنقيح واهمه كان اعادة حرية الجرائد وان يمنع توارث عضوية مجلس الشيوخ وان لا يكون الدين الكاثوليكي دين الحكومة الرسمي الخ .

{ فصل }

{ في وزارة لافيت (١٨٣٠) }

قوي حزب الجمهوريين على أثر ثورة يوليو في فرنسا فاضطر الملك ان يسترضيه بشيء فعين زعيميه لافايت قائداً عاما للحامية الوطنية ولافيت وزيرا اول : وكان الملك يرى وجوب السكينة في الداخل وتأييد السلام في الخارج فلما تحركت ايطاليا للتحرر من ربقة النمسويين مال الوزير الى تعضيدها فخالفه الملك في هذا الرأي واستخلفه بكازيمير بريه .

{ فصل }

{ في وزارة كازيمير بريه (١٨٣١) }

صرح هذا الوزير انه يريد شيئين السير القانوني في الداخل وتأييد السلام في الخارج الا اذا مس شرف فرنسا وقد افلح في

الامرين فانه أدخل اسطولا الى لشبونه انتقاما لفرنسويين اهانهما دون ميجل فاعتذر وزراؤه وأدّوا الغرامة للمهانين. ورد الهولنديين عن باجكا بخمسين الف فرنسوي وأعاد النمسويين الى حدودهم التي تعدوها في ايطاليا. وأخمد ثورة في غربي فرنسا واخرى في ليون واخرى في باريس وكان سائداً على افكار الملك والمجلسين والوزراء وتوفي في ١٦ مايو سنة ١٨٣٢ باصابة وبائية

﴿ فصل ﴾

﴿ في وزارة ١١ اكتوبر سنة ١٨٣٢ ﴾

في عهد هذه الوزارة ثار الجمهوريون وتحصنوا وراء متاريس بسناري وقاتلوا جنود الملك يومين كاملين في ٥ و ٦ يونيو فانكسروا وضعف حزبهم وتعزز حزب المحافظين الاحرار وبعد ذلك بشهر توفي الدوق دي ريشستاد ابن نابليون الاول (٢٢ يوليو ١٨٣٢) فتخلصت اسرة اورليان من اشد مزاحم لها ثم حدث أن ام الدوق دي باري جاءت من منفاها متنكرة وأخذت تستنفر لها اهل غرب فرنسا فاخمدت الوزارة هذه الثورة ثم قبضت على الدوقة واعتقلتها وأخذت اقراراً منها بانها فقدت حقها في ولاية العرش لتزوجها سراً بأحد عامة الناس .

﴿ فصل ﴾

﴿ في سياسة فرنسا الخارجية ﴾

سنرى في الفصول الآتية ما كانت الخطة التي جرت عليها فرنسا بين الدول من سنة ١٨٣٠ الى ١٨٤٠ ولكننا نقول انها بانتصار جنودها في انفرس وردها هذه المدينة الى باجكا انهت مشكلة كان يخشى أن يستمر النزاع فيها ويوقد الحرب في اوربا. وكذلك فازت في الشرق بتوسطها فيما بين السلطان وتابعه المنتصر عليه محمد علي باشا من حيث ابقت مصر وسوريا تحت ولاية هذا الوالي فجعلته حامي طريق التجارة الاوربية في البحر الاحمر وخليج العجم الذي كان يطمع الانكليز فيه

ثم ان فرنسا عقدت مع انكلترا واسبانيا والبرتغال محالفة رباعية (٢٢ ابريل ١٨٣٤) تعهدت بها الدولتان الاوليان للدولتين الاخريين بحمايتهما من تسلط التحالف المقدس عليهما. وذلك لان البرتغال أسقطت دون ميجل وردت الملك الى دوناماريا فاعادت لها الدستور الملغى (١٨٣٤) ثم لان فردیناند السابع ملك اسبانيا عند ما حضرته منيته أمر ان لا يخلفه أخوه دون كارلوس رئيس حزب الاستبداديين

﴿ فصل ﴾

﴿ في فتنة باريس وليون (١٨٣٤) وجناية فياشي (١٨٣٥) ﴾

حدثت في باريس وليون حركتان ثوريتان قام بهما

الجمهوريون في سنة ١٨٣٤ فاخمدتا وحكم على ١٦٤ من الزعماء بعقوبات شديدة فانحلت بذلك عرى هذا الحزب الى حين وكان الجيش لازما الطاعة للملك والقضاء شديداً على الجمهوريين. غير ان احد المتطرفين من هؤلاء ويدعى فياشي اعد آلة محشوة بالقذائف القاتلة وفي ٢٨ يوليو ١٨٣٥ بينما كان الملك يستعرض الجيش اطلق فياشي عليه قذائف تلك الآلة فقتلت ١٨ نفسا حوالى الملك وجرحت ٢٢ وكان بينهم خمسة قواد اكبرهم مورتيه الذي اشتهر في مواقع نابليون وقد خرّ قتيلا لساعته فانتهزت الوزارة فرصة الكدر الذي احدثته هذه الجناية واقترحت اصدار قوانين جديدة يراد بها التعجيل في سير القضايا الجنائية لدى المحاكم والاقلال من عدد الجرائد برفع التأمين المطلوب للترخيص بها من ٤٨ الف فرنك الى مئة الف . ومن مآثر هذه الوزارة انها وضعت أساس النظام التدريسي في فرنسا

﴿ فصل ﴾

« في وزارة تيير س (١٨٣٦)

تقلد هذا السياسي الوزارة في ٢٢ فبراير ١٨٣٦ وبعد ان أتم توطيد الامن في الداخل اراد الجري على سياسة كزيمير بريه في الخارج فاول ما صرف اليه عزمه اعانة حزب الاحرار في

اسبانيا على ثوار الكارليين ثم رأى أن التقدم في فتح داخلية الجزائر بطيء فكلف المارشال كلوزل أن يتولى فتح أحصن مركز فيها وهو مركز قسطنطين. أما الملك فوافقه على حملة الجزائر وابى عليه ارسال نجدة لاسبانيا فاستقال وخلفه موله في رئاسة الوزارة (٦ ستمبر ١٨٣٦).

{ فصل }

{ في وزارة موله (١٨٣٦ — ١٨٣٩) }

افتتح عهد هذه الوزارة بمشكلات ومصائب فان المارشال كلوزيل لم يفلح في حملة قسطنطين لانه ترك بلا نجدة ثم أن البرنس لويس ابن أخي نابليون حاول أن يثير حامية ستراسبرج فقبض عليه ونفي من المملكة (٣٠ اكتوبر ١٨٣٦) ولكن شركاءه في الذنب حوكموا فاطلق القضاء سراحهم من حيث لم يكن بينهم المحرك الاول لهم فغضب الملك وعرض مشروع أمر عال يقضي بقسمة القضاء الي عسكري وملكي ليحاكم لدى أحدهما الجنود ولدى الآخر الملكيون فلم يوافق المجلس عليه وكان ذلك فشلا للحكومة غير أن الاحوال تحسنت في السنة التالية حيث عقدت معاهدة تافنه وسكن الهياج في مقاطعة أوران وفتحت قسطنطين (١٨٣٧). وأرسلت حملة الى المكسيك لانهاء مشكلة طالت مع حكومة هذه

البلاد فانتصرت على جنودها وادت المكسيك غرامة حربية. وفي ٢٤ اغسطس ١٨٣٨ رزق الملك غلاما فدعاه كونت باريس وظن ان به تثبيت قدم الاسرة المالكة في فرنسا. وكان الوزير موله قد استرجع الجنود الفرنسوية المحتلة انكون في ايطاليا فافسح بذلك مجال الامتداد للنمسويين ولم يفلح في التسوية النهائية للمشكلة الواقعة بين بلجكا وهولنده فاتفق كيزو وتيرس وأرديلون بارو من رؤساء الاحزاب في مجلس النواب على اسقاط وزارته فاستقالت في ٢٢ ينابر ١٨٣٨ فاستبقاها الملك وفض المجلس فكان الفوز في الانتخاب للمعارضين فسقطت الوزارة ثم وقع النزاع بين الاحزاب المتفقة فاستمرت من أجل ذلك الازمة الوزارية ستة أشهر

﴿ فصل ﴾

﴿ في وزارة المارشال سولت (١٨٣٩) ﴾

حدث أن بعض زعماء الجمهوريين حاولوا اثارة الشعب في هذه الاثناء فألفت وزارة برئاسة المارشال سولت ولم يكن أحد الرؤساء المتنازعين من أعضائها فلذلك لم تقم الا ستة أشهر من ١٢ مايو ١٨٣٩ الى غرة مارس ١٨٤٠ وفي هذه المدة نقض عبد القادر أمير الجزائر معاهدة تافنه ودعا قومه للجهاد فاجتاز المارشال فاله والدوق دورليان المدر الصعب المسمى بممر الابواب الحديدية

وبعد ذلك بشهرين غلبا جيش الامير المنظم في موقعة شيفا .

وقد وقعت على عاتق هذه الوزارة مسألة ضخمة كثيرة الاشكال هي المسألة الشرقية ولكننا سنعود الى البحث فيها في فصول منفردة بعد ان نبين ما كان لثورة يوليو الفرنسوية من الصدى في اوربا

﴿ الباب الثاني والثمانون ﴾

﴿ في نتائج ثورة يوليو في اوربا (١٨٣٠ — ١٨٤٠) ﴾

﴿ فصل ﴾

﴿ في حالة اوربا سنة ١٨٣٠ ﴾

كانت انكلترا في استعداد لاسقاط وزارة المحافظين وبلجكا وايطاليا وبولونيا للقيام بثورة وطنية. وكانت في اسبانيا والبرتغال وبلاد الاتحاد الجرماني حركة لتأييد المطالب الدستورية وكان كل ذلك وقوداً ينتظر شرارة لتشب ناره فبعثت الشرارة من ثورة يوليو في باريس

﴿ فصل ﴾

﴿ في انكلترا وقيام الوزارة الحرة فيها (١٨٣٠) ﴾

☆(ولائحة الاصلاح (١٨٣١ — ١٨٣٢)☆

أول برلمان اجتمع في انكلترا بعد ثورة باريس أسقط وزارة المحافظين (٢ نوفمبر ١٨٣٠) واستبدلها بوزارة حرة فعرض أعضاؤها لائحة اصلاح للانتخابات قضوا فيها بالغاء النواب عن ٦٠ من القرى وبانتخاب آخرين عن كثير من المدن التي لم يكن لها نواب وبتسويغ الانتخاب لكل من يبلغ ايراده أو الاجرة التي يدفعها عشرة جنيهات وبذلك ضوعف عدد المنتخبين

غير أن اللوردية لم يوافقوا على هذه اللائحة الا بعد أن انذروا بعزل فريق من اكثريتهم واستعاضته بآخرين. ثم عرض الاحرار لائحتين جديدتين قضت احداهما بتحرير ٦٠٠٠٠٠ رقيق زنجي فانفقت انكلترا على ذلك ١٦ مليونا ونصف مليون جنيه استرليني والاخرى قضت بوضع رسم لاعانة الفقراء. وأهم عمل لهذه الوزارة الحرة في خارج انكلترا مصافاتها لفرنسا وتعزز كل من الدولتين بالاخرى لمقاومة دول الشمال وانهاء المشكلة البلجكية

﴿ فصل ﴾

﴿ في الثورة البلجكية (اغسطس وسبتمبر ١٨٣٠) ﴾

كانت بلجكا التي ضمت الى هولانده في سنة ١٨١٥ لا تطيق نيرها وذلك لاختلاف المذاهب والمشارب والجنس بين الامتين ولما استبد به الملك من امور البلجكيين الدينية والكهنوتية والقلمية

والفكرية فزاد النفرة في قلوبهم فثاروا في بروكسل بعد ثورة باريس بشهر وردوا الجيش الهولندي الى انفرس فخافت الوزارة المحافظة في لندره أن يحمل ذلك الفرنسويين على احتلال هذه المدينة الواقعة على مصاب الابر والاسكو ولامت الثوار على ثورتهم غير ان الوزارة الحرة التي خلفتها عقدت اجتماعاً سياسياً في لندره (٤ نوفمبر ١٨٣٠) قررت فيه دول الشمال نفسها ان لا يصلح ضم هتين الامتين وانتخبوا البرنس دي ساكس كوبورج ليجلس على عرش بلجكا بعد ان رفضه الدوق دي نيمور ثاني انجال لويس فيليب وصرحوا لفرنسا أن ترسل ٥٠٠٠٠ جندي لاخضاع انفرس عنوة فتم ذلك ثم عرضت على المملكتين معاهدة للتوقيع عليها واعترفت جميع الدول باستقلال بلجكا

﴿ فصل ﴾

﴿ في ادخال تعديلات على النظامات الدستورية في سويسرا (١٨٣١) ﴾

« والدانمرك (١٨٣١) واسوج »

كانت حكومة سويسرا استبدادية بايدي الشرفاء منذ سنة ١٨١٥ وكان اكثر ايراد أهلها من تجندهم لدى الدول الاجنبية وكانت لذلك حكومتهم مطيعة لاشارات دول التحالف المقدس الى أن تمت ثورة باريس فقام أهل جميع العمالات يطالبون القوانين الدستورية

فنهت النمسا حكومتهم عن اجابتهم الى ذلك وجمعت جيشاً جراراً في فورالربرج والتيرول لارهاب أحرارهم فقررت جمعية نواب الاتحاد تجنيد ٦٠٠٠٠ مقاتل للدفاع عن البلاد فبلغ عدد الذين تجندوا مئة الف فهال أمرهم دول الشمال وأرسلت الى سويسرا تأكيداً بأنها لا تنوي لهم شراً ولا تضمر عداء فأتموا انقلابهم السياسي بدون سفك قطرة من الدم الا في مقاطعة بال وكان فيها بعض أغنياء أبوا التنازل عن الامتيازات الممنوحة لهم . أما الدانمرك فقد منحها ملكها دستوراً ومجلس نواب بمجرد ارادته { ١٨٤٩ } وكذلك اسوج فقد منحت في سنة ١٨٤٠ مجلسين انتخابيين وتقرر أن يكون وزراؤها هم المسؤولون وان تلغى حقوق الشرفاء الوراثية مع بقاء التميز بينهم وبين العامة . أما الجنوب فقد تمت فيه أمثال هذه الانقلابات ولكن بثورات وسفك دماء لحدة طباع أهله .

﴿ فصل ﴾

﴿ في ثورات اسبانيا (١٨٣٣) والبرتغال (١٨٣٤) ﴾

« ومعاهدة التحالف الرباعي (١٨٣٤)

علمنا أن فردينند السابع ملك اسبانيا كان مستبداً ولذلك ابى في أول الامر أن يعترف بملك فرنسا الجديد . وكان قد تزوج في دسمبر سنة ١٨٢٩ بالملكة ماري خرستين وأراد أن يوليها

الملك من بعده فاستخرج لذلك من الاوراق القديمة أمراً سريا كان قد أصدره أحد أسلافه فيليب الخامس بان الاناث يحق لها ان ترث الملك كالذكور . وانما أبعد بهذه الوسيلة أخاه دون كارلوس عن خلافته لانه ثار عليه مرتين لاسقاطه وعند ماتوفي فرديننـد كانت امرأته قد ولدت له الاميرة اليصابات فكانت ملكة اسبانيا من مهدها وتولت امها الاحكام بالوصاية عنها (ستمبر ١٨٣٣) فتحزب الملكيون لدون كارلوس خلافاً لمبدئهم وتسلحوا لتمليكه فاستعانت الملكة على هذا الحزب بالاحرار واضطر دون كارلوس أن يلجأ الى لشبونه لدى دون ميجل مغتصب عرش البرتغال وكانت بين هذا الملك وشقيقه دون بدرو الوصي على الملكة الحقيقية دونا ماريا منازعة وحرب وكان حزب الاول الاستبداديين وحزب الثاني الاحرار الذين كانت فرنسا وانكلترا تعضدانهم سرا . ففي ثامن يوليو من سنة ١٨٣٢ استولى الاحرار على اوبورتو وفي السنة التالية انتصروا في فنسنت ولشبونه فوقعت العاصمة في أيديهم فعند ذلك عقدت معاهدة التحالف الرباعي بين فرنسا وانكلترا ودون بدرو بالنيابة عن ابنة الملكة دوناماريا وخرستين بالنيابة عن ابنتها الملكة اليصابات . واكره دون ميجل على الخروج من المملكة (مايو ١٨٣٤) أما دون كارلوس فاثار أهل الشمال من اسبانيا وتجند له جمهور من الاستبداديين البرتغاليين والفرنسويين والانكليز وكادت بعض

عصائبه تصل الى مدريد ثم ردت عنها . واستمرت هذه الحرب الاهلية فى اسبانيا الى سنة ١٨٤٠ وجرت فيها الدماء أنهارا وكانت دول التحالف الرباعي تعضد الاحرار سرا ودول التحالف المقدس تعضد الاستبداديين كذلك. ولما انهى الوزير أسبادترو هذه الحرب الفظيعة لقبته الوصية بدوق النصر فاشتدت سطوته ثم تطاول الى عزل الوصية وأخذ مكانها (اكتوبر ١٨٤٠) ثم طرده من ذلك المنصب القائد الباسل نافارس (يوليو ١٨٤٣) وتولى الوصاية وكان حكمه دستوريا ولكن غير خلو عن كثير من آثار المحافظة

﴿ فصل ﴾

«(في عدم فوز الاحرار في المانيا وايطاليا (١٨٣١)»

« واخماد الثورة البولونية « ١٨٣١ »

لم يحدث لثورة باريس صدى يذكر في النمسا وبروسيا لتعاون الكنيسة والحكومة فيهما ولعموم الفاقة بين العامة في المملكتين ومع ذلك فان فريدريك غليوم الثالث اضطر ان يخفف وطأة المراقبة على الجرائد . أما في الامارات الالمانية فقد حدثت ثورات سقط بها بعض الامراء والدوقية واضطر البعض الآخر الى الموافقة على الاصلاحات المطلوبة . فتخوفت دول التحالف المقدس من انتشار هذا الروح وحملت النمسا مجلس الاتحاد الالماني في فرنكفورت على

تعيين مراقبين للمجالس النيابية التي تأسست في بعض الامارات وجعل مداولاتها قاصرة على بعض الشؤون . وبعد ذلك باشهر اتفقت النمسا وبروسيا وروسيا فشكلت لجنة معهودا اليها في القبض على المهيجين ومنع حدوث الثورات فعاد القتل والسجن والنفي الى جميع البلاد الالمانية بلا حساب . وكانت النمسا تظن أنها تستمر على اضعاف مجلس الاتحاد والامراء الى أن تعم الفوضى فتحتاج تلك البلاد الى رأس يديرها فتكون هي الرأس ولكنها ساءفالها وتعبت نصف قرن لتقع المانيا بعد ذلك في يد بروسيا كما حصل.

ذلك ما جرى في الامارات الالمانية وأما في ايطاليا فان نابولي لزمت السكينة مدة حياة ملكها فردينند الثاني وأما بولونيا وورومانيا واومبريا فثارت في ٤ فبراير ١٨٣١ وبعد شهر من نهوضها لم تبق للبابا من ولاياته الا صحراء رومه وسابينا . وكان الاميران كارلوس ولويس نابليون قد تجندا لخدمة زعماء الثائرين فقتل الاول منهما . ثم ثارت بارمه ومودينه فطردتا أميريهما فانتهز النمسويون الفرصة واجتازوا البو وأخمدوا ثورة رومانيا التي كانت تنتظر مددا من فرنسا فلم ترسله لها وصرحت أنها على مذهب « عدم التداخل » في السياسة ولكن عندما احتل النمسويون فرّار وبولونيا أرسل لويس فيليب على سبيل الاحتجاج جنودا احتلت انكونا ثانية وطال احتلالهم لها سبع سنين (١٨٣٢—٣٨) على أن البابا اقتدي بملك نابولي فجند

قوماً من السويسريين واستخدمهم لحماية رومه وكان الفرنسويون يحمون له أنكونا والنمسويون بولونيا ورجاله مع ذلك ينفون ويسجنون ويعذبون الناس الى درجة لا تطاق ولذلك كتبت الدول الخمس الكبرى رسالة الى البابا تصف له هذه الحالة وتسأله اصلاحها (مايو ١٨٣١) فوعد بافتتاح « عهد جديد » ثم عادت المظالم الى مجاريها وامتد التضييق على الافكار والكليات والمدارس الى جميع جهات ايطاليا ومنع دخول المطبوعات الاجنبية وكان الانسان يحاكم ويعاقب باشد العقوبات على لفظة أو حركة . وحدث أن فرديناند الثاني أمر بقتل ٥٢ نفساً على أثر مناوشة ثورية حدثت في سيرقوصه

وفي ذلك الوقت جرى في شرقي اوربا عمل من افظع الاعمال التي يذكرها التاريخ وهو محو الوطنية البولونية من الوجود. وذلك أن شعب بولونيا ثار في ٢٩ نوفمبر ١٨٣٠ يطلب الاستقلال الوطني والحرية السياسية وكانت ثماني ولايات مشتركة في النهضة . فزحف مئة الف روسي عليهم لمقاتلتهم وفتح فرسوفيا وانتظر ستون الف مقاتل بروسي في دوقية بوزن ومثلهم من النمسويين في غاليسيا ليقطعوا كل صلة بين البولونيين والخارج . ولما رأى المارشال باسكويتش بعد اربع مواقع هائلة أنه لا يستطيع دخول فرسوفيا عنوة من الامام عزم على مهاجمة المدينة من ضفة الفستول اليسرى غير أنه كان يحتاج الى مؤونة اذ كان انفاذ مقصده يقضي عليه بالابتعاد

عن معسكره ففتح له ملك بروسيا كنجسبرج. ودنتزك ليستورد منهما ما يحتاج اليه ودرت بذلك الدول وكانت تعلم أنه مخالف للقانون الدولي ولم تحتج احتجاجا يذكر . على أن حكومتي لندره وباريس كانتا علناً متفقتين على عدم التداخل ولكن الامتين كانتا تميلان الى البولونيين المظلومين وكان الفرنسويون يرسلون لهم المدد سرا وفي ٨ ستمبر ١٨٣١ سقطت فرسوفيا في أيدي الروس بعد مقاومة تذكر في جنب أعظم جهاد رواه التاريخ ومحا القيصر تقولا من معاهدات سنة ١٨١٥ البنود المانحة لبولونيا وجودا مستقلا ونظاما أهليا وقسمها الى ولايات ألحقت بروسيا الحاقا ودعيت بولايات الفستول وملأ سيبير بالمنفيين من أهلها وجعل اللغة الروسية هي اللغة الرسمية في الادارة والقضاء والتعليم وانتزع كنائس جمة من أهل الدين الكاثوليكي فمنحها لاهل الدين الارثوذكسي .

وهكذا محيت هذه الامة من الوجود

﴿ الباب الثالث والثمانون ﴾

(في مسائل الشرق الثلاث)

﴿ فصل ﴾

« في مصالح الدول الاوربية في اسيا »

ان المسئلة الشرقية تنقسم الى ثلاث أحداها تتعلق بالاستانة

والثانية بوسط آسيا والثالثة بالصين واليابان وسنرى ان التنازع في هذه المسألة الجسيمة غير مبني على الافكار والحقوق بل على الجشع الكسبي التجاري ومع ذلك فقد نجت فوائد كبيرة على كونها لم تكن مقصودة بالذات من ذلك الخلاف والفتوحات التي تمت في أثنائه .

﴿ فصل ﴾

« في المسألة الشرقية الاولى وهي مسألة الاستانة »

ذكرنا فيما سبق ان خيلاء القيصر نقولا أوهمته أنه منتدب من لدن الله لتسويد الجيل السلافي على سائر الاجيال التي استوفت حظها الى ذلك الوقت من العظمة . وكان لهذا الامبراطور نصف اوربا وثلث آسيا مالكا لا نزاع فيه غير أنه كان يطمع فى استزادته كثيرا وجعل قاعدته القسطنطينية التي يسود مالكها اذا كان قويا على الدنيا . على أن جنود القيصر وصلت في سنة ١٨٢٩ مدة الثورة اليونانية الى ادرنه ودنت من قرن الذهب غير أن الدول أرجعتها على أعقابها بمقتضى المعاهدة التي تقدمت الاشارة اليها واضطر نقولا ان يصبر وينتظر حدوث مشاكل جديدة ليعود الى انفاذ مأربه خصوصاً وان انكلترا كانت مقفلة في وجهه طريق البحر والنمسا مع محالفتها له واقفة بالمرصاد لجنوده في طريق البر

﴿ فصل ﴾

(في انحطاط تركيا وتعاظم شأن والي مصر)

كان انحطاط هذه الدولة سريعاً بحيث لا يسهل تداركه .فانها فقدت القريم ومصاب الدنيابر (١٧٧٤) وضفة الدنياستر اليسرى (١٧٩٢) ومقاطعة بسارابيا الى بروت (١٨١٢) ومصاب الدانوب وقسما من ارمينيا وكل هذه كانت معاقل للسلطنة وكذلك فقدت في داخلها اليونانية التي استقلت والصرب والروم ايلي والجبل الاسود التي انفصلت عن الدولة على أن تدفع لهـا جزية صغيرة. وقد أخمد السلطان محمود ثورة عالي باشا في جانينا (١٨٢٠) فأيد بذلك سلطته قليلا غير أن فرمان الاصلاح الذي أصدره زاد في وهن السلطنة من حيث كدّر المسلمين والعلماء ولذلك اضطرت اوربا ان تحمي الدولة العليـة في معـاهدة ادرنه اذ كانت في ذلك الوقت لا تقوى على صيانة نفسها بنفسها . وبينما كان القسم الشمالي من الممالك المحروسة يميل ويسقط انتهز البطـل الشهـير الروملي الاصل محمد علي فرصة خروج الفرنسويين من مصر وعموم الفوضى فيها بعد جلائهم وتولى ادارة أحكامها وفي سنة ١٨٠٦ أيد سلطته فيها بظهوره على الانكليز الذين دخلوا الاسكندرية ووصلوا الى رشيد واخراجهم من القطر ثم ذبح المماليك في خـدعة شـهيرة (١٨١١) وحارب الوهابيين مدة سنين وكانوا مستولين على مكة

والمدينة ودمشق الشام فكسرهم وكاد يفنيهم وفتح للمسلمين السنيين طريق الحج وامنه (١٨١٨) ثم فتح السودان (دنقله وكوردفان وسنار) فجعل مصر بمثابة مملكة ضخمة . ولما حارب ابنه ابرهيم باشا اليونانيين في الموره وأخذ ميسولونجي (١٨٢٦) وكاد يخمد الثورة اليونانية بدون تداخل الدول أتم بفتوحاته مجد أبيه فكانت لمحمد علي في الشرق شهرة حامي بيضة الدين والقاهر الذي لا يقهر وفي الغرب سمعة البطل وكرامة رجل الاصلاح والتقدم وكان محبوباً كثيراً في فرنسا التي أمدته برجالها من مهندسين ومدرسين وعسكريين وصناع فشيد بهم المعاقل والمعالم والمدارس والترسانات ونظم الجيش وأسس البحرية .

﴿ فصل ﴾

﴿فتح في ابرهيم باشا للشام (١٨٣٢) ومعاهدة انكيار اسكله سي (١٨٣٣)﴾

لم يفتح مصر فاتح في زمان الا طمع في الشام . وقد وجدت هذه الرغبة عند محمد علي كما وجدت عند امثاله من قبله فلم يكفه من الدولة ان منحته حكومة كريد بل ظن انه لا بد له من اصلاح الدولة كلها وسلخ الشام عنها ليضمها الى قطره . فانتهز فرصة وقوع نفرة بينه وبين عبدالله باشا والي عكا وتمحل منها عذراً للشروع في الفتح فقصد ابنه ابراهيم ثغر عكاء وحاصره سنة

١٨٣١ و فتحه فى مايو سنة ١٨٣٢ ثم اخضع الشام كلها وكسر جيشاً للسلطان فى عدة مواقع ثم آخر اكبر منه فى موقعة قونية العظيمة شمالي طوروس (ديسمبر ١٨٣٢) فخلت له طريق الاستانه فزحف عليها فتخوف منه السلطان محمود واستنجد بروسيا فاحلت ١٥٠٠٠ مقاتل فى اسكدار وبعثت ٤٥٠٠٠ جندي آخر فاجتازوا الدانوب بدعوى حماية السلطان . غير ان فرنسا وانكلترا حالتا دون وقوع المصيبة المخشية واكرهتا السلطان وتابعه على القبول باتفاق كوتايه (مايو ١٨٣٣) وكان يقضي بمنح سوريا لمحمدعلي . اماالروس فرجعوا على اعقابهم ولكن بعد ان نالوا توقيع السلطان على معاهدة انكيار اسكله سي (يونيو ١٨٣٣) القاضية بتحالف السلطان والقيصر في حالتي الهجوم والدفاع . وقد شرط فى بند سري ان يقفل بوغاز الدردنيل على جميع المراكب الاجنبية وانما كان ذلك عقاباً لفرنسا وانكلترا على ارجاعهما العساكر الروسية من حيث أتت . وبهذه المعاهدة ختم الفصل الثاني من المسألة الشرقية وكان ختام الفصل الاول بمعاهدة ادرنه

{ فصل }

{ في معاهدة لندره (١٨٤٠) ومعاهدة البواغيز }

ثم مضت ست سنين كان السلطان محمود فى خلالها يعزز

جيشه فلما ظنه قادراً على استرداد ما سلبه ابرهيم باشا أرسله لمحاربته فالتقى البطل المصري جنود السلطان في نزيب ونكل بهم واستفتح طريق دار الخلافة ثانية (يونيو ١٨٣٨) فتداخلت فرنسا وصدت ابرهيم باشا عن قصد الاستانة خوف أن يسبقه اليها الروس وغلطت بعدم اشتراطها شيئا يعزز مركز والي مصر ويمنع الاعتداء عليه مرة اخرى فان انكلترا عندما امنت دخول الروس الى القسطنطينية رأت من مصلحتها فصل سوريا عن مصر فانضمت الى روسيا والنمسا وبروسيا وعقدت معها معاهدة لندره السالفة للشام عن مصر (١٥ يوليو) بدون اشتراك فرنسا وكانت هذه النتيجة والعزلة التي وجدت فيها فرنسا بعد تقرير المعاهدة المتقدم ذكرها أشد عقوبة لها على خطإها . على أنها تأثرت جدا من العظة الذي أبدته اوربا لها فسورت باريس بالمعاقل وسلحت مراكزها الحصينة كلها وزادت جيشها وانتظرت في وحدتها مطمئنة الى أن تأتي الظروف الموافقة لها فتتخير حليفاتها بين الدول. كذلك كانت سياسة تيير ولكن الملك خاف من اخطارها فاستبدل كبير وزرائه بكيزو (٢٩ اكتوبر ١٨٤٠) فبادر هذا الرجل ومد يد الالتماس الى الدول التي صفعت بلاده تلك الصفعة المهينة وفي ١٣ يوليو ١٨٤١ وقع على المعاهدة التي كانت تقضي باقفال جميع البواغيز على السفن الحربية وبقي الفوز في هذا الفصل الثالث

من فصول المسئلة الشرقية لانكلترا وسيكون الفوز في الرابع لفرنسا على ما سيأتي بيانه

{ فصل }

(في المسألة الشرقية الثانية واسيا الوسطى)

في القرن السابق كانت انكلترا قد احتلت الهند وروسيا سيبيريا وكان لا يظن أن تخوم هتين المملكتين المستعمرتين تتقارب ذات يوم فتولد احدى المشكلات الكبر. وهذا ما حصل بعد نصف قرن حتى تكاد اليوم الدولتان تتماسان على تلك التخوم

{ فصل }

(في تقدم الروس في اسيا)

ان ملك بلاد جورجيا الواقعة على المنحدر الجنوبي للقوقاف التمس في سنة ١٧٩٦ من القيصرة كاترينه تقويته على الايرانيين فاجابته الى ذلك ولا نفاذ وعدها أخذت دربنت على بحر قزبين وداغستان ومعظم تلك البلاد الى نهر كور ثم جعلت المملكة الصغيرة التي استعانت بها تحت وصايتها ولم تلبث ان حولتها الى ولاية روسية (١٨٠١) وبعد ذلك أخذ الروس من الترك مصاب نهر فاز (١٨٠٩) ومن الاعجام شيروان (١٨١٣) وأرمينيا الواقعة فيما وراء نهر كور الى نهر آراس الذي هو ينصب فيه والى جبل أراراط (١٨٢٨).

وكان الروس في هذا المركز حول القوقاف يملكون الوصول الى تركيا الاسيوية والضغط على ايران . أما سكان جبال القوقاف فاستمروا معتصمين بجبالهم ٣٥ سنة يقاتلون ويدافعون عن استقلالهم بقيادة زعيمهم شاميل الى أن حصر الجيش الروسي رئيسهم وأخذه (١٨٥٩) واخضع قبائله بعد ان هلكت عشرة جيوش قبله في محاربته واضاف هذا الفتح الي السلطنة الروسية ثماني بقاع خصيبة متسعة واقعة جنوبي القوقاف جمعت الى حكومة عسكرية واحدة قاعدتها تفليس واصبحت لروسيا مركزاً امامياً حصيناً لا يؤخذ وفضلاً عن ذلك فان لها عن اليمين طريقاً يتسنى ارسال الجنود الروسية منها الى اسكدار بجوار الاستانة وعن اليسار طريقاً الى طهران عاصمة ايران ومن العجائب سرعة ما ضخم هذا الملك فان روسيا كانت من جهة مالكة البحر الاسود بمراكبها التجارية في مينائي اودسا وتاغا نروك تحت حماية اسطولها الحربي الراسي في ميناء سباستول الذي كان حديث النشأة . ومن جهة اخرى مالكة بحر قزبين الذي قررت معاهدة تومانشاي تسويغ الملاحة فيه للروسيين وان لهم وحدهم جواز تسيير مراكب مسلحة فيه . فهم بذلك كانوا يستطيعون اذا قصدوا البر العجمي بحملة عسكرية ان يقربوا من طهران وان قصدوا البر الشرقي ان يدانوا خيوا وتركستان . ومع ذلك فقد كانوا يتقدمون في صحراء كيرجس كازاك وبحيرة آرال التي كان لهم

فيها اسطول حربي نحو البلدين المتقدم ذكرهما وكانوا يقيمون القلاع في الصحراء تدريجاً ليصلوا متعززين بها الى أن يتسنى لهم ادراك البقاع الخصيبة التي كانت تدعى باكتريانا في الزمان القديم .

« فصل »

« في تقدم الانكليز في اسيا »

بينما كانت اوربا مشتغلة بحروب الجمهورية الفرنسوية ثم بحروب نابليون كانت انكلترا توسع نطاق استعمارها في الهند فانها اخضعت في سنة ١٨١٦ نابول الواقعة شمالي الهند ومهرات في دقهان بعد ذلك بسنتين . وكان بجانب كل أمير هندي عامل من قبل الشركة يسيطر عليه وحامية انكليزية ينفق عليها ايراد احدى عمالاته فبهذه الطريقة أوجد الانكليز لهم جيشاً جرارا يملكون به دقهان ووادي الكنج ولا ينفقون عليه درهما . وفي سنتي ١٨٢٤ ـ ١٨٢٦ زحفوا الى ما وراء الهند الكنجية وأخذوا مئتي ميل من شواطىء بيرمانيا وضربوا الجزية على مملكة اسام وفتحوا سنجابور وملقه وجعلوا خليج بنغال بحرا انكليزيا وامتلكوا به طريقا من اكبر الطرق التجارية الى الهند الصينية . وكان مطمحهم في هذه الجهة توسيع نطاق مكاسبهم أما في الشمال الشرقي فكانوا يطمعون في الامن على ما امتلكوه

« فصل »

« في وقوع النزاع مباشرة بين الانكليز والروس في اسيا الوسطى »

منذ عقدت معاهدة تورمانتشاي (١٨٢٨) عظمت السطوة الروسية في طهران. ولكن الشعب ساءته شدة الشروط التي بني عليها الصلح بين الروس وحكومته فثار وذبح السفير الروسي وأسرته واتباعه فارسل الملك وكان فتح علي رأس سلالة الخاجار حفيده الى روسيا يعتذر بكل تذلل عما اصاب السفير وذلك لما ثبت لديه بعد ان جاهد في سبيل انقاذ مملكته من سنة ١٧٩٧ الى سنة ١٨٢٨ من ان ايام فوز الاعجام على جارتهم الضخمة روسيا مضت ولن تعود وان نُدير شاه (١٧٤٧) صاحب المقاومة المشهورة للاتراك والروس والمغول بجيشه الفارسي لا يخلفه احد فى ايران. على ان بين ايران والهند مدينتين عظيمتين تملكان طرق اتصال البلادين وهما هرات وكابول. وكان بونابرت ينوي بعد فتح عكا ان يزحف عليهما فلما فشل ارجأ انفاذ نيته وبعد موقعة تيلست كاشف القيصر بتلك النية ليتفق معه على اخراجها لى حيز الفعل وارسل جواسيس الى ما بين النهرين وايران لتمهيد الطرق له فيهما. ولما تولى القيصر نقولا عزم ان يجري على هذا التخطيط الذي ورثه عن سلفه واذ كانت ايران في قبضة يده امدها وحملها على مهاجمة هرات ثلاث مرار

(١٨٣٣ و ١٨٣٧ و١٨٣٨) فارتدت جيوشها عنها وكان الفشل الثالث ناشئاً عن مساعدة الانكليز للامير الافغاني صاحب هرات وعن تهديد الاسطول الانكليزي الولايات الايرانية الجنوبية في خليج العجم . فرأى القيصر بعد حبوط مساعيه ان يرسل احد جيوشه لفتح خيوا القائمة على الطريق الثانية الى الهند من ام داريا وبخارى غير ان الصحراء القاحلة التي تفصل هذه المدينة عن بحر قزبين اهلكت الجيش كله . وقبل ان يظهر عدم نجاح هذه الحملة عزم الانكليز على التقدم لملاقاة الروس فان لم يتسن ذلك لهم فعلى احتلال الجبال العالية الافغانية فيما وراء السند ليجعلوها حاجزاً لا يجاز الى الهند وفي بدء سنة ١٨٣٩ اجتاز جيش بنغال نهر بولان وفتح كندهار وقلعة كيزني وكابول واعاد الى هذه المدينة مالكها شاه سودجاه الذي كان مطروداً منها منذ ٣٠ سنة . غير انه قبائل هذه البلاد التي اضعفتها في اول الامر مباغتة الانكليز لم تلبث ان ثارت ثورة عامة وحصرت الانكليز وكانو ١٥٠٠٠ فقتلتهم ولم يسلم منهم الا واحد اجتاز السند راجعا (١٨٤٢) فارسلت الشركة جيشا آخر دخل تلك البلاد ونكل باهلها ودمر واحرق ورجع على اعقابه وفي سنة ١٨٤٣ اخضعت الشركة امراء السند وبلوخستان . وتملكت مصاب النهر المذكور وبعد ذلك بست سنين ضمت البنجاب الى سائر املاكها ثم وادي كشمير الذي كان احد ابواب الهند . ثم

حاولت ان تجعل افغانستان تحت سلطتها فلم تفلح ولكنها كانت تتقدم نحو صحرآء بامير المرتفعة وهي ملتقى اعظم سلاسل الجبال الاسيوية التي تنتهي اليها ومهد الجيل الابيض الاوربي

على ان روسيا لم تلبث ان ادخلت جنودها الى خيوا وانكلترا لم تلبث ان احتلت هرات لصدغارات الاعجام عنها بحيث اصبحت كلتا العدوتين تتناظران عن كثب . اما انكلترا فلزمت مكانها ورآء جبال بولور وهندوكو واما روسيا فاستمرت بتقدم بدون انقطاع وهي من سنة ١٨٦٤ الى سنة ١٨٦٩ قد احتلت اكبر مدائن تركستان الشرقية وسمرقند وكولدجا عاصمة زنغاريا التي تحمي ممارّ الجبال الصينية (ثيان شان) وقد اصبح جميع امرآء هذه البلاد اتباعاً للقيصر ونفذ الرحالون الروسيون حتى الى تركستان الصينية (١٨٧٠) ولا بدّ ان تلتقي الدولتان المذكورتان يوما في تلك الجهات فاما ان تصطدما فتهزان الارض هزاً ويعم الدمار والبوار زمانا قد يكون طويلا وأما ان تتحاملا وتتعاونا على السلم فتنفتح للمتاجر والمكاسب ابواب واسعة وتخرج منها خيرات عظيمة عميمة

«فصل»

«في المسألة الشرقية الثالثة وفي مسألة المحيط الباسيفيكي

هذا المحيط بعد ان كان مهجوراً لامتناع الصين واليابان عن

مخالطة سائر الامم اصبح اليوم ملتقى سفائن الدول المختلفة وصار له من الشأن التجاري الكبير ما كان للبحر المتوسط في العهد القديم وتأتية البواخر الآن بالاستمرار من نيويورك و مرسيليا وساوثمتون وتريستا قاصدة كانتون ويوكوهاما وسان فرنسيسكو وغيرها

« فصل »

﴿ في عزلة الصين واليابان ﴾

أول من طرق الصين البرتغاليون ثم المرسلون الكاثوليك (١٥٨١) ارادة أن يهدوا أهلها ثم الهولنديون ثم انكلترا ثم فرنسا وقبل الجزويت في بكين بصفة علماء وكذلك قبلت رسالة دينية روسية كانت تخفي مقاصدها تحت برقع الدين . ولم يؤذن للاجانب بادىء بدء الا أن يقيموا بعض المتاجر خارج أسوار كانتون . وأرسلت عدة سفارات رسمية روسية وانكليزية لمقابلة امبراطور الصين وعقد معاهدات تجارية معه فلم تفلح . وكانت اليابان أشد اعتزالا فانها اذنت للهولنديين وحدهم ان يدخلوا ميناء نا كازاكي على شرط ان يلزموا جزيرة صغيرة منعزلة في الميناء .

« فصل »

« في حرب الافيون (١٨٤٠ — ١٨٤٣) »

أن الافيون من السمام المهلكة للجسم الانساني ومع ذلك فقد

أذنت انكلترا بزراعته في جميع بلاد بنغال حين علمت ميل الصينيين الى تعاطيه ثم كانت تدخله تهريباً الى الصين لان الحكومة السماوية كانت محرمته على شعبها ـ وتستورد منه ستين مليونا في السنة دخلا لبلاد بنغال . وفي سنة ١٨٣٩ قبض موظف صيني على ٢٢٠٠٠ صندوق من الافيون وأساء معاملة أصحابها من الانكليز فارسلت انكلترا بدعوى اهانة بعض رعاياها حملة الى مياه الصين واحتلت جزيرة شوزان وهدمت قلاع بوغ على مدخل نهر كانتون وعرضت شروط الصلح فلم يوافق عليها الامبراطور فارسل الانكليز حملتين متتابعتين في البر على الصينيين فوصلوا الى نانكين وعقدوا هناك صلحاً (أغسطس ١٨٤٢) يقضي بفتح خمسة مواني صينية للتجارة الاجنبية وبترك هون كون لانكلترا وبدفع غرامة تبلغ ١٢٠ مليونا واتفقت الحكومتان رسمياً على أن تجارة الافيون محظورة غير ان انكلترا وسعت نطاق التهريب وجعلت تستورد من الافيون مئة مليون فرنك سنويا

﴿ فصل ﴾

﴿ في معاهدة فرنسا مع الصين (١٨٤٤) والاستيلاء على بكين (١٨٦٠) وفتح اليابان للتجارة الاجنبية (١٨٥٤) واخذ الروس لمنشوريا (١٨٦٠) ﴾

في سنة ١٨٤٤ أرسلت فرنسا سفارة الى بكين عقدت معاهدة

تجارية من مقتضياتها استرداد الاوامر التي صدرت في سنة ١٨٢٨ ضد الكهنة الكاثوليك واعادة الكنائس التي صودرت لاربابها والاذن للمرسلين بنشر تعاليم الانجيل . وفي سنة ١٨٥٦ قتل بعض المرسلين فساء ذلك فرنسا كما ساء انكلترا نقض الصين مراراً مكررة لمعاهدتها المعقودة معها فاتفقت الدولتان على محاربتها وبعد انتصارهما في باليكاوه دخلتا بكين (١٨٦٠) . وكان الامريكيون قبيل ذلك بسنين قلائل قد دخلوا اليابان عنوة بدعوى أنه لا يجوز اقفال المواني التي وضعتها الطبيعة في ذلك المكان لحماية السفن من أخطار بحر كثير العواصف (١٨٥٤) وفي سنة ١٨٥٨ انتهز الروس فرصة الرعب الذي وقع في قلب الصين وسلبوها بلاد منشوريا الواسعة (١٨٦٠) وبذلك أصبحت لهم السيادة على بحر أوكوتسك وبحر اليابان . أما انكلترا فكانت لها صخرة هونكون نظير مستقر لسفنها في تلك المياه وكانت لها الهند المجاورة وأما فرنسا فاتخذت في كوشنشين مستعمرة زاهرة . ومما يخلق بالذكر أن اليابان بعد مخالطتها الارغامية للاجانب دخلت التمدن من بابه وسارت فيه شوطاً بعيدا دل عليه انتصارها الباهر على الصين منذ بضع سنين وعلى الروس في السنة الماضية أعظم دلالة

الباب الرابع والثمانون

﴿ في مبادىء ثورات ١٨٤٨ ﴾

﴿ فصل ﴾

﴿ فيما جرى بين سنة ١٨٤٠ وسنة ١٨٤٨ وفي تقدم الافكار الاشتراكية ﴾

بعد ان عقدت معاهدة البواغيز عمت السكينة والسلام في اوربا وكان المحافظون قد عادوا الى ادارة الحكومة الانكليزية (١٨٤١) والقيصر ينظم روسيا على شكل ثكنة يعد فيها الجيوش الكثيرة لارهاب اوربا واسيا ومترنيخ يحكم النمسا «بانعطاف والدي» واسبانيا تجري على الدستور الذي عدله نارفايس وجعله أميل الى الملكية من الذي سبقه وفرنسا يتولى رئاسة وزرائها كيزو وقد استقر في منصبه من سنة ١٨٤٠ الى ١٨٤٨ على خلاف ما اعتيد من كثرة تبديل الوزارات الفرنسوية . وفي هذه المدة اتسعت المكاسب ونمت الثروة وفتحت المعامل الكبيرة وتزاحم أربابها فكثر المال عند فريق الوسط من الناس وقل عند الفعلة اذ كان يطلب منهم اكثر ما يستطيعون من العمل باقل ما يكون من الاجرة وعندها نفذت بينهم الافكار الاشتراكية التي كان الناس يضحكون منها في بادىء أمرها ولم تلبث بعد ذلك ان نشأت عنها ثورات ومظاهرات مخيفة في باريس ولندره وباجكا وسليزيا وبوهيميا وسواها من المدائن والبلدان

على أن الافكار الحرة كان يزداد تقدمها في هذه الهنيهة التي ساد فيها السلام على اوربا وكانت كل امة تفكر اما في الحرية أو في الاستقلال ولذلك كانت بوهيميا تزداد مقتاً للروس ورغبة في الانفصال عنهم وكذلك كان شأن ايطاليا مع النمسا . وكانت المانيا تتمنى وحدتها وتطلبها وبوهيميا والمجر تنزعان الى الاستقلال الاداري وبعض حكومات ايطاليا الى مثل ذلك أو الى توسيع نطاق حريتها وبعض جهات بروسيا الى طلب نظامات حرة عادلة

﴿ فصل ﴾

﴿ في فرنسا من سنة ١٨٤٠ الى سنة ١٨٤٦ ﴾

لم يحدث في فرنسا شيء يذكر في هذه المدة سوى ان خطباءها كانوا يتبارون بالفصاحة وحاملي زمام سياستها لم يقدموا على أمر ذي بال . بل كل ما فعلوه أنهم ارسلوا جنوداً يحتلون جزائر مركيزة الصخرية في المحيط الباسيفيكي (مايو ١٨٤٢) وانكروا ضابطاً فرنسوياً رفع الراية على جزيرة كاليدونيا الجديدة مع كثرة فوائدها وعظم أهميتها وأبوا أن يمنحوا حمايتهم لحكومات هوندوراس ونيكاراكا وهايتي واستفتحوا جزيرة مايوت (١٨٤٣) بقرب مدغسكر . وحدث ان انكليزيا طرده الفرنسويون من تاييتي (١٨٤٤) لانه أثار الاهالي عليهم فذبحوا كثيرين منهم فذهب

الرجل الى لنـدره واستصرخ فسمعه النواب. وطلبوا من فرنسا تعويضاً فاقترحت الوزارة اجابة هذا الطالب على مجلس نواب فرنسا فتعاظم الكدر من أعمال الحكومة ثم حمل حزب المعارضين عليها حملة اضطرها بها أن تمزق المعاهدة التي منحت بها لانكلترا في سنة ١٨٤١ حق المراقبة على السفن الفرنسوية لمنع النخاسة وكان ذلك في مايو سنة ١٨٤٥ . وكان مجلس النواب قد رأى ضرورة اتمام فتح الجزائر فاختارت الحكومة لذلك القائد الباسل بوجود. فوجد أن عبد القادر استنفر اكثر أهل البلاد للجهاد وأوصل رعبه الى نفس ولاية اوران فلحق به واستمر يتعقبه الى جبال أورانسنيس. وبينما الأمير يفر نحو الصحراء أدركه الدوق دومال وقبض عليه وأسر أهله ولكن الامير نجا بنفسه ولجأ الى مراكش (١٨٤٣) فانجده سلطانها بجيش كبير فارسلت فرنسا البرنس جوانفيل فاطلق المدافع على طنجه وموجادور ثم عقد صلحاً مع السلطان .

وكان بوجود قد انتصر بثمانية آلاف وخمسمئة مقاتل بين رجالة وخيالة على ٢٥٠٠٠ خيال لعبد القادر في ايسلي (١٤ اغسطس ١٨٤٤) فعاد الامير الى مراكش وأخذ يؤلف فيها حزباً له فتخوف منه السلطان واضطره الى الخروج من أرضه فلما وصل الى المراكز الفرنسوية الامامية سلم نفسه للقائد لاموريسيار (٢٣ نوفمبر ١٨٤٧). وكانت انكلترا في كل مكان بحري تعاند فرنسا وهي التي أثارت

عليها تايتي ثم هي التى دفعت مراكش الى محاربتها مع عبد القادر وعليه فموالاة فرنسا لهذه الدولة كانت لا تفيدها شيئاً وانما كان يؤيدها الحكام بدعوى أنها تؤيد السلام

ومع ذلك فقد حدثت حادثة غيرت وجهة السياسة الفرنسوية فان الوزارة تعجلت في تزويج الدوق دي مونبانسيه بشقيقة ملكة أسبانيا (اكتوبر ١٨٤٦) وكانت انكلترا تريد ان تزوج بها البرنس دي كوبور على أمل أن يقع له التاج يوما فيعظم نفوذها في تلك المملكة فلما رأت أن فرنسا سبقتها الى ذلك تباعدت عنها فخافت هذه شر العزلة وتقربت من النمسا وضحت في سبيل ذلك نفوذها في سويسرا وايطاليا وصبرت على افتراس النمسا لولاية كراكونيا وكانت آخر قطعة سلمت من بولونيا

أما في ايطاليا فان النمسويين احتلو فرار على ضفة البو فاحتج البابا ولكن فرنسا خذلته (١٨٤٧) وحدث أيضاً ان الحامية الالمانية سفكت دماء كثيرين فى ميلانو (فبراير ١٨٤٨) فلم تجدهم فرنسا باكثر من الاستعطاف على المنكوبين

وأما في سويسرا فان حزب الاحرار أراد أن يزيد قوة الحكومة العامة المركزية وكان ذلك في مصلحة فرنسا لانها كانت تزيد امنا على تخمها المجاور لهذه الجمهورية بقدر ما تقوى حكومتها وتتوحد السلطة فيها غير أن كيزو جهل مصلحة بلاده وانتصر لسبع عمالات

يقطنها الكاثوليك كانت قد أبت الدخول في الاصلاح غير أن الاحرار حاربوا أهلها تسعة أيام ثم فازوا عليهم وطردوا الجزويت محركيهم (نوفمبر ١٨٤٧)

ذلك ما كانت عليه حال فرنسا في الخارج ولكنها في الداخل كانت أفضل كثيراً فان الصناعة والتجارة كانتا في اتساع والثروة في ازدياد . وكانت السكك الحديدية تمدّ والطرق تصلح والموانى تنار وقانون العقوبات يلطف وكانت الوزارة اذا سئلت عن خطاء ركبته في الخارج اجابت بوصف ما تمّ في عهدها من التقدم الداخلي وفي سنة ١٨٤٦ بلغ احتيال الحكومة في الانتخابات العامة مبلغاً دل على الفساد الذي تطرق الى اكثر المنتخبين من حيث كانوا يبيعون اقتراعهم للنواب وهؤلاء يبيعونه للوزراء فنتج من ذلك أن المنتخبين كانوا كأنهم يرسلون الى دار الندوة جيشاً من خدمة الحكومة لا نوابا عن الامة واستمرت الوزارة على شكلها السابق تدير الامور مع أنها كانت مرذولة ممقوتة . واعتدّ رجالها بقوة اكثريتهم فقل اعتدادهم بالمعارضين وكانوا لا يجيبونهم الى طلب يذكر

﴿ فصل ﴾

﴿ في انكلترا وفي حرية المتاجرة والضريبة على الايراد والنظام الاستعماري الجديد (١٨٤١ — ١٨٤٩) ﴾

كان السير روبرت بيل رئيس الوزارة الانكليزية المحافظة ولم يستطع تثبيت قدمها في مركزها (١٨٤١ ـ ١٨٤٦) الا بجعل سياستها الداخلية أنزع الى الاصلاح من سياسة خصومه الاحرار فكان يقاتلهم بنفس سلاحهم . وأعظم أعماله المشكورة أنه ألغى القوانين التي كانت تحظر دخول الغلال وتوجب غلاءها في انكلترا وكذلك القوانين التي كانت تزيد العوائد على الواردات الاجنبية وتعوق حرية الاتجار بها واعاد الضريبة على الايراد فكانت تستورد منها الخزينة نحو مئة مليون ونقض شرط الملاحة الواضع له كرومويل لانقطاع فائدته في تلك الايام . ثم توّج مآثره بالعدول عن الخطة الاستعمارية التي كانت اوربا كلها تجري عليها وكانت سبب انتقاض امريكا الشمالية على انكلترا وامريكا الجنوبية على اسبانيا والبرتغال وكندا ولويزانا على فرنسا فمنع السيادة المطلقة لبريطانيا العظمى على أملاكها الخارجية وأعطى كل مستعمرة حرية ادارة شؤونها على يد مجلس شوروي تنتخبه وحاكم مراقب منفذ من قبل الحكومة الانكليزية . الا انه استثنى الهند والمراكز الحربية كجبل طارق ومالطه وما شاكلهما . ولم تلبث انكلترا ان جنت ثمرة هذه الاصلاحات فان تجارتها تضاعفت من سنة ١٨٣٢ الى سنة ١٨٤٩ وايراداتها زادت بما ينيف على ٥٠ مليون جنيه في حين ان سائر الدول كانت تجد العجز في ميزانياتها . وانما نجت بريطانيا العظمى من توالي الثورات

فيها كما كان يحدث في جوارها لان حكومتها كانت تقدم النظر في حاجات الشعب فتقضيها له قبل أن يحمل السلاح ليطالب بها ومن هذا القبيل وضعها ضريبة الايراد في سنة ١٨٤١ لتعفي الغلال واللحم والجعة وسائر الحاجيات من رسوم المكس والجمرك ثم اغلانها حرية الاتجار في سنة ١٨٤٦ لتزيد رفاهة الشعب وتوسع عليه ابواب المكاسب

﴿ فصل ﴾

﴿ في النظام الدستوري في بروسيا (١٨٤٧) ﴾

ان الجرائد كانت تنشر الافكار الحرة في كل مكان وتستثير الخواطر وحدث في سنة ١٨٤٥ ان ولايات سيلازيا وغرندوقية بوزن وبروسيا الملكية طالبت بحرية الصحف ونشر المناقشات بانواعها وتعديل قانون العقوبات على مبادىء القضاء الفرنسوي فرفض الملك كل هذه الاقتراحات وكان يقول لا يفصلني شيء عن مباشرة امور شعبي غير انه اضطر بعد ذلك بسنتين ان يعدل عن هذه الخطة وعقد جمعية عامة دعا اليها مندوبين من جميع بلاده على سبيل الاستشارة فقررت ان يكون لها حق مراجعة الحسابات السنوية المتعلقة بالدين العام وحق التناقش في جميع القوانين العامة . ومنها قوانين الضرائب وانه لا يجوز لجمعية او لجنة اخرى ولو كانت منتخبة من بين أعضائها ان تقوم مقامها في اعمالها وبذلك قيدت

الملك ووضعت الدستور النظامي في برلين وانفردت روسيا والنمسا بالاستعضاء على الروح الجديد ومحاربته بكل مافي طاقتهما

﴿ فصل ﴾

﴿ في نهضة اقوام بطلب الحرية في النمسا وايطاليا ﴾

ما عتم الانقلاب الذي حصل في بروسيا والفشل الذي اصاب البرنس دي مترنيخ من حيث فاز الاحرار على خصومهم في سويسرا ان شدا أزر النازعين الي الحرية في النمسا فأخذ أهل ستيريا والمجر وبوهيميا يطلبون الاصلاح الدستوري ولكن البرنس مترنيخ عاقبهم بتعويله على الحزب الالماني المعادي لهم وبنزعه من بوهيميا حق الاقتراع على الضرائب

اما في ايطاليا فقد حدثت ثورتان صغيرتان في كالابريا ١٨٤٤ وفي ريميني (١٨٤٥) فاخمدتا ثم انتشرت حرب الاقلام في طلب الاصلاح من حكومة الكنيسة وسائر الحكومات المحلية ولما جلس بيوس التاسع على سرير البابوية سنة ١٨٤٦ نظرت اليه ايطاليا نظر المنقذ فكان عند حسن ظنها به اذ انه شرع من فوره بالتفريج من كربة الناس فاستغنى عن حرسه السويسري وفتح السجون واستعاد المنفيين واشرك الكهنة فى تأدية الضرائب وأصلح القوانين المدنية والعقوبية وأسس جمعية أعيان استشارية ومجلسا لادارة الحكومة

ورد الى رومة نظامها البلدي ونشر لاول مرة ميزانية حكومة الكنيسة. واقتفى أثره ملك سردينيا وغرندوق توسكانا . وفي ٥ دسمبر ١٨٤٦ أوقدت النيران من أحد طرفي جبال الابنين الى الآخر سرورا بتذكار اليوم الذي انكسر فيه النمسويون في جنوا وأخذ الشعب ينادي النداء الروماني القديم « ليطرد البرابرة »

فاسرعت وزارة الاحرار الانكليزية (١٨٤٦) وأرسلت اسطولا الى مياه صقليا وأخذ سفيرها يطوف في ايطاليا ويشجع الشعب على طلب الدستور وكان حزب المعارضين في فرنسا يستحث البابا على الثبات في خطته ولكن الحكومة اضاعت اجمل فرصة للاتفاق مع انكلترا في هذه المسألة وتسويد نفوذ فرنسا على نفوذ دول الشمال فلم تبد حراكا بقصد استرضاء النمسا . ولما رأت هذه الدولة ما كان أرسلت مذكرة عنيفة الى البابا واحتلت مدينة فرا (أغسطس ١٨٤٨) فاحتج الفاتيكان بشدة على ذلك الاحتلال وعزم البابا على الاستمرار في سيره الى الامام . وتبعته ايطاليا . فان ليوبولد الثاني وكارلوس البيرت ملك سردينيا أجريا اصلاحات كثيرة في بلادهما ثم وقع وزراؤهما ووزراء البابا على محالفة حجتها الظاهرة توسيع نطاق الصناعة وزيادة رفاهية الشعوب الايطالية وباطنها اجلاء النمسويين (٣ نوفمبر) ثم دعي دوق مودينا وملك الصقليتين للاشتراك في هذه المحالفة فعدت ذلك النمسا انذاراً لها واحلت جنودها في

بارمه ومودينا (دسمبر) فعند ذلك شبت النار في جميع ايطاليا . وكان الايطاليون قبل ذلك بثلاثة أشهر قد ثاروا في ردجيو ومسينا (ستمبر) ثم في نابولي فعوقبوا ولكنهم استمروا ناهضين فامتدت حركتهم الى بارمه في ١٢ يناير ١٨٤٨ . وفي ١٦ منه انتشرت في جميع الجزيرة. وفي ١٨ منه زحف عشرة آلاف من الثائرين على نابولي يطلبون دستوراً فمنحهم فرديننـد الثاني ما طلبوه ولكن على شكل الدستور الفرنسوي الصادر في سنة ١٨٣٠ وبعد ذلك باربعة أيام نشر مثل هذا الدستور في فلورنسا وفي رابع مارس نشر في تورينو

اما البلاد التي كان النمسويون محتليها فقد مقتهم الناس فيها حتى النساء والاطفال . وكان الشعب يثور عليهم في جميع لمبرديا البندقية وفي ميلانو وبافي وبادو والنمسويون يزدادون اشتدادا عليهم ويعملون في رقابهم السيف بلا فائدة ولو وافقوهم على الاصلاح لكانوا هم الفائزين .

ولما تمت ثورة فبراير الجديدة في باريس قامت ثورة مثلها بعد ١٧ يوما في ويانه فطرد منها البرنس مترنيخ عدو التقدم وفي ٣٠ مارس لم يبق للنمسا في ايطاليا الا بعض القلاع . ومما تقدم يرى ان ساعة انتصار الروح الحر على روح التأخر القديم كانت قد ازفت بعد ان استمر عراكهما بضع عشرات من السنين

الباب الخامس والثمانون

﴿ في امريكا من ١٨١٥ الى ١٨٤٨ ﴾

لم نذكر شيئاً عن العالم الجديد في المدة التي انقضت بين سنتي ١٨١٥و١٨٤٨ اذ لم يحدث فيه أمر ذو بال . فان امريكا الاسبانية كانت في اضطراب داخلي انتجته حيلولة الاستبداد دون تهيؤ أهلها للاستنارة من الحرية . وامريكا البرتغالية كانت تتقدم على مهل فى ظل دستورها وكندا تنجح بما اطلق لها من الحرية والولايات المتحدة تخطو في سبل الحضارة خطوات الجبابرة وتباري أعاظم الدول بتجارتها ومصنوعاتها دون الادبيات والفنون الجميلة التي هي من لوازم النعمة القديمة لا المستحدثة ولم تحدث منازعات في داخلها تثبط ترقيها كما لم يتم لها فى الخارج مشكلة مع دولة اوربية سوى ما سبق لنا الالماع اليه من محاربتها لانكلترا (١٨١٢ – ١٨١٥) وذلك لان هذه الدولة كانت في عهد نابليون لا تكاد عمارتها تجد سفينة في بحر الا فتشتها أو اسرتها واتفق انها اعتدت على بعض مراكب الولايات المتحدة فاستاءت حكومتها وشهرت الحرب على انكلترا وانبثت جنودها واسطولها بحرا وبرا فكسرتهم وكسروها ثم بقي الفوز للامريكيين

وفي سنة ١٨٢١ اعترفت الولايات المتحدة باستقلال المستعمرات

الاسبانية وبعث رئيسها مونروي بخطاب الى مجلس الشيوخ ذكر فيه « ان حكومته تعتبر تداخل أية دولة اوربية لاعادة النظام الاستعماري الى بقعة من بقاع امريكا بمثابة عداء توجه الى الولايات المتحدة نفسها » وعلى هذه الخطة جرت سياسة هذه الجمهورية بعد ذلك بان لا تتداخل في شؤون العالم القديم ولا تأذن له جهدها بالتداخل في شؤون العالم الجديد وقد أيدتها في مسأله فنزويلا التي اختلفت عليها مع انكلترا منذ بضع سنين .

وفي الجملة فان نجاح هذه الجمهورية العظيم تحت راية الحرية السياسية التامة قد احدث في اوروبا تأثيرا جليلا على الافكار وكان مؤيدا لمذهب أعداء الاستبداد ومرغباً فى مبادىء الاحرار .

الباب السادس والثمانون

﴿ في ثورة ١٨٤٨ ﴾

بعد انتصار الاحرار فى سويسرا والحزب الدستوري في بروسيا ووقوع الفتن فى المانيا والنمسا طلبا للحرية ونهوض ايطاليا على رجاء طرد الاجانب والفوز بالاستقلال اشتدت عزائم المعارضين في فرنسا فاتحد تيرس واوديلون كما اتحد حزباهما على اخراج الوزارة أو تمنح الفرنسويين الاصلاحات التي كانوا يطلبونها لهم . فلما أبت ذلك

الحكومة كعادتها اقام المعارضون سبعين مأدبة للاحتجاج عليها . ثم حدث عند افتتاح الجلسة الاولى بعد عطلة مجلس النواب ان گيزو استصدر من الملك تصريحا في خطابه الافتتاحي بان مئة من النواب أعداء للعرش (٢٨ دسمبر ١٨٤٧) فتلت ذلك مناقشات عنيفة مهيجة استمرت ستة أسابيع . وفي ١٨ فبراير استعد المعارضون للاحتجاج بمأدبة أخيرة يقيمونها في القسم الثاني عشر من باريس ورأى حزب الجمهوريين ان الفرصة موافقة لهم فاستعدوا لانتهازها . وفي ٢١ أغسطس اودع أوديليون في مكتب مجلس النواب شكاية من الوزراء فاستاءوا ومنعوا الاجتماع للمأدبة الانذارية . غير ان هذه الوزارة سقطت في مساء ٢٣ فبراير وخلفتها وزارة برئاسة تيرس ففاز المعارضون بامنيتهم ولكنهم لم يستطيعوا صد التيار الذي دفعوا الرأي العام فيه وحدث في المساء ان رجلا مجهولا أطلق عيارا ناريا على مخفر قصر الخارجية فاجابت العساكر باطلاق النار على المارة فقتلت خمسين منهم فحمل الآخرون جثثهم وطافوا بها في المدينة وهم ينادون « لقد قتلوا اخوتنا . الانتقام الانتقام » فتسلح الجميع ودارت رحى القتال والمنازعات فأخذ القائد بوجود يستعد للدفاع غير انه وصله في ليلة ٢٤ أمر من وزيره بان يرتد بعساكره الى قصر التويلري فلم يطع هذا الامر واستقال . وفي ظهر ذلك اليوم استقال أيضاً الملك لويس فيليب وخرج من قصره محميا ببعض شراذم من الجنود ولم يلحق

به أحد في فراره. ثم ذهب الثائرون الى مجلس النواب واقاموا فيه حكومة موقتة

الباب السابع والثمانون

﴿ في اهم الحوادث التي جرت في فرنسا من سنة ١٨٤٨ الى ١٨٧٠ ﴾

﴿ فصل ﴾

﴿ في الجمهورية الفرنساوية الثانية (٢٤ فبراير ١٨٤٨ — ٢ دسمبر ١٨٥١) ﴾

في ٢٤ فبراير من السنة التالية (١٨٤٨) نادت الحكومة الموقتة بالجمهورية ورضيت سائر فرنسا بما قررته باريس كعادتها . ولكن التجارة والصناعة كانتا في وقوف وكساد والمالية في انحطاط فاضطرت الحكومة ان تزيد على الضرائب أربعة رسوم غير مقررة وكان الوف من الفعلة لا قوت لهم ولا عمل فابتنت معامل وطنية لتعولهم بها غير أن تلك الجماهير التي عبثت باحلامها دسائس الاشتراكيين لم تلبث ان تسلحت وأحدثت فتنة جسيمة في باريس طالت أربعة أيام بين حزب الحكومة وجنودها وثوار الاشتراكيين الذين كانوا يبلغون مئة الف . وقد قتل فيها ٥٠٠٠ من الفريقين بينهم ٧ قواد ونائبان وكان بين الجرحى أربعة قواد وثلاثة نواب . وبلغ عدد الذين قبض عليهم في أثناء القتال وفيما بعده ١٢٠٠٠ نفس نفوا الى افريقيا . (يونيو ١٨٤٨)

• وخرجت الجمهورية مستضعفة من هذه المعركة فاسرعت في وضع اساسات دستورها وهي توحيد السلطة الانفاذية والقاء زمامها في يد رئيس منتخب . وكان المرشحان لهذا المنصب السامي القائد كافينياك والبرنس لويس نابليون بونابرت ابن اخي الامبراطور فانتخب ثانيهما (١٠ دسمبر) بأغلبية عظيمة وكان ذلك بمثابة احتجاج من الشعب على الجمهورية اذ كان الفلاحون غير راضين عنها لما زادته عليهم من الضريبة وكان أرباب الثروة والصنائع مستائين منها لما جرى في عهدها من الفتنة الاشتراكية ثم لم يلبث النزاع ان وقع بين السلطتين الانفاذية والتشريعية وفي سنة ١٨٥١ طالب الرئيس الغاء قانون كان يقضي بمحو ثلاثة ملايين اسم من دفتر المنتخبين (٤ نوفمبر) فابى النواب ذلك عليه كما أبوا عليه حق استدعاء الجنود مباشرة للدفاع عن نفسه بصفته نائباً عن الامة وكانوا بذلك ينوون له السوء غير انه كان مستظهراً بالجيش واكثرية الشعب فما عتم ان فض الجمعية وعرض على الامة دستوراً جديداً وافقت عليه بالاغلبية وكان من مقترحاته فيه ان تجعل له الرئاسة الى عشر سنين . ولم يكن هذا الطلب الا تطرقاً الى اعظم منه ففي ٢ دسمبر من سنة ١٨٥٢ نودي به امبراطوراً ووافق على ذلك الشعب باغلبية تربو على خمسة ملايين صوت

﴿ فصل ﴾

﴿ في الامبراطورية الثانيه (١٨٥٢ — ١٨٧٠) ﴾

ولقب البرنس لويس بالامبراطور نابليون الثالث فزاد معالم الاحسان والاغاثة الى ضعفيها ونشط الصناعة ووسع نطاق التجارة بالمعاهدات التي أبرمها مع الدول سنة ١٨٦٠ وملأ فرنسا بالخطوط الحديدية وأنمى المعارف وبالغ في ترقيتها ولكن الحروب التي حدثت في عهده كدرت الصفاء السائد وثبطت خطى النجاح فمنها حرب القريم ادارها لقطع طريق الاستانة على روسيا (١٨٥٤) واشتركت فيها انكلترا. ومنها حرب ايطاليا فتحها لصد غارة النمسويين على وادي البو (١٨٥٩) ومنها حملات سوريا والصين وكوشنشين ومكسيك وفي الختام حرب السبعين الهائلة التي خسرت فيها فرنسا مقاطعتين و١٤ مليارا وتحملت في نهايتها ثورة جديدة على ما سيأتي بيان ذلك كله

الباب الثامن والثمانون

﴿ في اوربا من سنة ١٨٤٨ الى ١٨٧٠ ﴾

ان الثورة التي قلبت حكومة فرنسا لم تلبث ان احدثت ثورات مثلها في نصف القارة الاوربية ولكن الثائرين تمادوا في غيهم فوقعوا على عكس ما أرادوا

ففي شهر مارس ثار أهل ويانه وبرلين والمانيا والبندقية وميلانو وسلسويك وهولستين وعقبت الثورة فى بافاريا استقالة ملكها وفي بارمه اعتزال دوقها

وفى ابريل ثارت مودينا وصقليا وغرندوقية باد . وفى مايو ثارت بوزن ورومه ونابولي والمجر . وحدثت حركة جديدة في ويانه فلجأ أمبراطورها الى انسبروك . وفى يونيو ثارت بوهيميا وبخارست

أما بلجكا والبرتغال وأسوج والدانمرك وهولنده وسويسرا وانكلترا فلم يحدث فيها ما يذكر وكان الاصلاح يجري فى اكثرها على مهل

غير أن امبراطور النمسا لم يلبث ان استعان بالقيصر فانجده بجيش دخل قسم منه بخارست ونفذ الآخر الى قلب المجر . فتخوف الشعب في النمسا والمانيا وبروسيا وعاد الامبراطور الى سريره والامراء الجرمانيون الى أرائكهم واشتد ازر ملك بروسيا . وظن القيصر أنه بعد هذه الخدمة التي اصطنع بها جاره يجوز له قلب ظهر المجن لتركيا وطردها الى آسيا والاستيلاء على مكانها فى اوربا الا أن الجنود الفرنسويين والانكليز ثم قسما من البيامنتين حالوا بحرب القريم دون تحقيق أمنيته .

وكان هذا الفوز انتقاماً لفرنسا من روسيا ثم انها انتقمت من

النمسا في ايطاليا ولكن وحدة هذه البلاد كان لا بد ان تتبعها وحدة المانيا وهذا ما حاول امبراطور النمسا أن يصل اليه اذ دعا الامراء الجرمانيين الى وضع تاج الامبراطورية الالمانية على رأسه غير ان فرنسا هالها ما تأول اليه النمسا من ضخامة الملك فيما اذا انضمت المانيا اليها فانحازت الى بروسيا وتركتها تنزع من الدانمرك احدى مقاطعاتها (حرب سلسويك) ثم تسحق جيوش النمسا في سادوا وتضم نصف المانيا اليها . وقد غلطت بذلك غلطة منكرة فانها بعد هذه الحادثة باربع سنين لقيت من بروسيا تحرشاً بها فاخذت تحاربها وهي على غير أهبة فسحقتها جيوش عدوتها وكان عدد البروسيين يزيد ضعفين او ثلاثة اضعاف عن عدد جنودها

والخلاصة ان تاريخ اوربا من سنة ١٨٤٨ الى ١٨٧٠ ينحصر في هذه الامور وهي انحطاط السلطنة العثمانية وهبوط النفوذ الروسي والنمسوي وانحطاط فرنسا على أثر حرب بروسيا ونشأة دولة ايطاليا.

﴿ الباب التاسع والثمانون ﴾

﴿ في بقية تاريخ الدولة العلية والولايات التي سُلخت عنها ﴾
« من سنة ١٧٩٢ الى سنة ١٨٩٦ »

﴿ فصل ﴾

﴿ في السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ — ١٨٠٨) ﴾

هو الذي وقع على معاهدة ياش كما ذكرنا وفي عهده دخل نابليون الديار المصرية ثم اخرجت جنوده منه وتولاها محمد علي باشا وجرت له حرب مع الروس والانكليز بسبب محالفته لفرنسا فدخل الاسطول البريطاني بوغاز الدردنيل فامتنع عليه فخرج محطما وذهب الى الاسكندرية فضربها وفتحها من فيه من الجنود ونفذوا الى رشيد فكسرهم فيها علي بك الشهير ثم حاصرهم محمد علي في الاسكندرية وأجلاهم عنها بعد عقد شروط بينهم وبينه. وجاء الاسطول الروسي بعد الاسطول الانكليزي فرسا على فم بوغاز القسطنطينية ليمنع ارسال المدد الى مصر التي ذهب الانكليز اليها لاحتلالها فصادمه الاسطول العثماني وأحدث به من التلف ما اضطره الى الجلاء ودامت بعد ذلك الوقائع براً وبحراً بين الروس والعثمانيين سجالا . وكان السلطان في خلال ذلك يعد جيشاً على الطرز الغربي الجديد ليدمر اوجاق الانكشارية فهاجوا وخلعوه وكانوا يمقتونه من أجل ما شرع فيه من الاصلاحات التي كانوا ينكرونها على كل السلاطين لتخوفهم منها على أنفسهم ورغبتهم في بقاء السلطنة على ضعفها وانحلالها ليستفيدوا أبداً من عبثهم بها .

﴿ فصل ﴾

(في السلطان مصطفى الرابع (١٨٠٧ — ١٨٠٨)

لم يتول الخلافة الا سنة وقد تم في خلالها الصلح بين الدولة

وروسيا بمسعى من نابليون الاول ثم رأى السلطان ان حزبا كبيراً يميل الى ارجاع السلطان مصطفى المخلوع فأنفذ اليه من قتله فقبض عليه الثائرون من أجل ذلك وخلعوه

﴿ فصل ﴾

﴿ في السلطان محمود الثاني (١٨٠٩ — ١٨٣٩) ﴾

بعد أن بويع بالخلافة باشهر قرر ديوان الشورى قتل السلطان مصطفى لدفع سبب كبير من أسباب الفتن ففعل . وصالح هذا السلطان الانكليز ثم استأنف محاربة الروس الى ان شهر نابليون عليهم الحرب فعقدوا معه معاهدة بكرش (١٨١٢) مسرعين ليجمعوا كل جموعهم ويقاوموا بها طاغية الغرب وكانت هذه المعاهدة جميلة للدوله قضت ببقاء البغدان والافلاق تابعتين لها وكذلك الصرب الا انها جعل لها بعض الامتياز .

ثم شرع السلطان في اخماد ثورة الوهابية . وأتم ذلك بامره محمد علي والي مصر على ما رأيناه . واستأصل الخليفة ايضاً طائفة الدره بكار وكانوا أقوياء ممتنعين ذوي اقطاعات ثم بدأت الثورة اليونانية فشغلت الدولة زماناً وفي أثنائها عادت روسيا فعدلت مع الدولة معاهدة بكرش بما يجعل للافلاق والبغدان اميرين اهليين الى سبع سنين ويمنح الروس حرية الملاحة في البحر الاسود وسمي هذا التعديل بمعاهدة اقرمان (١٨٢٦)

• وفي خلال حرب اليونان أيضاً دمر السلطان الانكشارية حتى أفناهم واستراحت الدولة من شرورهم . وفي سنة ١٨٢٨ رأت روسيا ضعف الدولة على أثر تنكيلها بالانكشارية دون ان تكون قد استعاضت عنهم بجيش أفضل منهم فتمحلت سبباً لاعلان الحرب عليها وذلك ان السلطان أبى بعد موقعة نافارين أن يقر باستقلال اليونان فتقدم الروس حتى خيف منهم على الاستانة وعند ذلك تداخلت الدول في عقد الصلح (١٨٢٩) فكانت أهم مشتملاته جعل نهر بروت حداً فاصلاً بين السلطنتين ومنح روسيا حرية الملاحة في البحرين الاسود والمتوسط والتنازل لها عن مصاب الطونه وبوتي والجزء الاعلى من مصب نهر خور بآسيا واستقلال الافلاق والبغدان وبقاء الصرب على ما كانت عليه بموجب معاهدة أقرمان ودفع غرامة حربية وعوض للتجار الروس واعتراف الباب العالي باستقلال بلاد اليونان وكان الفاصل لها عن الدولة العلية خط وهمي يمتد من ارطى الى فولو وكانت من مشتملاتها جزائر سقلاده ونغربنطس وموره.

وفي سنة ١٨٣٠ شرع الفرنسويون في فتح الجزائر فلم يقو السلطان على مدافعتهم

وفي سنة ١٨٣١ سارت جيوش محمد علي باشا بقيادة نجله ابرهيم لفتح الشام وكسرت عساكر الدولة ثم عقدت معاهدة هنكار اسكله سي

بتوسط روسيا على ما مر بيانه وبعد ذلك استؤنف القتال وجرت موقعة نزيب الشهيرة بجوار حلب وقبل ان يرد نبأها الى الاستانة كان السلطان قد توفاه الله مأسوفا عليه لكثرة ما أصلح وجاهد وتعب في رتق الفتوق الكثيرة التي كانت تضعف السلطنة

{ فصل }

{ في السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ — ١٨٦١) }

لما بويع بالخلافة بلغه نبأ انتصار ابرهيم باشا فاجتهد في حل المسألة المصرية وعقد لذلك مؤتمرا في الاستانة تقرر فيه أن لا تكون لمحمد علي باشا الا بلاد مصر وانفذ هذا القرار في سنة ١٨٤٠ وفي السنة التالية عقدت معاهدة البواغيز التي تقرر فيها ان لا يجوز لدولة امرار سفنها الحربية من بوغازي البسفور والدردنيل . وبعد ذلك صدر فرمان الوراثة لبيت محمد علي باشا ومنح الاستقلال الاداري للقطر المصري

ولما فرغ السلطان من هذه الاعمال اصدر خط الكلخانه وشرع في تعميم المعارف والاصلاح الاداري والمالي والعسكري فاضطربت لذلك روسيا وخافت من ترقي الامة العثمانية فانتهزت فرصة خلاف وقع في القدس بين الطائفتين اللاتينية والارثوذكسية وشهرت الحرب على الدولة العلية فكانت أشهر وقائعها واقعة

سينوب البحرية التي دارت دائرتها على الاسطول التركي مع ما أبلى جنوده من البلاء الحسن . ثم تداخلت فرنسا وانكلترا في الامر لكف روسيا عن مطامعها واتحدتا مع الدولة العلية وجرت حرب القريم وحصار سبستبول الشهير الذي فاز فيه المتحالفون كما ذكرناه وفى سنة ١٨٥٦ عقدت معاهدة باريس وتقرر فيها أن للدولة العلية حق الفصل المطلق فى خصوماتها الداخلية كسائر الدول وأن لا يجوز الا للسفن العثمانية والروسية النفوذ فى البحر الاسود وان يقام مجلس مختلط لتأمين السفن التجارية فى الطونه وأن تستقل ايالات الافلاق والبغدان والصرب داخلياً وتشترك الدول الموقعة على هذه المعاهدة فى انتخاب امرائها

ثم حدثت فتن عظيمة فى بوسنه وهرسك وكريد أخمدها رجال الدولة العظام المشاهير بحسن سياستهم ودهائهم وأولهم الصدر رشيد باشا الذي توفي في بدء هذه الحوادث ثم عالي باشا الذي خلفه وفؤاد باشا ناظر الخارجية . وفى سنة ١٨٦٠ حدثت الفتنة المشهورة فى الشام بين الدروز والمسيحيين واشترك فيها والي دمشق وجمهور من الحكام فاخمدها فؤاد باشا وأعانته على ذلك دولة فرنسا باحتلالها البلاد الى سنة ١٨٦١ ثم قررت الدول منح امتياز استقلالي لجبل لبنان ونصب وال مسيحي عليه

« فصل »

{ في السلطان عبد العزيز (١٨٦١ — ١٨٧٦) }

كان أول شروعه في الاصلاح أن شكل مجلس شورى الدولة وديوان الاحكام العدلية وأصدر نظامنامه سنتي ١٢٨١ و١٢٨٧ ثم أصلح المالية والعسكرية والبحرية والف فرقة من أولاد امراء العشائر بازيائهم المعتادة وجدد الاسلحة والمدافع والذخائر . ثم أقام معرضاً جميلا في الاستانه وزار الاسكندرية والقاهرة فقوبل بالتهايل والتعظيم اللائقين بمقامه السامي ولا سيما وان الرعية كانت قد اعتادت أن لا ترى سلطانها . وبعد ذلك حدثت فتنة الجبل الاسود واشتدت الى أن انتهت باستقلال الجبل المذكور (١٨٦٤) ثم تحركت بلاد الصرب فتنازلت لها الدولة العلية عما كان باقياً لها من القلاع والمراكز فيها (١٨٦٧) ثم ضمت الافلاق والبغدان الى مملكة سميت بمملكة رومانيا (١٨٦٥) وكل هذه الانقلابات رضيت بها السلطنة عملا بما أرادته الدول التي كان يزداد تداخلها في شؤونها يوما بعد يوم. وفي سنة ١٨٦٦ ثار أهل جزيرة كريد بايعاز من روسيا فلم توافق الدول على انفصالهم عن السلطنة وانضمامهم الى مملكة اليونان فقمعت ثورتهم ومنحوا بعض الامتيازات على ما تقرر في مؤتمر عقد في باريس (١٨٦٩) وفي سنة ١٨٧٠ بعث السلطان البعوث لاخماد ثورة

استفحلت في جزيرة العرب فكأنما فتحها جنوده فتحا جديدا لكثرة ما عانت من المشاق . ومما يذكر لعبد العزيز زيارته لمعرض باريس وعواصم اوربا ورغبته الصحيحة في الاصلاح ولا سيما على أثر عودته الا أنه لم يوفق في انفاذ كثير منها . وفي سنة ١٨٦٦ استصدر اسمعيل باشا والي مصر فرمانا نال به لقب خديو وحق ايراث منصبه لذريته ثم استمنح امتيازات اخرى كبيرة جمعت كلها في فرمان سنة ١٨٩٠ . وكانت الدولة العلية قد عارضت في فتح ترعة السويس الى سنة ١٨٦٦ ثم صدرت ارادة سنية لاسمعيل باشا بالموافقة عليه ولما تم زار اسمعيل عواصم اوربا ودعا اكابر الملوك لحضور الافتتاح فاتوا القاهرة وجرت تلك الحفلة الباهرة في ١٧ سبتمبر من سنة ١٨٦٩

وفي سنة ١٨٦٦ توفي الصدر عالي باشا فأخذت احوال الدولة تضعضع في الداخل لخروج جمهور من أعاظم الرجال على السلطان وكانوا منفيين منه خائفين عليه كل السبب فهاجروا الى اوربا وأخذوا يستثيرون الرأي العام عليه . وقامت في تلك الاثناء فتنة ولايتي بوسنه وهرسك (١٨٧٥) فاطفئت ثم فتنة البلغار (١٨٧٦) فاستفحلت وحدثت فيها فظائع عظيمة وارتفع صوت غلادستون في الطعن على السلطان فاراد أن يتدارك الامر قبل استفحاله فمنح الولايات التي ثارت بعض الامتيازات فلم ترض بها بل أرادت انجلاء الجنود

العثمانية عنها كما حصل ذلك قبلا للصرب والجبل الاسود . وكانت الاحكام في الاستانة وغيرها قد ساءت كثيرا فتحزب الصفطاء وجمهور من أهل العاصمة وأيدهم جماعة من الحكام وأفتى لهم شيخ الاسلام فحوصر قصر السلطان بالجنود وخلع (٢٨ مايو ١٨٧٦) ثم قتل بعد أربعة أيام

﴿ فصل ﴾

« في السلطان مراد الخامس (١٥٧٦) »

بعد أن تبوأ السرير اشتدت الفتنة في بوسنه والهرسك والبلغار وثار أهل الصرب والجبل الاسود ثانية فجهز السلطان الجيوش وكان منها جيش مصري بعثه اسمعيل باشا وأنفذها لاخماد تلك الثورات فانتصرت في كل جانب الا في الجبل الاسود لوعورة المسالك ومنازلة العصاة لهم بدون انتظام وفي خلال هذه الحوادث جن السلطان مراد وقال الاطباء ان علته لا يرجى شفاؤها فبويع أخوه جلالة السلطان عبد الحميد الثاني (٣٠ أغسطس ١٨٧٦)

﴿ فصل ﴾

« في جلالة السلطان عبد الحميد الثاني »

تبوأ التخت في يوم الخميس ٣١ مارس من السنة المذكورة آنفاً وأقر وزراءه وأصدر فرمانا بما في نيته من اصلاح امور

الدولة . ثم أمر بارسال الجنود الى حدود الصرب والجبل الاسود وبوسنه وهرسك لاخماد الثورة فانتصرت على العصاة في كل مكان فتوسطت الدول في عقد هدنة لوضع شرائط الصلح . وفي أثناء المداولات استقال الصدر الاعظم فاستخلف بمدحت باشا واصدر جلالة السلطان القانون الاساسي ووضع مجلساً للشورى جامعاً للنواب عن كل الملل العثمانية ارادة تحسين شؤون السلطنة . وبعد شهرين من صدارة مدحت نفي بدسيسة روسية وخلفه أدهم باشا وارجيء عقد مجلس الشورى الى أجل غير مسمى ولما كان السفراء في حين اجتماعهم لتقرير شروط الصلح مع الولايات الثائرة لم يقبلوا اشتراك مندوب عثماني معهم بل وضعوا اللائحة ثم عرضوها للموافقة عليها استخفافا بالدولة رفضها الباب العالي وكذلك أباها مجلس الشورى في جمعية عامة له فساقت روسيا ٢٥٠٠٠٠ مقاتل الى الحدود التي بينها وبين الدولة العلية و١٥٠٠٠٠ الى حدود الاناضول وفي خلال ذلك أصدرت لائحة تعرف بالبروتوكيل سألت فيها الدول التي اشتركت في مؤتمر الاستانة أن تكلف الباب العالي باسترجاع الجنود من مواقف القتال وترك السلاح والاهبة الحربية وتحسين أحوال الولايات الثائرة تحت مراقبة السفراء فرفض الباب العالي هذه اللائحة الجديدة المجحفة بحقوقه وأعلنت الحرب . وكان للدولة العلية اسطولان في البحر الاسود

فاستولت بهما على بعض المواني والقلاع وقطعت الطريق على السفائن الروسية . وكان لها اسطول في نهر الطونه لم يلبث الاعداء ان ضيقوا عليه مذاهبه بما وضعوه من عراقيل النساف في طرقه وكان لها اسطول في البحر المتوسط صحب الجيش المصري الذي أرسل لمساعدتها وكان يسكن الجزر والشواطيء التي استعد أهلها للثورات . هذا من حيث ما جرى في البحر وأما وقائع البر فهي التي كان لها الشأن العظيم ولذلك نبسط فيها الكلام قليلا فنقول قد علمنا عدة الجنود التي جهزتها روسيا في بادي الامر وأما الدولة العلية فحشدت جيوشها وجعلت مختار باشا قائدا عاما لجنودها في أرضروم والمشير عبد الكريم نادر باشا قائدا عاما في الروم ايلي والمشير درويش باشا قائدا في باطوم وعثمان باشا قائدا في ودين

وفي ٢٥ ابريل من سنة ١٨٧٧ تحركت عساكر الروس متقدمة ودخلت الحدود العثمانية مستعينة بالميرة والذخيرة اللتين كانت رومانيا تقدمهما لها سرا قبيل أن تجاهر بالعداء لمتبوعتها السلطنة العثمانية . وفي ٢٧ يونيه من السنة المذكورة كانت مقاتلة الاعداء قد جازت ولايتي افلاق وبغدان وعبرت نهر الطونه وعبد الكريم باشا لا يبدي حراكا للدفاع ولذلك عزل ونصب محمد علي باشا والي مصر في منصبه . ثم سارت جنود الروس نحو البلقان واستولت على مضايقه ومواقع اخرى فيه واحتل جانب منها مدينة نيكوبولي فلما

رأى عثمان باشا ذلك اتخذ بلونه حصناً له وهي مركز في ملتقى الطرق بين سواحل الطونه ومضايق جبال البلقان فهاجمه الاعداء مرتين وكانوا اكثر عددا من جنوده فعادوا خائبين . وعند ذلك ورد مدد من العساكر العثمانية فاضيف الى الجيش وقسم الى ثلاثة أقسام أحدها بقي في بلونه تحت قيادة عثمان باشا والآخر انتصر على جيش للروس باسكي زغره والثالث كان يقوده محمد علي باشا دحر الاعداء في موقعة صاري نصوحار فأصبح مركزهم في أشد الحرج وعند ذلك بعثت رومانيا بمئة الف مقاتل لانجاد الروس فعبروا الطونه وقدم القيصر بنفسه الى ساحة القتال فاستؤنف العراك وعلت كلمة الروس وتقهقرت جنودنا الى وارنه وفي ٢٤ اكتوبر حوصرت وارنه حصارا شديداً الى أن عض الجوع حاميتها بنابه فاخرجها عثمان باشا الى النصر أو القبر وكان المحاصرون ثلاثة اضعافها فغلبوها وجرح عثمان باشا وسلم سيفه فرده اليه القيصر اعجابا منه بشجاعته .
أما الحوادث التي جرت في خلال ذلك في الاناضول فلم تكن أقل أهمية من التي ذكرناها وهي أن الجنود الروسية كانت قد استولت على مدينة اردهان (١٧ مايو ١٨٧٧) وحاصرت قارص وأخذت تهدد ارضروم ثم استولت على مدينة بايزيد (٢٠ ابريل) وكسرت جنودنا في موقعة درام ضاغ (١٠ يونيه) فاحتل مختار باشا مرتفعات زوين ودحر فيها الروس دحرا شديدا في ٢٦ يونيه فرفعوا الحصار

عن قارص وتقهقروا وتعقبهم مختار باشا فانتصر عليهم نصرات باهرة في عدة مواقع اشهرها موقعة كدكلر التي لقب على أثرها بالغازي وبعد ذلك وردت النجدات الى الروس فقاوموا مختار باشا ثم ردوه ناكصاً على أعقابه وحاصروا قارص حصاراً شديداً الى ان استولوا عليها عنوة (١٨ نوفمبر). فهرع مختار باشا الى مدينة أرضروم وضم اشتات الجيش وأقام الحصون والمعاقل بسرعة عجيبة واستمر في مركزه مدافعاً للروس الى نهاية الحرب وكان ذلك من أجل الاعمال العسكرية ولم يكتف الروس بما نالوه من النصرات بل خافوا أن ينقطعوا عن القتال مدة الشتاء فتجدد الدولة العلية بعض قواها المفقودة وتخمد بعض الثورات القائمة على ساق وقدم في افلاق وبغدان والصرب والجبل الاسود فاستمروا يسيرون الى الامام وجازوا جبال البلقان بين الثلوج المتراكمة الى أن استولوا على صوفية بعد قتال (٢ يناير ١٨٧٨) وعلى شبقه (٩ يناير) ثم قاتلوا جيش سليمان باشا الذي أبلى بلاء عجيباً مدة ثلاثة أيام ولكنه لم يلبث أن تقهقر الى جبال ردوب (١٩ يناير) ثم فتحوا ادرنه ودنوا من أبواب الاستانة فطلبت الدولة العلية عند ذلك هدنة للمباحثة في الصلح وفي ٣ مارس من سنة ١٨٧٨ وقعت الدولتان المتحاربتان على معاهدة سان ستيفانو التي حالت الدول ولا سيما انكلترا دون انفاذها فاستبدلت بمعاهدة برلين الشهيرة (١٣ يونيه ١٨٧٨) وأهم مشتملاتها تقسيم البلغار الى قسمين

أحدهما وهو الشمالي تكون منه امارة البلغار المستقلة تحت سيادة الباب العالي والثاني وهو الجنوبي يدعى ببلاد الروم ايلي ويكون تابعاً للدولة العلية وله شيء من الامتياز وان تكون الملاحة في الطونه جائزة لمن يشاء وان تستقل رومانيا سياسياً وتمنح مقاطعة دوبروجه وان تستقل الصرب تماما وتمنح اقليم نيش وتستقل امارة الجبل الاسود وتمنح فرضة انتيفاري وثلث الاراضي التي أعطيتها بمقتضى معاهدة سان ستيفانو الملغاة وتعطى روسيا بسارابيا ويضم الى املاكها بآسيا مدن قارص واردهان وباطوم . وما بقي لتركيا من الاملاك بآسيا تعهدت انكلترا بحمايته في نظير تنازل السلطنة لها عن جزيرة قبرص بمقتضى معاهدة دفاعية عقدت في تلك السنة نفسها بين الدولتين، وجعلت الغرامة ٢٤٥٢١٧٣٩١ ليره عثمانية ومنحت دولة ايران اقليم قطور والنمسا فرضة اسبيزا واجيز لها احلال عساكرها في بوسنه وهرسك الى أجل غير مسمى لتقيم فيهما الاصلاحات ومما قضت به هذه المعاهدة أيضاً قبول شهادة جميع العثمانيين امام المحاكم واجراء النظام الاساسي الموضوع سنة ١٨٦٨ لكريد وادخال اصلاحات جمة من قبيل هذا النظام على الممالك العثمانية كلها وخصوصاً الاقاليم التي يسكنها الارمن حيث تعهدت الدولة بحمايتهم من الجركس والاكراد وان تبلغ دول اوربا آناً بعد آن عما تنفذه من هذه التحسينات الداخلية

وعلى الجملة فقد جاءت هذه المعاهدة في نهاية الاجحاف بحقوق الدولة العلية ولم تمض على نفوذها الا اشهر حتى حدثت فتنة كريد التي افضت الى عقد معاهدة هلبية (٢٥ اكتوبر ١٨٧٨) وتحركت دولة اليونان وامارة الجبل الاسود تطالبان بما منحهما مؤتمر برلين من البلاد فاجابتهما السلطنة الى ذلك بعد مداولات طويلة

وعلى أثر ذلك خرج الالبانيون على الدولة فارسل اليهم درويش باشا فتغلب عليهم (٤ مايو ١٨٨١) ولكنهم لم يدخلوا في الطاعة على مايجب . وفي ٢٩ يونيه من سنة ١٨٨١ حكم بالقتل على مدحت باشا وثمانية من ذوي المناصب العالية بدعوى أنهم قتلة السلطان عبد العزيز ثم حولت عقوبتهم الى النفي . وفي خلال سنتي ٨١ و٨٢ احتج الباب العالي على احتلال فرنسا لتونس وانكلترا لمصر ومن ذلك الوقت أخذ يتقرب من المانيا استنصاراً بها واستعان بضباطها لتجديد نظامات الدولة العسكرية. وفي غرة يوليو من سنة ١٨ حمل اسكندر باتنبرج الذي كان قد جعل أميرا على البلغار مجلس نواب الامارة المذكورة على منحه قوة تشريعية شبيهة بالمطلقة الى سبع سنوات . وفي سنة ١٨٨٩ فتح الخط الجديد الذي يصل الاستانة بالبلاد الاوربية ومنحت بعد ذلك امتيازات ميناء بيروت وبعض الخطوط الحديدية الأخرى المعروفة في الولايات . وزيد عدد المدارس التى اقيمت فى جميع الجهات وفى سنة ١٨٩٠

حدثت المذابح الارمنية الاولى في ولايات ارضروم وبتليس ووان وبايزيد وغيرها ثم تجددت في ولاية موش فنشأ عن ذلك أن الارمن المقيمين فى الاستانة اجتمعوا في كنيستهم وسألوا بطريقهم آشقيان ان يرفع عريضة من قبلهم الى السلطان يطلب عدة من الاصلاحات فأبى فضربوه وجرحوه وعلى أثر ذلك استقال من منصبه غير ان الباب العالي لم يلبث ان أجاب الارمن الى بعض مقترحاتهم وفي شهر دسمبر من السنة المذكورة عين جواد باشا صدراً أعظم مكان كامل باشا

وفي ٩ اكتوبر من سنة ١٨٩٥ تجددت المذابح الارمنية في جميع الولايات التي وجدوا فيها فعظم شأنها فى الدنيا باسرها ونجمت عنها سلسلة مشاكل انتهت حين صدور الارادة السنية بالاصلاحات الجديدة التي قررها السفراء وأراد السلطان تعميمها فى جميع الولايات على السواء وفى خلال سنة ١٨٩٦ كانت إنباء الثورات والعصيان ترد من بلاد الاناضول والارمن وحوران بالشام ولا تزال كذلك الى اليوم.

﴿ فصل ﴾

﴿ في المملكة الرومانية ﴾

بعد أن جعلت بغدان وافلاق ولايتين مستقلتين أحبتا

الانضمام احداها الى الاخرى وكان أول مسعاهما في سبيل ذلك أن انتخبتا اميراً واحداً للولايتين يدعى كوزا فحاول أن يستبد فعزل ونصب مكانه كارلوس لويس هوهنزولرن البروسي تحت إسم كارلوس الاول وقد رأينا ما كان من مساعدة رومانيا لروسيا في محاربتها الاخيرة للدولة العلية واعتراف الدول باستقلالها رسميا في مؤتمر برلين. أما حوادثها الداخلية المهمة من ذلك العهد الى غاية سنة ٩٦ فاهمها ثورة الفلاحين (١٨٨٨) وتعديل القانون العقاري بسببها.

﴿ فصل ﴾

﴿ في الصرب ﴾

علمنا أن الصرب حاربوا الدولة العلية سنة ١٨٧٦ في خلال ثورة بوسنه والهرسك وارتدوا خائبين فلما دنت الحرب الروسية العثمانية من أواخرها أعلنوا الحرب ثانية على الدولة العلية فاصابهم من أجل ذلك نصيب جميل في مؤتمر برلين وهو اعتراف الدول باستقلالهم واضافة أرض واسعة الى بلادهم. وفي شهر مارس من سنة ١٨٨٢ قرر مجلس نواب الصرب ان يلقب الامير ملكا فدعي ميلان الاول وظل الى سنة ٨٩ ثم استقال على أثر تطليقه للملكة ناتالي قرينته ونصب ابنه اسكندر الاول ملكا مكانه وأقام له ثلاثة

أوصياء فافسدوا الاحكام باستبدادهم فعزلهم الملك ذات يوم وأعلن بلوغه الرشد . وفي سنة ١٨٩٤ خاف اسكندر خروج الشعب عليه لخلعه فاستبدل دستور سنة ١٨٨٨ بدستور سنة ١٨٦٩ . ومن أهم الحوادث التي جرت في الصرب محاربتها للبلغار في سنة ١٨٨٥ وذلك أن الروم ايلي الشرقية كانت قد ثارت وطردت واليها العثماني طالبة الانضمام الى البلغار فقبل الامير اسكندر دي باتنبرج مقترحهم واستعد لمحاربة الاتراك فحاولت الدول حسم الخلاف سلمياً فلم تستطع . وكان الملك ميلان قد جهز جيشاً ضخماً فلما رأى البلغار مشتغلين بمناجزة الدولة العلية شهر الحرب عليهم ودخل بلادهم فعند ذلك أرسل دي باتنبرج بلاغاً الى الباب العالي بانه يخلي عساكره عن الروم ايلي الشرقية وتقدم نحو الشمال لملاقاة الصرب فهزمهم مراراً ودخل بلادهم فالتجأ مع قلة جنوده وكثرة جنودهم فتداخلت النمسا في الامر وحملت المحاربين على المهادنة ثم تصالحا . ورأى السلطان أن يحسم مسئلة الروم ايلي الشرقية حسما نهائياً فولى أمير البلغار ولايتها الى خمس سنين ثم تجدد أو لا تجدد على ما تريده الدولة العلية ولا تزال الحال كذلك الى الآن .

﴿ فصل ﴾

﴿ في امارة الجبل الاسود ﴾

يحكم هذه الامارة البرنس نقولا الاول الذي خلف في ١٤

أغسطس من سنة ١٨٦٠ البرنس دانيلو الاول . ويبلغ سكانها الآن نحو المليونين . وفي سنة ١٧٨٦ ثار الجبل الاسود على الدولة العلية في خلال خروج الهرسك فحاربتها حربا شديدة مدة سنتين ثم منحت في مؤتمر برلين ما ذكرناه من الاستقلال وزيادة الاملاك

﴿ فصل ﴾

﴿ في ثورة اليونان سنة ١٨٦٢ وانتخاب جورج ﴾
﴿ الاول الدانمركي عليهم (١٨٦٣) ﴾

عند ما تقرر استقلال اليونان بمقتضى معاهدة ١٨٢٩ خافت الدول ان تضعف تركيا الى حدّ ان لا تقوى على مقاومة الروس اذا حاربوها فابقت لها كريد وسلموس وشيو وتساليا وابيروس فانتظر اليونان سنوح الفرص لتحرير سائر بني جنسهم ولما تقدمت جنود الروس نحو الطونه في سنة ١٨٥٤ هموا بمساعدتهم فحالت دون ذلك فرنسا وانكلترا ثم أخذت سباستوبول وعقدت معاهدة باريس بما لم يعجبهم فاتهموا ملكهم أوثون البافاري بخور العزيمة ولم يلبثوا ان خلعوه في سنة ١٨٦٢ . ثم انتخبوا بعده ولدا قاصرا للملك الدانمرك فسمي جورج الاول وفي سنة ١٨٦٣ تنازلت انكلترا لليونان عن الجزر اليونية جزاء لهم على انتمائهم الى سياستها . وفي سنة ١٨٧٧ نصحت لهم الدولة المذكورة بعدم الاشتراك مع روسيا ورومانيا

واهل الجبل الاسود والصرب في مناوأة الدولة العلية فلزموا السكينة الى أواخر الحرب ثم أرادوا الدخول ليحصلوا على قسم من الغنيمة فوعدوا بها وفي سنة ١٨٨٠ منحوا قسما كبيرا من تساليا . وفي سنة ١٨٨٥ كادت اليونانية تشترك مع الصرب في محاربة الدولة العلية ثم منعتها من ذلك الدول بالقوة

﴿ فصل ﴾

﴿ في تجدد الثورات في جزيرة كريد (١٨٨٩ — ١٨٩٦) ﴾

في سنة ١٨٨٩ عاد الكريديون الى الثورة وجرت فظائع ومذابح ثم اعيدت السكينة الى الجزيرة ولم تستطع حكومة اليونان أن تنال مساعدة الدول لضمها اليها وفي ربيع سنة ١٨٩٦ ثار المسيحيون الكريديون ثانية وطلبوا الانضمام الى بلاد اليونان فضغطت الدول على الباب العالي فمنحهم استقلالا اداريا تحت رئاسة والٍ مسيحي يعين بموافقة اليونان وضمانة الدول

غير ان الثوار اصروا على اقتراحهم ورأت اليونانية ان تحتل الجزيرة ففعلت واخذت تستعد لمحاربة الدولة العلية برا فجاءت النتيجة شؤما عليها حيث انجلت عن كريد وفقدت قسما من تساليا وابتليت بغرامة حربية تنوء خزائنها بحملها واقيم فيها صندوق للدين

﴿ فصل ﴾

﴿ في امارة البلغار ﴾

بعد دخول البلغار في محاربة الدولة العلية والصرب سنة ١٨٨٥ غضبت روسيا على أميرها اسكندر دي باتنبرج غضباً شديداً لعدم استشارته اياها واضطرته الى الاستقالة (١٨٨٦) فشرع مجلس نواب البلغار من فوره في انتخاب أمير آخر خلافاً لما أراده القائد كولبارس وكيل روسيا السياسي ولذلك لم تلبث العلائق ان قطعت بين البلادين وخيف من احتلال الروس بلاد البلغار لولا حيلولة النمسا والمانيا سرا دون ذلك . وفي سنة ١٨٨٧ انتخب البرنس فردناند دي سكس كوبورج غوتا اميرا للبلغار فلم تعترف به الدول واحتج الباب العالي على انتخابه وكان رئيس وزراء هذا الامير ستامبولوف الشهير بقسوته وعداوته لروسيا وقد قتل ضابطاً يدعى بانيزا لانه كان روسي المشرب ويقال انه كانت له يد في مقتل أحد زملائه وهو الوزير بلتشف . وفي سنة ١٨٩٣ تزوج البرنس فردينند باميرة كاثوليكية تدعى ماري لويزا دي بوربون فزاد بذلك غضب روسيا . وفي سنة ١٨٩٤ سقطت وزارة ستامبولوف لشقاق وقع بينه وبين زملائه وخلفه ستويلوف واتخذ التقرب من روسيا وغفا عن الذين كانوا معتقلين من أجل آرائهم السياسية وفي ٢٥ يونيو من السنة المتقدم ذكرها قتل ستامبولوف وفي سنة ١٨٩٦ تنصر الامير فردينند ولي عهده البرنس بوريس على طريقة المذهب الارثوذكسي فاعترفت به تركيا ثم روسيا ثم سائر الدول وزار الاستانة وبطرسبرج وباريس فقوبل بترحيب واكرام

الباب التسعون

{ فصل }

{ في حرب السبعين وسائر حوادث فرنسا الى سنة ١٨٩٦ }

كان الجيش الفرنسوي مؤلفاً من ثمانية فيالق قوادها ماك ماهون وفروسار وبازين ولادميرو ودي فايلي وكانروبر وفليكس دواي والحرس الامبراطوري وعدتهم نحو ٢٠٠٠٠٠ مقاتل ولم تكن الجنود الاحتياطية مهيأة للحرب . وكانت العساكر موزعة شمالا في التخوم البروسية والبافارية على مسيرة ٣٧ ميلا وشرقا على ضفة الرين المتاخمة لبادعلى مسافة ٤١ ميلا وكانت تعوزها الميرة والذخيرة والكسوة وسائر الاشياء الضرورية

وكان القواد لا يعلمون شيئاً عن العدو وهو يعلم كل شيء عنهم اما قوة الالمانيين فكانت تتألف في باديء الامر من ثلاثة فيالق قوادها ستينمتز والبرنس فريدريك كارلوس البروسي والملك غليوم الذي كان مساعده مولتك الشهير . وعدة رجالها ٣٣٨٠٠٠ مقاتل و ١٧٠٠٠٠ احتياطي للانجاد على مقربة منها وكانت منظمة مكفولة أحسن كفالة ولها طلائع للاستكشاف من الخيالة المهرة الباسلين. وكان تقدمها من كوبلنتس الى تريفيس وسارلويس ومن مايانس غربي بافاريا الرينية ومن سبيرا طريق لاندو وبافاريا الرينية.

﴿ فصل ﴾

﴿ في مواقع ساربروك وويسمبرج وورث وفورباك (٢-٤-٦ اغسطس ١٨٧٠) ﴾

انتصر الفرنسويون في مناوشة على مرتفع بين فورباك وساربروك فعظموا شأن هذا الانتصار كثيرا ولكن الالمانيين في ٤ اغسطس اتخذوا خطة الهجوم في شرقي جبال الفوج فباغتوا القائد الفرنسوي ابيل دواي في ويسمبرج وقتلوه وبددوا جنوده الذين كانوا يحاربون واحدا ازاء ثمانية . فقدم ما كماهون للانجاد وكان البروسيون قد دخلوا الالزاس فقاتلهم يوم ٦ اغسطس في ورث وفرشويلر وريشتوفن وكانت جنوده ٤٠٠٠٠ امام ١٤٠٠٠٠ يقودها البرنس كارلوس فابلوا بلاء شهيراً ولكن ردوا على اعقابهم مدحورين وتركوا ستراسبرج بلا دفاع فكان ذلك القضاء المبرم على الالزاس وفي اليوم نفسه كان الالمانيون قد باغتوا فيلق القائد فروسار على مرتفعات سبيكورن فمزقوه وارجعوه الى فورباك

﴿ فصل ﴾

﴿ في سقوط وزارة اوليفيه (٩ اغسطس) وقيام وزارة باليكاو ﴾

(وتولي بازين القيادة العامة)

لما بلغت بعض انباء الفشل الى باريس حدث هرج ومرج ولا سيما في مجلس النواب فاستقالت وزارة اوليفيه وعهدت

الامبراطورة الى الكونت دي باليكا ان يشكل وزارة اخرى واضطر الامبراطور لشدة ما انتقدت تدابيره الحربية ان يستقيل واستخلف بازين في القيادة العامة

﴿ فصل ﴾

﴿ في فيلق شالون ﴾

وكانت ستراسبرج قد سقطت وكان الامبراطور وما كماهون حاشدين ١٢٠ الف مقاتل في معسكر شالون فكان لا بد لهما من أحد امرين اما الذهاب سريعاً الى متس لتعزيز بازين واما الانقلاب الى باريس للدفاع عنها وبعد التردد واضاعة الوقت تقرر السير الى متس

﴿ فصل ﴾

﴿ في تقدم ما كماهون نحو متس ﴾

وفي ٢١ اغسطس برح ماك ماهون معسكر شالون في ١٢٠ الف مقاتل لانجاد بازين وكان امامه البرنس كارلوس ومعه ٧٠ الف عسكري فلولا ابطاؤه لوصل اليه ودحره وتقدم الى متس غير انه كان لا يجتاز الا ثلاثة أميال كل يوم وما زال متردداً حتى اقبلت عليه طلائع من البروسيين فعدل عن السير الى متس واخذ يتقهقر الى سيدان ثم صدر اليه أمر من وزير الحربية ان يسير الى متس باسرع ما يستطيع ..

وفي يوم ٣٠ أغسطس باغت الدوق دي سكس فيلق القائد دي فايلي وكان متغيباً عنه فانتصر عليه فازدحمت العساكر الفرنسوية حول سيدان خائرة من الاعياء والجوع

﴿ فصل ﴾

﴿في موقعة سيدان واحتلالها (١–٢ اغسطس سنة ١٧٨٠)﴾

وكان الجيش الفرنسوي بين البرنس كارلوس من الجنوب والغرب والدوق دي سكس من الجنوب والشرق فلا منجاة له الا بان يسير من الشمال الى مزيار فتباطأ القواد عن ذلك يوما واحدا فاحدق بهم البروسيون وهم في أرض مطمئنة حولها مرتفعات فابلى الفرنسويون احسن بلاء ولكن بسالتهم لم تغنهم فتيلا فسلم الامبراطور في ٢ ستمبر واسر البروسيون مارشالا و٣٩ قائدا و٨٦ الف مقاتل و١٠٠٠٠ حصان و٦٥٠ مدفعاً من ضروب مختلفة

﴿ فصل ﴾

﴿في ثورة ٤ ستمبر وقيام الجمهورية الثالثة وحكومة الدفاع عن الوطن﴾

لما ورد الى باريس النبأ بسقوط سيدان دخل الشعب الى مجلس النواب في ٤ ستمبر وأعلن خلع الامبراطور وقيام الجمهورية وتولى النواب امانويل اراغو وكراميو وجول فابر وجول فري وغمبتا وغارنيه باجيس وجلازبيزوان واوجين بلتان وارنست بيكار وهنري

روشفور وجول سيمون زمام الاحكام للدفاع عن الوطن ثم ذهب تيرس يجول في عواصم اوربا لينال مساعدة من احدى الدول فلم يفلح فعزم الناس على الاستبسال في باريس وأقاموا الحواجز في الطرق والشوارع وكان ٤٠٠٠٠٠ الف رجل مسلحين بين جنود بحرية وبريه ومتطوعين وادبرت المعامل ليل نهار لصنع المدافع وذخر الحرب ولما وصل البروسيون الى قرب باريس كان يحتمل ان يتغلب الفرنسويون عليهم لولا ان قائدهم تروشو كان بطيء الحركة لا يعتقد نجاحا على يد محاربين متطوعين مهما كانت بسالتهم . على أن هؤلاء المتطوعين انتصروا على اعدائهم في عدة مواقع منها فيلجويف (٢٣ ستمبر) وشفيلي (٣٠ منه) وبانيو (١٣ اكتوبر) وغيرها

﴿ فصل ﴾

(في بازين بمتس)

بعد موقعة فورباك اجتمعت خمسة فيالق فرنسوية حول متس وكان يجب على بازين وعلى الامبراطور أن يتوجها نحو الغرب فلما عزما على ذلك حاول البروسيون صدهما فانكسروا (لونجفيل في ١٤ اغسطس) ولكنهم اخروهما يوما عن المسير وفي يوم ١٥ لم يأتيا حراكا وفي السادس عشر اخذا بالمسير وكانا يجوزان ١٤ كيلومترا في اليوم والاعداء يجوزون اربعين وفي السادس عشر خرج الامبراطور من

متس قاصدا شالون وكان الجيش متقهقرا الى جهة فردون فصدمه البروسيون في رزونفيل وفقد كل من الفريقين ١٧ الف مقاتل وفي السابع عشر رجع بازين الى متس عوضاً عن مداومة القتال وفي الثامن عشر جرت موقعة غرفلوت وانقطع خط الرجعة من متس على الفرنسويين بسبب تقاعد بازين واهماله . وفي ٢٧ قاتل بازين البروسيين ليفتح فيهم ثغرة تمكن ماك ماهون من القدوم اليه بنجدته فانتصر في تلك الموقعة وبقي عليه ان يستأنف الجلاد ليبلغ امنيته ففعل عكس ما يجب ورجع الى متس

﴿ فصل ﴾

﴿في تسليم متس (٢٧ اكتوبر ١٨٧٠)﴾

وفي ٢٧ اكتوبر كانت قد اشتدت المجاعة وقلت الحيلة فسلم بازين واسر البروسيون ثلاثة مارشالية و٦٠٠٠ ضابط و١٧٣٠٠٠ عسكري وغنموا ١٦٦٥ مدفعا و٢٧٨٢٨٩ بندقية وعدة من الرايات وفي ٦ اكتوبر سنة ١٨٧٣ حوكم بازين في مجلس عسكري فاتهم بالخيانة وجرد وحكم عليه بالموت (١٠ دسمبر) فعفا عنه ماك ماهون من القتل وابدل عقوبته ففر من معتقله في ١٠ اغسطس سنة ١٨٧٤

﴿ فصل ﴾

﴿في سقوط ستراسبرج وعدة حصون﴾

• ولم ينقطع القتال في داخلية فرنسا منذ يوم ٤ ستمبر . وكانت ستراسبرج قد حوصرت في ١١ اغسطس فسقطت بعد جهد الاحتمال والمقاومة في ٢٨ ستمبر . وقبلها اسقطت ليشتمبرج في ١٢ اغسطس وسارسال في ١٤ ومنيتري لفرنسوا في ٢٥ ولان في ٩ ستمبر وفلسبرج في ١٢ وفردون بعد مقاومة شهيرة في ٩ نوفمبر وتول في ٢٣ وتيونفيل في ٢٥ منه . وجرت مواقع كثيرة اخرى لا محل لذكرها في هذا المختصر

﴿ فصل ﴾

« فيما فعله غمبتا وذكر بلاء جيش الشمال »

لما رأى غمبتا عدم كفاءة الذين تولوا الحكومة في مدينة تور للنيابة عن الحكام المحصورين في باريس ركب المنطاد في ٦ اكتوبر وذهب الى تور فجعل الشؤون الحربية في يد ضابط مقدام هو المسيو دي فريسينه ثم طاف في أرجاء فرنسا يستنهض الهمم ويلقي الخطب الحماسية فانشأ جيوشاً كثيرة من المتطوعين وكانوا كلهم شجعاناً ولكن الشجاعة لا تغني من الميرة وذخر الحروب .

واستؤنف القتال ففاز فيه دورليل دي بالادين قائد جيش الشمال واسترجع اورليان من البروسيين بعد موقعة كولميه (٩ نوفمبر) ولكن تسليم بازين مكن من زيادة عدد الجيوش الالمانية المحاربة لجيش الشمال

فبعد أن تغلب عليهم هذا الجيش مرتين تغلبوا عليه واستعادوا اورليان منه (٣ دسمبر) وجرت بعد ذلك عدة مواقع سقطت في خلالها اميان ٢٩ نوفمبر ثم مزيار في غرة يناير ١٨٧١ ثم روكروا في ٥ ثم بيرون في ١٠ وانتصر البروسيون أيضاً في معركة -ان كانتين في ١٩ منه وكان يبدي الفرنسويون عجائب من البسالة فيظفرون في بعض المواقع ثم تتغلب عليهم كثرة العدد وحسن نظام العدو

﴿ فصل ﴾

(في جيش الفوج وحضور غريبلدي وذكر جيش الشرق (من ٩ الى ٢٢ يناير)

كان القائد كبريال على جيش الفوج الصغير فلما حضر غريبلدي وابناه ريسيوتي ومنوتي منح قيادة الجيوش الحرة من السين الى الفوج فطرد ابنه ريسيوتي البروسيين من شاتيليون سورسين (١٩ نوفمبر) وظهر القائد كريمر عليهم في شاتونوف وحاول غريبلدي الكبير ان يطردهم من ديجون فلم يستطع بادئ بدء مع انه فاز في بعض المواقع الصغيرة . ثم عهد الى القائد بوزباكي في قطع صلات العدو وزدّهم عن حصار بلفور فوقعت بينه وبينهم موقعة هائلة طالت ثلاثة أيام (١٥ - ١٨ يناير) من هريكور الى مونبليار ثم رد الفرنسويون على اعقابهم لشدة البرد والجوع . أما غريبلدي فانه دفع هجمة للبروسيين على ديجون ودحرهم دحرا (٢١-٢٢ يناير

١٨٧١) ولكن ذلك لم يؤثر تأثيراً مفيداً على نهاية الحرب من قبيل مصلحة فرنسا.

﴿ فصل ﴾

(في التجاء جيش الشرق الى سويسرا وتسليم باريس وما جرى من المواقع) قبل ذلك (٣٠ نوفمبر — ٢٩ يناير ١٨٧١)

في هذه الاثناء كانت باريس قد سلمت ووضعت هدنة استثني منها جيش الشرق ولم يشعر بذلك فاستمر واقفاً في مكانه والعدو يتقدم ليحصره الى ان علم بما كان فقر لاجئا الى سويسرا فاكرمه اهلها كثيرا

أما تسليم باريس فتم في ٢٩ يناير بعد ان عاني اهلها من الجوع ما لا يوصف وجاهدوا جهاداً لم يذكر مثله التاريخ فخرجوا مرارا لملاقاة العدو فنكل بهم تنكيلا وكان القائد تروشو قد استقال من منصبه العسكري وبقي رئيساً للحكومة الموقتة

﴿ فصل ﴾

(في قيام الجمعية الوطنية في بوردو (١٣ فبراير) ثم في فرسايل وتولي تيرس رئاسة الجمهورية وذكر معاهدة فرنكفورت (١٠ مايو ١٨٧١)

اجتمعت هذه الجمعية في بوردو يوم ١٣ فبراير من سنة ١٨٧١. وفي ١٧ منه اختارت المسيو تيرس رئيساً لها وفي غرة مارس كان

تيرس قد انجز البحث في مقدمات الصلح وعرضها على الجمعية فقبلتها . وفي هذه الجلسة عينها اعلنت سقوط الامبراطورية الفرنسوية . ثم انتقلت الجمعية الى فرسايل في ٢٠ مارس وفي ١٣ اغسطس سمت تيرس رئيساً للجمهورية . وقد تضمنت معاهدة فرنكفورت ان تؤدي فرنسا للبروسيين غرامة قدرها خمسة مليارات فرنك وان يستمر العدو محتلا احدى الجهات الفرنسوية الى وفاء الغرامة كلها وفضلاً عن ذلك تنازلت فرنسا للفاتح عن ولايتي الالزاس واللورين وعدة قرى فكانت مساحة البلاد التي سلخت منها ١٤٨٧٣٧٤ هكتار يقطنها ١٦٢٨١٣٢ نسمة

﴿ فصل ﴾

﴿ في يوم ١٨ مارس وقيام الكومون وضرب المطوق الثاني على باريس ﴾

(ابريل ومايو ١٨٧١)

وفي غرة مارس دخل البروسيون الى العاصمة وكان اهلها في تهيج لا مزيد عليه وقد تحالفت بعض فرق من الحرس الوطني ودعيت بالفرق المتحالفة واقامت المتاريس في الشوارع واستولت على مصنع المدافع فارسل اليها جيش تحت قيادة ماك ماهون فجرت مذابح فظيعة انتهت بانتصار الجيش ونفي جمهور من القائمين بهذه الثورة وعوقب جمهور بالقتل والسجن ثم عفي عنهم بعد ذلك .

﴿ فصل ﴾

(في عقد القرضين ونهاية الاحتلال البروسي ١٨٧١ — ٧٣)

في يوم ٢١ يونيو ١٨٧١ اذن للحكومة بعقد قرض قدره ثلاثة مليارات فاجتمع لديها اربعة مليارات في ست ساعات وفي ١٥ يوليو ١٨٧٢ اذن للحكومة بعقد قرض آخر قدره ثلاثة مليارات فاكتتب الناس باربعة عشر ضعفاً لهذا المبلغ. وكان البروسيون كلما دفع قسط من الغرامة يجلون عن قسم من الارض التي احتلوها حتى كان اجل احتلالهم في ١٦ سبتمبر ٨٧٣. فقل النقد في فرنسا حتى ندر وكثرت الضرائب والرسوم. وفي سنة ١٨٧٢ وضع قانون عسكري جديد اصلح من القانون السابق

﴿ فصل ﴾

(في استقالة تيرس وتولي مالك ماهون رئاسة الجمهورية)

بعد ان نجت فرنسا من احتلال الاعداء تقسم أهلها الى احزاب واشتد التنازع بينهم حتى اضطر تيرس الذي كان رئيساً للجمهورية واشرف من خدم بلاده بجد واستقامة ودهاء ان يستقيل من منصبه في ٢٤ مايو ١٨٧٣ فخلفه المارشال مالك ماهون الى سبع سنين وفي ٢٥ فبراير ١٨٧٥ تقرر نهائياً ثبوت الجمهورية الفرنسوية وتأسيس مجلس النواب ومجلس الشيوخ وهيئة الحكومة على

شكلها الحاضر الا تعديلا قليلا

وكانت الصلات الودية تتراخى بين فرنسا وايطاليا على أثر بعض المشاحنات في مسألة البابوية واعانة فرنسا على هذا الامر الذي كان ينفر منه الطليان . وفى ١٦ مايو ١٨٧٧ وقع خلاف بين ماك ماهون ووزرائه فاستقالوا فاتخذ وزراء غيرهم فانكرهم مجلس النواب فحله في ١٩ مايو . ولما انتخب مجلس النواب الجديد حصل على وزارة دستورية (١٤ دسمبر) . وفى غرة مايو ١٨٧٨ فتح معرض عام فى باريس دلّ على ما لفرنسا من الحياة والثروة اللتين لم تضعفهما الحوادث

﴿ فصل ﴾

(في رئاسة جول غريفي ١٨٧٩)

في ٥ فبراير اجتمع اعضاء مجلس الشيوخ ومجلس النواب وانتخبوا جول غريفي رئيساً للجمهورية فشرعت الحكومة فى اعمال بنائية وحضرية عظيمة فى فرنسا وفي مستعمراتها كان معظم الفضل فيها للوزير دي فريسينه ووضع الحد الحربي لفرنسا فيولغ فى احكام تحصينه وحسنت المعارف وعممت ووسعت المدارس ورممت وفى ١٢ مايو ١٨٨١ عقدت معاهدة بردو التي اعترف فيها باي تونس بحماية فرنسا وسيأتي بيان ما حمل على ذلك وكيف تم . وفي ٢١ مايو جرت الانتخابات العامة فكثر الجمهوريون وقلت الاحزاب الاخرى . وفي

٣٠ يناير ١٨٨٢ جعل فريسينه رئيساً للوزارة ووزيراً للخارجية فامتنع عن مشاركة الفرنسويين للانكليز في ضرب الاسكندرية واحتلال مصر وكان ذلك خطأ لا يغتفر ولا ينسى ولكنه طلب مالا لاحتلال ترعة السويس وخفارته فاباه مجلس النواب عليه خوفا من دسائس انكلترا وعداء المانيا التي لولا روسيا وانكلترا لحاربت فرنسا ثانية في سنة ٧٥ بحيث تهلكها الى الابد

وفي ٣١ دسمبر توفي غمبتا وفي ٢١ فبراير ١٨٨٣ تولى جول فري رئاسة الوزارة وكان من اعماله الشروع في فتح التونكين والتداخل في مدغسكر حربيا وفي بلاد الكونغو سلميا . على ان مسئلة التونكين امتدت وادخلت فيها الصين فحوربت من اجلها وعاد ذلك بالفشل بادىء بدء على الفرنسويين فان جيش القائد نجريه فشل وجرح زعيمه فوقع هذا النبأ وقع الصاعقة في باريس . وفي مايو ١٨٨٥ توفي الشاعر الطائر الصيت السياسي العظيم الكاتب الذي لا يشق له غبار فكتور هوكو فاحتفل بدفنه في غرة يونيو احتفالا وطنيا لم يذكر التاريخ مثله لاحد من الناس . وفي شهر اكتوبر جرت الانتخابات العامة فاصاب الجمهوريون فيها ٣٨٢ صوتا وسواهم مئتي صوت واثنين

﴿ فصل ﴾

(في الرئاسة الثانية لجول غريفي (٢٨ دسمبر ١٨٨٥))

اهم ما جرى في خلال هذه الرئاسة تولي القائد بولانجه وزارة الحربية وتظاهر الشعب الفرنسوي بالود له وطرد المطالبين بعرش الملكية والامبراطورية من فرنسا وتنقيح القوانين العسكرية وزيادة الجيش وابتداء دعوة بولانجه السياسية ثم ظهور مسألة المتاجر بالنياشين على يد النائب ويلسن صهر رئيس الجمهورية واشتغال الشرطة والنيابة ومجلس النواب بتحقيقها واظهار مخبآتها واستقالة الوزارة واضطرار جول غري ان يستقيل على الرغم منه .

« فصل »

﴿ في رئاسة كارنو ٣ دسمبر ١٨٨٧ ﴾

لما انتخب كارنو رئيساً للجمهورية الفرنسوية اختار المسيو تيرار رئيساً للوزارة وفي عهده انقطعت المباحثة لعقد معاهدة تجارية مع ايطاليا وانتهت قضية ويلسون بحكم أصدرته محكمة الاستئناف تلوم فيه المتاجرين ببيع النياشين ولا تقضي بعقوبتهم لعدم وجود نص صريح في القانون يسيغ ذلك . وفي ١٤ مارس ١٨٨٨ احيل الجنرال بولانجه على الاستيداع وفي ٢٧ منه احيل على المعاش فجاز له ان ينتخب وكتب منشوراً الى أهل الشمال يطلب فيه أن يقيموه مندوباً عنهم في مجلس النواب ويقول ان خطته ستكون حل مجلس النواب وتعديل الدستور فانتخب باغلبية عظيمة

وكانت له صلات سرية مع البونابرتيين فلما عرض مشروعه رفض ثم لم يلبث أن استقال من النيابة « لشدة تحامل المجلس عليه » وبارز فلوكه فجرح ثم جرت انتخابات جديدة فانتخب بولانجه في عدة مقاطعات أهمها مقاطعة السين . وفي ١٢ ابريل تقررت اقامة القضية العمومية على بولانجه وروشفور وديلبون لما أتوه من الاعمال المزعجة للامن العام ففروا من فرنسا وكان بذلك ابتداء سقوط حزب بولانجه .

وفي ٥ مايو ٨٨٩ فتح معرض باريس وكان من أجمل ما شوهد الى ذلك الوقت وفيه اقيم برج ايفل . وفي ١٤ اغسطس حكم مجلس الشيوخ على بولانجه وزميليه بالاعتقال في سجن محصن وفي ٥ أغسطس ١٨٩٠ اعترفت انكلترا لفرنسا بانتشار حمايتها على مدغسكر

وفي غرة مايو ١٨٩١ اجتمع مندوبون من الفعلة المعدنيين الفرنسويين والانكليز والالمانيين والبلجيكيين في بورصة العمل بباريس وقرروا استلفات حكومات بلادهم الى جعل يوم الفاعل ثماني ساعات .

وفي شهر يوليو من سنة ١٨٩١ ذهب بعض اسطول الشمال الفرنسوي لزيارة ميناء كرونستاد الروسي بناء على دعوة القيصر اسكندر الثالث فقوبل رجاله باعظم حفاوة واكرام وكانت هذه الزيارة اساس التحالف الثنائي .

وفي ١٩ اغسطس دعت جلالة ملكة الانكليز الاسطول الفرنسوي لزيارة ميناء بورتسموث فتبودلت المظاهرات الودّيه وفي ٣٠ سبتمبر توفي الجنرال بولانجه ولوكان عقله ودربته قدر نصف سعده لجرى بفرنسا الى حيث يشاء .

وفي شهر فبراير ١٨٩٢ اصدر البابا لاون الثالث عشر منشوره الشهير معترفا بالجمهورية الفرنسوية . وفي شهر مارس نسفت بعض المنازل في باريس فقبض على رافاشول الفوضوي المشهور ورفيق له يدعى بيسكوي وحكم عليهما بالاشغال الشاقة المؤبدة لثبوت احدى الجنايات عليهما وفي ٣ اكتوبر ١٨٩٢ توفي العلامة الشهير الفيلسوف الكبير ارنست رينان .

وفي شهر نوفمبر جرت مناقشة في مجلس النواب في مسألة فتح ترعة بناما بامريكا فان الشركة التي الفها فردينان دي لبس في سنة ١٨٧٦ للقيام بهذا العمل كانت قد تناولت ١٣٢٩٦٩٣٠٧٨ فرنكا من المكتتبين وانفقت منها على المشروع ٦١١٧٧٨٠٣١ فرنكا فكان هناك فرق قدره ٧١٨ مليونا لا يعلم اين ضلّ . وفي ٢٠ نوفمبر توفي البارون دي ريناك الذي كان اطول الشركاء باعا في هذه الاختلاسات هو وكرنيليوس هرتس وارتون . وفي ١٦ دسمبر قبض على شارل دي لسبس وفونتان وسان لروا فسجنوا احتياطياً ثم لحق بهم كوتو ثم اذن مجلس النواب بمحاكمة عشرة من اعضائه لدخولهم في التهمة

ثم قبض على آخرين وجرت المحاكمة الاولى لدى محكمة باريس الاستئنافية فحكم على فردينان وشارل دي لسبس بالسجن خمس سنين وبثلاثة آلاف فرنك غرامة وعلى ماريوس فونتان وكوتو بالسجن سنتين وغرامة كالاولى وعلى ايفل بالسجن سنتين وعشرين الف فرنك غرامة (٩ فبراير)

ولم تقم القضية على سائر المتهمين لعدم وجود وجه قانوني يسوغ اقامتها .

وفي ٧ مارس ١٨٩٣ جرت المحاكمة الثانية لجماعة من البناميين فبرئ بعضهم وحكم على شارل دي لسبس بالسجن سنة وعلى بايهو بالتجريد من حقوقه الوطنية وبالسجن ٥ سنين وبغرامة ٧٥٠٠٠٠ فرنك وعلى بلوندين بالسجن سنتين وجعل هؤلاء الثلاثة متضامنين في رد ٣٧٥٠٠٠٠ فرنك الى مصفي شركة بناما

وفي ١٧ مارس توفي جول فري وكان قد انتخب حديثاً رئيساً لمجلس الشيوخ فخلفه شالمل لاكور

وفي ٩ فبراير نظرت محكمة النقض والابرام في حكم القضية البنامية الاولى فكسرته بسبب مضي المدة منذ الوقت الذي جرت فيه الحوادث المطلوبة المعاقبة لاجلها

وفي ١٣ اكتوبر رد البحارة الروسيون الزيارة لفرنسا فقوبلوا باعظم اكرام . وفي ١٤ و١٥ تجددت حوادث النسف وفي ١ دسمبر

اطلق فليان الفوضوي قنبلته في مجلس النواب وهو مجتمع فجرح اكثر من ستين نفساً من الحضور بين اعضاء ومشاهدين وجرح هو نفسه وعلى أثر هذه الحادثة الفظيعة عدل قانون المطبوعات بما يمنع رسائل التهييج او يخففها . ثم حوكم فاليان وقتل وتعدد بعده النسف مع اشتداد الحكومة على هذه الطائفة الخبيثة . وفي هذه الاثناء رذت مبالغ الى تصفية شركة بناما وتقررت محاكمة هرتس الذي كان لاجئاً الى انكلترا

وفي ٢٨ ابريل فتح معرض عام في ليون نجح نجاحا عظيماوفي ٢٣ يونيو قدم الرئيس كارنو الى هذه المدينة لزيارة معرضها فقوبل بترحيب عظيم وفي يوم الاحد (٢٤) ادبت للرئيس مأدبة فاخرة فالقى فيها خطبة من اجل الخطب ملأت القلوب سرورا ثم ركب مركبته محفوفاً بحرسه ورجال معيته ليذهب الى الملعب الاكبر وكان الزحام في طريقه شديداً جدا فلما وصل الى شارع الجمهورية تقدم شاب يحمل بيده شيئاً كالقرطاس المطوي وصعد منكمشا على درجة المركبة وطعن كارنو بخنجر فقبض على الجاني يكادالجمهور يمزقه لولا الجنود ونقل الجريح الى دار المحافظة فلم ينفعه علاج فقضى نحبه ليلا وفقدته فرنسا وبكاه العالم اجمع لرجحان عقله وكمال آدابه واعتدال سيرته وكان القاتل اجير خباز ايطاليا يدعى كازريو جيوفاني سانتو في الثانية والعشرين من العمر اتى فعلته انفاذا لغرض فوضوي

ولا حاجة للتذكير بانه اعدم

﴿ فصل ﴾

(في رئاسة كازيمير بريه)

في ٢٧ يونيو ١٨٩٤ انتخب كازيمير بريه رئيساً للجمهورية. فاستبقى الوزارة السابقة ولكن الجرائد لم تلبث ان طعنت عليه وحذرت الامة منه . وفي عهده القصير وضع قانون للتضييق على الفوضويين وعامت خيانة الضابط اليهودي دريفوس الذي افشى بعض اسرار الدفاع لرجال دولة اجنبية فحكم عليه بالاعتقال في جزيرة الشيطان بجويانا ثم حاول اهله واصدقاؤه ان ينقذوه واستعانوا على ذلك باقلام بعض الكتاب فثبتت الجناية عليه ثانية وصدر حكم على اميل زولا الكاتب بالحبس ستة أشهر وبغرامة لدفاعه عنه وطعنه على المجلس العسكري الذي نظر في قضيته

ثم تباحث مجلس النواب في فضيحة جديدة وهي سوء الحالة التي آلت اليها السكك الحديدية الجنوبية وعلى اثر هذه المناقشة استقالت الوزارة (١٤ يناير) وتلتها استقالة رئيس الجمهورية (١٥)

﴿ فصل ﴾

(في رئاسة فلكس فور)

وفي ١٧ يناير ١٨٩٥ انتخب فلكس فور رئيساً للجمهورية وفي ٢٨ منه عفي عن المنفيين السياسيين وفيه توفي آخر

مرشالية فرنسا وهو كنروبير فشيعت جنازته على نفقة الحكومة .
وفى ٢٧ ابريل انقطع سد (جسر) خزان في بوزي فدمر هذه القرية واتلف اربعا وقتل وجرح ١٢٠ نفساً وكانت الخسارة خمسين مليونا . وفي ١٨ مارس وافق مجلس النواب على مشروع نهائي وضعته الحكومة لمعرض عام يقام في باريس سنة ١٩٠٠ وفي ٦ نوفمبر استؤنف البحث في مسئلة سكك حديد الجنوب فنشأ عنه نزاع بين مجلس النواب ومجلس الشيوخ استمر زمانا ثم افضى الى اعتزال الوزارة . وفي هذه الاثناء شرع الانكليز في تسيير حملة على السودان فامرت فرنسا مندوبها في صندوق الدين بان لا يوافق على اعطاء الحكومة شيئاً من المال الاحتياطي الذي طلبته لذلك واشترك المندوب الروسي في هذا الاحتجاج وفي ٢٠ يونيو اعلن المسيو هانوتو انضمام مدغسكر الى فرنسا . وفي ٥ اكتوبر زار القيصر نقولا الثاني والقيصرة قرينته باريس فقوبلا بترحيب لم يشهد مثله وبعد ذلك رد رئيس الجمهورية الزيارة لجلالة القيصر وصرح بالتحالف الثنائي في خلال الحفلات الشائقة التي اقيمت له

الباب الحادي والتسعون

« في الدولة البريطانية »

(فصل)

« في ملخص اخبار الدولة الانكليزية الى سنة ١٨٩٦ »

ولدت جلالة الملكة فكتوريا فى ٢٤ مايو ١٨١٩ وخلفت عمها غليوم الرابع على عرش انكلترا فى ٢٠ يونيو ١٨٣٧ وفي سنة ١٨٦١ فقدت زوجها البرنس دي سكس كوبورغوتا . وحكومة بلادها الآن تتألف من مجلسي الاعيان والنواب كالسابق . وقد تداول الحكم عشرون وزارة منذ تولي الملكة فكتوريا . والدولة الانكليزية الآن منتشرة السلطة فى اكثر ارجاء المعمور . مساحتها ومساحة املاكها ٢٦٣٨٦٠٨٠ كيلومترا وعدد سكانها والتابعين لها ٣٥٤٤٤٧٠٠٠ نفساً وهى اعظم الدول تجارة ومن اعظمها صناعة . ولها اكثر الاسلاك البرقية البحرية واكثر الاساطيل أما عدد جنودها البرية فقليل فيه ٢٥٢,٠ الفا من العاملين ونحو ٢٢٠, الفا من الاحتياطيين ونحو ٢٠ الفا من عساكر الحاميات المختلفة وهي شارعة في زيادة جيشها بعض الشيء . وخطتها السياسية ان لا تتداخل في الشؤون الدولية إلا لصيانة مصالحها وذلك منذ عقدت معاهدة باريس في سنة ١٨٥٦ . وقد ابت ان يكون أحد امرائها ملكا لليونان في

سنة ١٨٦٣ فولت مكانه أميرا دانمركيا وأهدت الى اليونان الجزائر اليونية.

وفي سنة ١٨٦٨ الف غلادستون الوزارة الحرة الاولى وكانت أهم اعماله الداخلية لائحة وضعها لتخفيف مصائب الايرلنديين وأما في الخارج فانها حاولت ان تمنع شبوب الحرب بين فرنسا والمانيا في السنة السبعين فلم تفلح. وفي سنة ١٨٧٦ الف ديزرائلي الملقب باللورد بيكونسفلد وزارة محافظة وفي هذه السنة لقبت جلالة الملكة فكتوريا بامبراطورة الهند. وقد حاربت انكلترا في عهد هذه الوزارة الافغانيين وطوائف الزولوس والبازوتوس في رأس الرجاء الصالح واشترت حصص الخديوي اسمعيل في شركة قناة السويس بمئة مليون فرنك وتداخلت في نهاية الحرب بين روسيا وتركيا سنة ١٨٧٧ واستمنحت قبرص من الدولة العلية في ٤ يونيو ١٨٧٨ وكانت اعمالها هذه مناقضة لخطة عدم التداخل والامتناع عن الفتوح فاضطربت لذلك افكار الامة ومنحت اكثرية الاصوات في الانتخابات للاحرار فتولى غلادستون وزارته الثانية في ابريل ١٨٨٠ ومن اعماله فيها اشتداده على الدولة العلية لاعطاء دولسينو للجبل الاسود.

وفي خلال وزارة بيكونسفلد كان جمهور من الارلنديين قد الفوا حزب الاستقلاليين وهم طلاب الهوم رول او الاستقلال الاداري وكان من مقدميهم بارنل الذي لم يلبث ان اصبح زعيما لهم

واستمال غلادستون الى رأيه في وزارته التي اتت بعد هذه وسمي الملك غير المتوج لايرلنده

وقد اشتهرت هذه الوزارة الحرة بجنايات جديدة جنتها انكلترا في عهدها على بعض الامم الضعيفة اهمها احتلالها لمصر بدسائس معلومة . وفي ٢٥ يونيو ١٨٨٥ شكل اللورد سالسبوري وزارة محافظة فلم تعش الا قليلا ثم سقطت وخلفتها وزارة حرة برئاسة غلادستون الذي ايده البارنليون وقد انضم اليهم ووضع لهم في ٨ ابريل مشروع الاستقلال الاداري لارلنده ولكنه لم يفلح في انفاذه فسقط وخلفه سلسبوري في السنة نفسها واشتد في اضطهاده لبعض الارلنديين الذين اثارتهم المظالم وكانت خطته الخارجية التقرب من التحالف الثلاثي وفي غرة يوليو من سنة ١٨٩٠ امضى اتفاقا تنازل به لالمانيا عن جزيرة هليوجولند في غرب هولستين عند مصب نهر الالب وتولى مقابل ذلك حماية ويتو وبلاد الصومال وسلطنة زنزيبار بافريقيا . وبما أن حماية زنزيبار كانت لا تخلو عن عقدة لوجود اتفاق بين انكلترا وفرنسا بانهما لا تتعرضان في أمر لهذه السلطنة فقد اضطرت الاولى ان ترضي الثانية بان تعترف لها بحمايتها على مدغسكر وبسلطتها على الارض الواقعة جنوبي الجزائر الى النيجر بمعنى ان الصحراء أصبحت لفرنسا عدا ما لشركة النيجر من الحقوق المكتسبة في بعض تلك الارجاء . وفي خلال سنة ١٨٩١

اشتدت الازمة في ارلنده بسبب المحل بل في انكلترا نفسها فكثرت
فيها الاعتصابات والمتاعب الاشتراكية وفي هذه السنة توفي بارنل
على أثر مرض ولكن حزبه بقي مع انقسامه . وفيها احتلت انكلترا
جزيرة سيجري العثمانية ثم برحتها سريعاً لمارأته من عدم اغضاء الدول
وأرسلت بعثة الى طنجه فاخفقت في مساعيها

وفى ١٥ أغسطس ١٨٩٢ منحت الانتخابات الاغلبية للاحرار
فعاد غلادستون الى الوزارة للمرة الرابعة ووضع مشروعا
جديداً للاستقلال الاداري في ارلنده فوافق عليه مجلس النواب
بعد جلسات طويلة ثم أبى مجلس الاعيان الموافقة عليه فاستقال
غلادستون من منصبه بدعوى الشيخوخة وخلفه اللورد روزبري
في رئاسة الوزارة الحرة غير أن جلالة الملكة أبت أن تعينه على
تعديل الدستور البريطاني بحيث يكون المرجع الى مجلس النواب
في القوانين فاستقال ولم يكن له أثر يذكر في السياسة الخارجية
سوى تحامله على تركيا بسبب المسألة الارمنية .

وفى ٢٩ يونيو ١٨٩٥ عاد سلسبوري الى الوزارة وتجددت
الانتخابات فنال المحافظون اكثرية عظيمة ومن أعماله الخارجية
حملة السودان ومشروع تقسيم الدولة العلية الذي رفضته كل الدول
وتماديه في العداء للعثمانيين وقد اخفق امام روسيا في مسألة بامير
وامام فرنسا في مسألة الميكونج والنيجر وهذه تم الاتفاق عليها

في هذه الايام وامام الولايات المتحدة في مسألة فنزويلا وامام الترنسفال على أثر غارة جيمسون وانكساره ومما يخلق بالذكر ظهور شيء من انحراف المانيا عن مودة انكلترا بحيث اصبحت هذه الدولة تصرح الان باحتياجها الى المحالفات بعد ان كانت تترجح كما تشاء بين التحالفين الثلاثي والثنائي

الباب الثاني والتسعون

﴿ في الدولة الروسية ﴾

﴿ فصل ﴾

﴿ في ملخص اخبار هذه الدولة من سنة ١٨٤٨ الى سنة ١٨٩٦ ﴾

أتسعت المملكة الروسية حتى أصبح الان عدد سكانها نحو ١٢٠ مليونا وبلغ امتدادها من القوقاف الى البحر الابيض ومن مضيق بهرنج الى فرسوفيا بمحاذاة اسوج وهي تشرف على بحر البلطيق من بطرسبورج وكرونستاد وجزائر النذ . وتتجه نحو الاستانة ومضيق الدردنيل من سباستوبول والقرم والدانوب وبلاد الجركس وتحيط بالفرس من بحر قزبين وبحر آرال وامودارياومن هناك ترقب الهند الانكليزية وتنتشر في شمال الصين واليابان من كشتكا وسيبيريا الشرقية واوكوتسك وبتروبافلوسك

وكان امبراطور روسيا في سنة ١٨٤٨ نقولا الاول وكان متزوجاً بابنة ملك بروسيا فريدريك غليوم الثالث وفي سنة ١٨٤٩ أعان النمسا على ثوار المجر وكانوا يكادون يمزقونها فانقذها منهم وكانت وجهة الروس من سنة ١٨٥٣ الى سنة ١٨٥٥ الاستيلاء على الاستانة فردّها عن ذلك فرنسا وانكلترا بتحالفهما . وفي ٢ مارس من سنة ١٨٥٥ توفي الامبراطور نقولا وخلفه ابنه اسكندر الثاني في خلال محاربة الروس للدولة العلية . ولهذا القيصر مأثرة من اجل المآثر وهي تحريره للحراثين المسترقين في ١٧ مايو ١٨٦١ وفي سنة ١٨٦٣ ثار أهل بولونيا فقتل منهم مقتلة فاحشة وكان القتلى نحو ١٥ الف نفس ونفي واعتقل واحرق بيوتهم وادخل شبانهم في سلك العسكرية بلا قيد ولا حدود معينة فابعدهم الى جهات مختلفة. وكان نيف على ٧٠٠ منهم قد ثاروا في منفاهم بسيبيريا فقتلوا عن آخرهم. ولما تم الفوز لروسيا ولم تجرأ اوربا ان تحرك ساكنا لتخفيف شقاء البولونيين المنكوبين اقفلت أديرتهم ومدارسهم ومكاتبهم وشرطت على موظفيهم معرفة اللغة المسكوبية . هذا وقد امتدت الخطوط الحديدية في روسيا ومنها خط يصنع الان ليصل بطرسبرج بفلاديفوستوك ويجتاز وسط آسيا كله

ولما انتهت روسيا من محاربة الدولة العلية وقضت عليها الدول ما قضت في معاهدة برلين لم تكسب من محاربتها شيئاً ذا بال سوى

ما ذكرناه في موضعه وفي سنة ١٨٧٠ فتراخت العلائق بين روسيا والمانيا تراخيا لم يكن ذا نتيجة لان الامبراطور اسكندر الثاني راعى زمام المعاهدة

وفي ١٣ مارس من سنة ١٨٨١ قتل القيصر بقذيفة القاها عليه بعض النهاستيين وكثيرا ما حاولوا قتله من قبل ذلك فلم يفلحوا وكانت العقبى شرا على الوف من اصحابهم والمتهمين بمشاركتهم في الرأي . وخاف الامبراطور المتوفى ابنه اسكندر الثالث في يوم وفاته فقتل الخمسة الذين اتهموا بقتل أبيه ومنهم فتاة وتعقب آثار النهاستيين ينكل بهم وكانوا مع ذلك لا ينقطعون عن تجديد الشرور

وكانت سياسة هذا الامبراطور التقرب الى فرنسا وتجنب المانيا بل مجافاتها وحدث أن البرنس بسمرك في سنة ١٨٨٥ ابعد من نادي بوزن جميع الفعلة الروسيين الذين كانوا مهاجرين الى الارض الالمانية المجاورة فاجابته على ذلك روسيا بابعاد الفعلة الالمانيين الذين كانوا مهاجرين الى بلاد بولونيا وحتمت بان لا تعلم الا اللغة الروسية في ولاياتها الباطيقية التي كان معظم سكانها من الالمان . وعلى أثر هذه الحوادث اشتد الاستعداد للحرب وخيف من شبوب نارها لولا صدق رغبة اسكندر الثالث في السلم

ولما كانت سنة ١٨٨٨ حاول غليوم الثاني امبراطور المانيا ان يتقرب من روسيا فلم يفلح

وفي سنة ١٨٩٠ أخذ القيصر يطرد اليهود من بلاده فابعد منهم ١٤٠٠٠ من موسكو وملحقاتها ثم أبعد كثيرين من بطرسبرج ونفى غيرهم بعد ذلك لاشتداد وطأتهم بالربى على المعوزين الضعفاء وفى سنة ١٨٩٢ رسم اسكندر الثالث ان يبنى اسطول روسي للبحر المتوسط . وفي غرة نوفمبر من سنة ١٨٩٤ توفي هذا الامبراطور على أثر داء ألم به نبكته الدول كلها لما اشتهر به من حميد الصفات وعالي الذكاء والميل الى السلم وخلفه كبير ابنائه الامبراطور نقولا الثاني فجرى على خطته واستمر على موالاة فرنسا ومحالفتها كما رسمت مبادئها في مقابلة كرونستاد وعززت بعد ذلك على يد السياسي دي جيرس حين زار باريس ووقع على المعاهدة المكتوبة التي أعان أمرها فيما بعد. وقد كان لهذا الامبراطور من الاستقبال العجيب في باريس مالا ينسى على الدهر كما ان رئيس الجمهورية الفرنسوية لقي في عاصمة الروس اعظم حفاوة . وجلالته متزوج من حفيدة لجلالة ملكة انكلترا اقترن بها بعد وفاة ابيه بقليل. وله النفوذ الاول في بلاد الحبشة الآن وقد عين النجاشي منليك أحد رعاياه وهو الكونت ليونتييف حاكما لولاية خط الاستواء فذهب اليها واستلمها في هذه الايام واتخذ مساعدا له على إدارتها الدوق هنري دورليان الفرنسوي . وفي عهده امتثل البرنس فردينند ارادة روسيا ونصر ابنه البرنس بوريس على الطريقة الارثوذكسية فاعترف له القيصر وسائر الدول

بالإمارة . وقد جرت في حفلة تتويج هذا الامبراطور حادثة فاجعة وهي ان ٣٨٧٦ نفساً قتلت دوساً بالاقدام ونحو ٤٠٠٠ نفس جرحت في خلال تهافت الناس على ما كان يوزع من النقل والمأكل والمشرب في تلك الحفلة

الباب الثالث والتسعون

{ في المانيا }

{ فصل }

{ في ملخص اخبار هذه الدولة من سنة ١٨٧١ الى سنة ١٨٩٦ }

بعد أن انتصرت بروسيا على الدانمرك في سنة ١٨٦٤ وعلى النمسا في سنة ١٨٦٦ وعلى فرنسا في سنة ١٨٧٠ جددت الامبراطورية الالمانية وتسودت عليها في ١٨ يناير ١٨٧١ وتم ذلك في فرسايل في خلال حصار باريس وأصبح امراء الولايات الالمانية بمثابة موظفين بروسيين وكان سكان هذه الامبراطورية ٤٩٤٢٨٤٧٠ في سنة ١٨٩٠ وقد كوفىء بسمرك على أعماله الجليلة فعين مستشاراً كبيراً للدولة وجعل مركز الرشستاغ وهو مجلس النواب الالماني في برلين

وكانت خطة بسمرك السياسية منذ سنة ١٨٧١ ان يزيد جيوش المانيا ومعداتها الحربية في البر والبحر ويبتني المرافي وينفق ما

استطاعه على ذلك مع ان المانيا كانت فقيرة قبل الغرامة الفرنسوية ولبثت فقيرة بعدها

ومن خطئه ايضاً انه اضطهد الاكليروس الكاثوليكي . ثم أخذ يضطهد الاشتراكيين .

ولما كان بسمرك يحذر من فرنسا مع ضعفها ويرغب في تأييد سطوة الدولة الالمانية الى ما شاء الله حاول ان ينشيء تحالفاً بين امبراطور المانيا وامبراطور روسيا وامبراطور النمسا ولاسترضاء الاخير وعده بان يعينه على زيادة مملكته من جهة البلقان ووفى له بهذا العهد في سنة ١٨٧٨ حين عقد معاهدة برلين فكان ما نالته النمسا من النصيب لا فضل فيه الا لبسمرك . ولكن هذا التحيز للنمسا كدر روسيا فامتنعت عن المحالفة التي كان بسمرك يطمع فيها فرأى عند ذلك بيكنسفلد الوزير الانكليزي ان يدخل في محالفة المانيا والنمسا لاضعاف فرنسا في الغرب وروسيا في الشرق. غير ان الانتخابات العامة التي حصلت لذلك العهد اسقطته فحول بسمرك وجهه الى ايطاليا واستوثق بادىء بدء من ميلها الى مثل هذه المحالفة ثم أدخلها فيها بعد ذلك. ولسنا نتكلف أن نعدد كل ما أوجده بسمرك من الوسائل لاستفزاز فرنسا الى محاربته فان ذلك تجدد سنة بعد سنة الى ما بعد سقوطه وكان تارة يعتدي على بعض الضباط الفرنسويين وهم ضمن

تخوم بلادهم وتارة ينطق في خطبه باقوال تستنفد صبر المغلوب وتثير حميته ولم يدخر وسعا في الحصول على هذه الامنية التي لم يدركها . ومن مآثر بسمرك أنه أعان الامة الالمانية على توسيع نطاق متاجرها وصناعتها فبارت بهما الانكليز والفرنسويين في جميع ارجاء المعمور .

وقد نالت الالزاس واللورين أعظم نصيب من شدة بسمرك الملقب بالرجل الحديدي فانهما افتتنتا في كل آن تعلنان حبهما للوطن الفرنسوي وتعارضان السياسة الالمانية ولم يفتر هنيهة عن اذلالهما وتعذيب أهلهما لاخماد الانفاس فيهما وقد شرط جعل اللغة الالمانية لغة المدارس والحكومة ووضع البلاد مرارا تحت الاحكام العرفية ونكل بجماعات من سكانها تنكيلا شديداً في بعض الاوقات فلم يغير شيئاً مما في صدورهم بل زاد مقتهم له ولالمانيا . وعلى هذه الخطة جرى الامبراطور غليوم الثاني في بدء حكمه ثم لطفها الآن قليلا

وفي ٢٥ نوفمبر ١٨٨٦ طلب بسمرك من مجلس النواب ان يزاد الجيش في السلم الى ٤٦٧٤٠٩ مقاتل مدة سبع سنين فرفض ذلك مجلس النواب بعد مناقشة عنيفة فتلا بسمرك في الجلسة نفسها مرسوما من الامبراطور بحل مجلس النواب وجاء المنتخبون على أثر هذه الحادثة فوافقوا على المشروع في ١١ مارس . وقبل ذلك أي في ٢٥ فبراير صرح باشتراك ايطاليا رسمياً في تحالف المانيا

والنمسا المبني على المعاونة لحفظ الحالة الراهنة في كل من الدول المتعاقدة

ومضمون هذا الصك انها اذا هوجمت احدى الدول الثلاث فالاخريان تأخذان بنصرتها واذا هاجمت لزمتا الحياد واذا حاولت دولة غير محاربة ان تنجد الدولة التي تحاربها احدى الحليفات فحليفتاها تنجدانها الى آخر ماهنالك مما يقصد به العداء لروسيا ولفرنسا .

وفي سنة ١٨٨٧ زار القيصر برلين فقوبل بحفاوة ووداد ولكنه لما خاب ظن بسمرك من استمالته امر بنك السلطنة الالمانية فرفض جهاءة ان يقبل السندات الروسية لاقراض المال عليها فهبطت قيمتها ستة في المئة

وكان هذا سبباً لازدياد النفار وذات البين . وفي سنة ١٨٨٨ عرض بسمرك على الرشستاغ مشروع قانون يقضي بحمل السلاح في حالة الحرب على كل ذكر صحيح البنية من سن العشرين الى التاسعة والثلاثين وأن كان هناك خطر فالى الخامسة والاربعين فوافق المجلس على هذا الاقتراح

وفي ٩ مارس من السنة المذكورة توفي الامبراطور غليوم الاول في الواحدة والتسعين من عمره فجزع الالمانيون عليه كثيراً وفي ذلك اليوم نودي بابنه فريدريك الثالث امبراطوراً وكان رجلا حليماً حكيماً محباً للسلم كاتباً حبيباً الى الامة غير انه كان مصابا بسرطان في الحلق فابقى زمام الامر بين يدي بسمرك الى ان توفاه الله

مأسوفاً عليه في كل مكان (١٥ يونيو ١٨٨٨) وخلفه ابنه غليوم الثاني وهو شاب مفتتن بالعسكرية محب للحرب نخيف ان يطوح بالمانيا في المهالك ولكنه اظهر فيما بعد انه راغب في السلام وان كانت المظاهر الجندية تعجبه . وقد بدا منه ميل الى روسيا ورغبة في استرضاء فرنسا فاجابت هتان الدولتان دعوته لحضور افتتاح ترعة كييل وارسلت كل منهما بعض مراكب ولكن ذلك لم يمنع من تحالفهما ولم يعدل من خطتهما الاساسية

وفي سنة ١٨٩٠ انقضى الاجل النيابي لاعضاء الرشستاغ فافترقوا وتجددت الانتخابات فكثر بها عدد المندوبين الاشتراكيين فرأى الامبراطور ان يجاملهم وكان يقول بضرورة الانتصار للفعلة من استبداد المتمولين وكانت هذه الخطة مخالفة لخطة بسمرك فاستقال من منصبه فاقيل لاستحالة ان يجتمع رأسان مستبدان في ادارة سلطنة عظيمة وخلف بسمرك الكونت دي كبريفي أحد القواد فاخذ بسمرك من ذلك الوقت يناوئ الحكومة بجرائده ومنشوراته الى ان استرضاه الامبراطور ببعض الزيارات والاستشارات ولكنه لم يعده الى منصبه . ثم أخذ غليوم يشتغل مباشرة بجميع مسائل الدولة ومنها مسائل الفعلة والدين والمعارف والجندية والبحرية حتى الرسم والروايات . ولشدة رغبته في الانتقال زار تباعا نروج وروسيا واسوج ودانمرك وايطاليا والنمسا وبلجيكا

وهولنده والاستانة وانكلترا ثم زار الاستانة ثانية فالقدس الشريف فبعض الجهات العثمانية الاخرى .

وفي شهر مارس من سنة ١٨٩٠ انعقد مؤتمر اشتراكي في برلين فابدى بعض الاماني ثم انفض . وفي هذه السنة عينها زيد الجيش الالماني في السلم . وفي يونيو سنة ١٨٩١ جدد عقد المحالفة الثلاثية

وفي ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٩٢ عرض المسيو دي كبريفي على الرشستاغ مشروعا عسكريا جديداً لزيادة عدد الجيش في السلم . ولتأييد اقتراحه التي خطبة ذكر فيها ان نية الحكومة سلمية وانكر ما عزي الى بسمرك من انه حرف تلغراف امس الشهير بحيث وقع وقعه السيئ في فرنسا وجرها الى حرب السبعين وكان اشتهار امر هذا التحريف قد شغل الدنيا باسرها ودل على ان المانيا كانت المعتدية على فرنسا في ذلك الوقت . على ان الرشتستاغ أبى التصديق على هذا المشروع فقرأ كبريفي مرسوما امبراطوريا بحل المجلس في ١٢ يناير ١٨٩٣ وفي ١٥ يوليو من تلك السنة وافق مجلس النواب الجديد على ذلك القانون .

وفي سنة ١٨٩٥ استقال كبريفي والكونت ديلمبرج رئيس الوزارة من منصبهما لعدم اتفاقهما على الوسائل التي كان يجب اتخاذها لكبح جماح الفوضويين وكانوا قد تكاثروا وتكاثرت شرورهم فعين البرنس دي هوهنلوهي سفير المانيا سابقاً في فرنسا

وحاكم الالزاس واللورين مستشاراً للدولة ورئيساً لمجلس وزرائها وفي شهر يونيو من السنة الانف ذكرها فتحت ترعة كييل باحتفال عظيم حضره مندوبون واساطيل لكل الدول . ولما جرت الحرب الاخيرة بين الدولة العلية واليونان كانت المانيا نصيرة للدولة العلية مراعاة بذلك لمصلحتها التي وافقت مصلحة فرنسا وروسيا وقد توافقت مصلحة هذه الدول قبلا فسبعت سعياً واحدا لدفع اشتداد اليابان على الصين وانهاء مشكلاتهما بالتي هي أحسن

الباب الرابع والتسعون

(في النمسا)

(فصل)

(في ملخص اخبار هذه الدولة منذ تأسيس دستورها ١٨٦٧ الى سنة ١٨٩٦)

يقطن النمسا ٤١٣٨٤٩٥٦ نفساً واول من وضع الدستور الحالي اجابة للمجر الى طلبهم المكرر هو الكونت دي بوست كبير وزراء النمسا في سنة ١٨٦٧ فاصبح للنمسا مجلسا نواب ووزراء وللمجر مجلسا نواب ووزراء وتوج الامبراطور فرنسيس يوسف ملكا على المجر وبقيت الدولتان متحدتين بالعسكرية والدين تحت

سلطة الامبراطور . وفي سنة ١٨٧٨ — ١٨٧٩ احتلت النمسا البوسنه والهرسك بناء على قرار معاهدة برلين وفي سنة ١٨٨١ ازادت ان تتخذ جنودا من هذه الولاية فثارت ثم سكنتها العساكر النمسوية في شهر مارس من سنة ١٨٨٢

وقد بقيت النمسا زمانا طويلا وهي لاخطة لها سياسية في الخارج الا خطة المانيا . أما حالتها الداخلية فمن أشد الحالات ارتباكا وذلك لان اممها المتعددة متباغضة متنافرة وكل منها راغبة في الانفصال فالمجر يريدون الاستقلال والتشك السلافيون في بوهيميا وكرواسيا يميلون الى روسيا . والالمانيون في هتين الولايتين يميلون الى بروسيا والايطاليون في تريستا وترنتا يميلون الى ايطاليا . وفي سنة ١٨٨٩ توفي الارشيدوق رودلف النجل الوحيد للامبراطور وولي عهده وكان قد أحب البارونه ماري دي فرسيرا وهي متزوجة فتواطآ على أن ينتحرا ووجدا ميتين في مابرلن صبيحة ٣٠ يناير . وآلت ولاية العهد الى الارشيدوق شارل لويس أخي الامبراطور فتوفي بعد ذلك ببضع سنين وانتهت ولاية العهد الى كبير نجليه وهو مريض بداء غير مرجو الشفاء . على أن في النمسا جزبين كبيرين عدا احزابها وهما أعداء اليهود والاشتراكيين . ولا يكاد يمضي يوم فيها لا تجري حوادث مكدرة بين هذه الشعوب المختلفة سواء في المجالس النيابية أو في المجتمعات العمومية

وفى ٢٨ يونيو ١٨٩١ وقعت النمسا على تجديد المحالفة الثلاثية الى ست سنين وكانت لا تزال تزيد جيشها مجاراة لالمانيا . وفى سنة ١٨٩٣ تألفت جمعية اوملادينو فى بوهيميا ومعناها « شبيبة الامة » فلم تلبث الحكومة ان حلتها فتحولت الى جمعية سرية ثم فشا امرها وعوقب كثيرون من أعضائها عقوبات شديدة وكانت غاية هذه الجمعية استقلال بوهيميا

وفى سنة ١٨٩٤ توفي كوسوط الثوري الوطني الشهير الذي كان زعيم الامة المجرية وممثل أميالها وآمالها وكان مقيمافى تورينو فعم الاسف عليه وجرت مظاهرات جليلة عند ما اتي بجثته لتدفن فى بلاده

ويظهر الان من خطة النمسا انها أخذت تخرج عن خطة الاحتذاء لالمانيا فهي التي عرضت تجديد المحالفة الثلاثية قبل انتهاء أجلها فى سنة ١٨٩٧ وهي التي اشتغلت لادخال المملكة الرومانية في المحالفة الثلاثية وهي التي سألت حصر جزيرة كريد فى عهد ثورتها الاخيرة

ويظن أنه يصعب بقاء النمسا على حالتها الحالة بعد وفاة امبراطورها المحبوب لمكارم أخلاقه وشدة رغبته في السلم

﴿ الباب الخامس والتسعون ﴾

﴿ في ايطاليا ﴾

﴿ فصل ﴾

﴿ في ملخص اخبار هذه الدولة منذ صيرورة رومه عاصمة لها الى سنة ١٨٩٦ ﴾

لم تتم وحدة ايطاليا الا فى ١٩ ستمبر من سنة ١٨٧٠ فى خلال الحرب بين فرنسا والمانيا وذلك عند ما استولى فكتور امانويل على رومه وجعلها عاصمة لمملكة ايطاليا .

ولايطاليا مجلسان نيابيان ووزراء مسؤولون تحت سلطة الملك وعدد سكانها ٣٠٩١٣٦٦٣ نفساً

وفى ٩ يناير من سنة ١٨٧٨ توفي فكتور امانويل وخلفه كبير ابنائه همبرت الاول . وتوفي البابا بيوس التاسع بعد ذلك بشهر وخلفه البابا لاون الثالث عشر .

وكان كثير من الاحزاب يمقتون النمسا لاستيلائها على ترنتا وتريستا ويبغضون فرنسا لاستيلائها على نيقا وسافوا وكورسكا التي اشترتها بمالها . ثم سعى الملك همبرت في اتخاذ حلفاء له فدخل فى المحالفة الثلاثية على يد سفيره فى ويانه الكونت دي روبيلان (فبراير ٨٣) ولما نشرت فرنسا حمايتها على تونس اشتد التغيظ فى ايطاليا عليها وحدثت مظاهرات عدائية شديدة واسقطت الوزارة

ثم قطعت المعاهدة التجارية بين الدولتين وبولغ في تحصين ثغور الالب من جهة فرنسا.

وفي شهر يوليو سنة ١٨٨٣ حدث زلزال هائل في جزيرة ايشيا وموقعها في مدخل خليج نابولي فقتل ٣٠٠٠ نفس

وكانت ايطاليا مع شدة فقرها تطمع في مجاراة الدول بالاستعمار ففي سنة ١٨٨٠ استولت على مرفأ عصب وفي سنة ١٨٨٥ اهدتها انكلترا مصوع وما يليها الى جوار الاملاك الفرنسوية في تلك الارجاء وقيل ان الحكومتين اتفقتا على التعاون في مسألتي السودان وطرابلس الغرب بمعنى ان ايطاليا تسهل لها الاستيلاء على طرابلس فلما وصلت الجنود الايطالية الى مصوع فشت فيها الامراض وكثرت الوفيات وحدث ان الحكومة ارسلت حملة منها لاحتلال فوا وساهاتي في الحبشة فمزقها الرأس الولا تمزيقاً في ٢٧ يناير ١٨٨٧

وطلبت الوزارة عشرين مليون فرنك لتنفق على حملة مصوعية جديدة . وفي سنة ١٨٨٧ توفي في فلورنسا القائد حسين باشا واوصى بماله لباي تونس فزعم رجل انه آت من قبل الباي ليطلع على اوراق هذه التركة فابى عليه قنصل فرنسا ذلك لعدم وجود توكيل بيده فاستعان بالشرطة ودخل القنصلية عنوة في غياب القنصل خلافا للمعاهدات فكادت الحرب تنشأ عن هذا الاعتداء وغاية ما نالته فرنسا من الترضية ان ينقل قاضي الصلح

الايطالي الذي أذن بذلك الدخول .

وفي سنتي ١٨٨٨ و١٨٨٩ اشتدت الفاقة في ايطاليا على أثر انتهاء المعاهدة التجارية بين فرنسا وايطاليا وعدم تجديدها فكان الوف من الفعلة في رومه وكاتان وتيرانوفا بصقليا لا عمل لهم يتضورون جوعا . واشتدت الفاقة أيضاً في كالتانيستا وفرار وباري ولوغو وجسي وبيروزا وبارمه وكاربي ورافينا وتعددت حوادث السلب والنهب والقتل في معظم انحاء ايطاليا

ومع ذلك كانت وزارة كريسبي تداوم التسلح وتواصل الامداد للحملة على الحبشة . وفي سنة ١٨٩١ سقط هـذا الرجل لشدة ما انفق على الحربية والبحرية واسوء سير البعثة المصوغية . فخلفه روديني ووجد في باديء الامر ان النجاشي منليك ينقض الحماية الايطالية بدعوى انه خدع في ترجمة المعاهدة وكانت ايطاليا تزعم ان النجاشي هو الذي خدعها . وفي سنة ١٨٩٢ وجد وزير المالية ان عجز الميزانية ارتفع الى نحو ٢٠ مليون فرنك ولذلك أبى على وزير الحربية مالا طلبه لتجديد جانب من بنادق الجنود فسقطت الوزارة وتولى جيولتي رئاسة الحكومة فطلب حل مجلس النواب ليحصل على أغلبية في المجلس الذي يجيء بعده

وفي سنة ١٨٩٣ ظهرت فضيحة اشبه بفضيحة بناما وهي مسألة البنك الروماني وذلك ان هذا البنك كان قد أصدر ١٣٠

مليون ورقة نقدية وزعم في تقاريره انه مصدر ٨٠ مليونا فقط وكان هذا الفرق قد صنع من القراطيس ذات العدد الواحد وبعد محاولة ومطاولة قبض على احد النواب وعلى مدير البنك وصرحت لجنة التحقيق ان بعض الاوراق اختلست ولم تقع في يدها فنعت النواب الوزراء بالاثمة فاستقالوا وطلبت محاكمتهم .

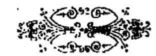
وفي بدء سنة ١٨٩٤ اشتدت المجاعة في صقليا وتعددت الحوادث فجعلت تحت الاحكام العرفية ثم ثار أهل كارارا من الفاقة ومظالم الجباية فجعلوا تحت الاحكام العرفية أيضاً وسالت الدماء في هاتين الولايتين غزيرة لما توالى من المناوشات بين الاهالي والجنود . ولما اجتمع مجلس النواب اضطرت الوزارة الجديدة أن تعترف بين يديه ان عجز الميزانية صعد الى ١١٧ مليونا ووعدت انها تقتصد نحو ٤٥ مليونا من النفقات الادارية ولكن لا بد لها من زيادة ضرائب وتجديد أخرى لسد باقي العجز

وفي هذه السنة نظرت محكمة المحلفين في قضية البنك الروماني وكان المتهمون مدير البنك برناردو تانلونجو أحد أعضاء مجلس الشيوخ وأمين صندوق البنك وخمسة آخرين فصرح المدير ان الثلاثة والعشرين مليونا المفقودة من البنك قد دفعت اعانات للحكومة وانفق بعضها لاصعاد سعر سندات الدخل (رانت) وان الحالة كانت سيئة منذ سنة ١٨٦٨

ثم ان المسيو جيولتي رئيس الوزارة السابق الذي اتهم باخفاء بعض الاوراق أظهر ما كان قد أخفاه مما دل على ان كريسبي وبعض رجال الحكومة الآخرين كانوا مرتشين بقسم من الاموال المفقودة وكان كريسبي رئيس الوزارة فجدد الانتخابات للحصول على أغلبية تبرئه من تلك الوصمة . وكانت الفاقة لا تزال مشتدة في أكثر ارجاء ايطاليا .

وفي سنة ١٨٩٦ أمر كريسبي باستئناف الحرب للانتقام من النجاشي فحصره الايطاليون في قلعة ميكاله ثم انفصل عنهم الرأسان سبات واغوس وفي غرة مارس هاجموا الاحباش في عدوه فانكسروا انكساراً عظيما وفقدوا ١٠٠٠٠ نفس بين قتيل وجريح وأسير في أيدي الاحباش و٧٢ مدفعا وشيئاً كثيراً من الاسلحة والرايات والركائب .

وعلى أثر هذه الموقعة عزل القائد باراتياري وحوكم وخلفه القائد بلديسيرا وارسل رسول لعقد الصلح وفك الاسرى وصرحت الوزارة الايطالية انها لا تريد فتح بجره ولا نشر الحماية الايطالية على الحبشة وكان النجاشي يطلب عشرين مليون فرنك غرامة حرب فدفعت اليه وعقد الصلح واسترد الاسرى



﴿ الباب السادس والتسعون ﴾

﴿ في سويسرا ﴾

﴿ فصل ﴾

﴿ في ملخص اخبار هذه الدولة من سنة ١٨٧١ الى سنة ١٨٩٦ ﴾

يقطن سويسرا نحو ثلاثة ملايين نفس وهي مستقلة منذ ٦٠٠ سنة كما رأيناه وفيها مجلسان نيابيان وهي محصنة التخوم لدفع الاعتداء عليها والمرور منها في حالة الحرب بين دولتين مجاورتين لها.

ولسويسرا التقدم على سائر الدول في بعض المشروعات الكبيرة المفيدة فهي التي أوجدت الجمعية المختلطة لمساعدة الجرحى وجمعية الصليب الاحمر والاتحاد البريدي العام والاتحاد البرقي واتحاد السكك الحديدية الاوربية لنقل الركاب والبضاعة الاجنبية بدون تأدية رسوم وجمعية ترقية الاداب والفنون الجميلة. ولكل من هذه الشركات مكتب في برن .

ومن أعمال سويسرا العظيمة فتحها نفقاً لمرور القطر الحديدية تحت جبل سان غوتار وقد تم عمله في ٢٩ فبراير من سنة ١٨٨٢.

وكثيرا ما عرض على سويسرا الدخول في التحالف الثلاثي واصرت على عزلتها .

وفي سنة ١٨٩١ حدثت في سويسرا حادثة فظيعة وهي ان

قنطرة انهدمت وكان قطار مارا فوقها فهلك ركابه وكانو نحو ٣٠٠ نفس

وفي غرة اغسطس من تلك السنة احتفلت سويسرا بمرور السنة السمائة من عهد استقلالها

وسكان سويسرا اشداء محبون للسلم أهل دعة وكرم وعلم وبلادهم من أجمل بلاد الدنيا يقصدها السياح للمصيف في كل سنة ويزداد عددهم على التمادي

﴿ الباب السابع والتسعون ﴾

﴿في اسبانيا﴾

﴿ فصل ﴾

(في ملخص اخبار هذه الدولة من سنة ١٨٤٥ الى سنة ١٨٩٦)

لما تولت الملك اليصابات الثانية ابنة فرديناند السابع أصبحت اسبانيا العوبة فى أيدي نفر من الوزراء تناوبوا فى تولي الحكم عليها قبل بلوغ الملكة سن الرشد وبعده ومن مستحدثات أحدهم استبدال دستور سنة ١٨٣٧ بدستور وضع سنة ١٨٤٥ وكان فيه تضييق على حرية أهل البلاد فثاروا في سنة ١٨٥٤ بعد حدوث أزمات شديدة فى الحكومة وعقدوا جمعية لتأليف حكومة جديدة وفرت ام الملكة واسمها ماري خرستين مرة ثانية الى فرنسا ثم استرجعت

الى مدريد وأعادت دستور ١٨٤٥ وفي سنة ١٨٥٩ تهجمت بعض جماعات الريف والقبائل في مراكش على سجن للاسبانيين في افريقيا فانتشبت الحرب بين البلادين وانتصرت اسبانيا انتصارين باهرين ولكنها لم تستفد من الحرب سوى غرامة بلغت مئة مليون فرنك وزيادة شيء قليل على اراضيها من جهة ستا وذلك لان انكلترا حالت دون مطامعها

وفي سنة ١٨٦٦ تولى الوزارة القائد نارفايز وكان جمهور من المتملقين والقسيسين وغيرهم محيطين بالملكة يصرفون الاحكام فيما يشاؤن فاغضب ذلك الشعب فثار في ٢٢ يونيو ولكن الجنود لم تلبث ان قويت عليه وسكنت الهياج .

وفي سنة ١٨٦٨ تجددت الثورة على الملكة ففرت وخلعت عن العرش وعرض التاج على الامير ليوبولد دي هوهنزولرن فلم يقبله . وكان هذا العرض سبباً في حرب السبعين كما رأيناه

ثم انتخب البرنس اميدي دي سافوا ثاني أبناء فكتور امونيل ملك ايطاليا وسمي باميدي الاول فلم يلبث ان اعتزل هذا المنصب المتعب في ١١ فبراير ١٨٧٣ فاعلن قيام الجمهورية الاسبانية وقال قائل ان تكون على شكل جمهورية الولايات المتحدة السويسرية فسر بذلك أهل ولاية قرطاجنة وأعلنوا استقلالهم الاداري فحوربوا الى ان سلموا .

وفي هذه الاثناء انتشبت في شمال اسبانيا الحرب الكارلية الثانية فانتدب المارشال سرانو وهو الحاكم بامره إذ ذاك في مدريد والقائد كونشا وغيرهما لاخمادها فابلوا بلاء حسناً وفي ٢٦ دسمبر من سنة ١٨٧٤ أعلن القائد مرتينيس كمبوس أحد ضباط كونشا تنصيب الفونس الثاني عشر ابن اليصابات على عرش اسبانيا بمحضر من الجنود. وفي ١٣ فبراير من سنة ١٨٧٦ اشترك الكارليون وجنود الملك الآخر مرة في ايلوريو فانتصر الجنود عليهم وفر دون كارلوس المطالب بسرير اسبانيا الى فرنسا وتمزق شمل أشياعه فسلم معظمهم وفر بعضهم وعوقب الآخرون عقوبات شديدة وكانت بذلك نهاية هذه الحرب المشؤومة التي سفك فيها ما شاء الله من الدماء

وفي هذه السنة وضع الاسبانيون لانفسهم دستورا جديدا ملائما لتقدم الافكار الحرة عندهم وفي سنة ١٨٧٨ تزوج ملكهم بابنة عمه مرسيديس فتوفيت بعد ذلك ببضعة أشهر فتزوج ثانية بالارشيدوقة النمسوية ماري خرستين ورزق منها ابنتين . وفي سنة ١٨٨٥ استولى الالمانيون على جزائر كارولين فهبت اسبانيا على قدم وساق تريد محاربة المانيا لاسترداد تلك الجزائر وتخوف الامبراطور غليوم ان يفقد نفوذه العظيم في تلك البلاد فاتفق مع الملك الفونس الثاني عشر ان يحكم البابا ليون الثالث عشر في الامر فقضى بان الجزائر لاسبانيا ومنح المانيا حرية المتاجرة فيها . وفي خلال تلك

السنة توفي ملك اسبانيا وكانت امرأته حبلى فعينت وصية ثم ولدت غلاما سمي الفونس الثالث عشر فنودي به ملكا . ومن ذلك العهد الى الآن استمرت الاحزاب تارة والفوضوية اخرى تمزق أحشاء هذه البلاد وتزيدها تداعيا الى السقوط والدمار

﴿ فصل ﴾

﴿ في اسبانيا وكوبا ﴾

هذه الجزيرة تدعى لؤلؤة جزائر الانتيل وهي أغنى وأفضل المستعمرات الاسبانية ولكنها من زمن قديم تدفعها المطامع الى طلب الاستقلال وتجرئها على ذلك الولايات المتحدة بل تمدها بالمال والرجال . وفي سنة ١٨٨٥ ثارت على قدم وساق فارسلت اسبانيا اليها مرتينس كمبوس فلم يفلح في تسكينها فبعثت المارشال ويلر خلفا له وأربى عدد الجنود الذين انفذتهم اليها على مئة وخمسين الفا ولكن ماذا تفيد الجنود واميركا تمد السكان بالمال والميرة والذخيرة والرجال . على أن الاسبانيين انتصروا على الكوبيين في بعض المواقع ثم وعدوهم بالاستقلال الاداري فيها اذا سلموا واخلدوا الى الطاعة فابوا . ثم انتهى الامر الى حرب نشبت بين اسبانيا والولايات المتحدة فتح فيها الاميركان مانيلا عاصمة جزائر فيليبين التي ثارت أيضاً على اسبانيا ثم فتحوا سانتياغو ودمر الاميرال سرفيرا اسطوله كي

لا يقع في أيدي الاعداء وأخذ أسيرا ومن نجا معه من انقاذ ثف العدو ومع ذلك فان الاسبانيين أبلوا في هذه الحرب بلاء الابطال.

الباب الثامن والتسعون

﴿ في البرتغال ﴾

﴿ فصل ﴾

(في ملخص اخبار هذه الدولة من سنة ١٨٣٣ الى سنة ١٨٩٦)

استمرت الملكة دونا ماريا متوليه زمام الحكم في البرتغال من سنة ١٨٣٣ الى سنة ١٨٥٣ ولما توفاها الله خلفها ابنها بطرس الخامس تحت وصاية أبيه الدوق دي سكس كوبور غوتا الى سنة ١٨٥٥ فاغتالته المنيه وخلفه أخوه لويس الى سنة ١٨٨٦ ثم خلفه ابنه كارلوس الاول. وللبرتغال دستور وضع في ٢٩ ابريل ١٨٢٦ ثم عدل في سنة ١٨٥٢ و١٨٥٩ و١٨٨٤ وفيها مجلسان للاعيان وللنواب

وفي سنة ١٨٨٩ وقع نزاع بين البرتغال وانكلترا على املاكهم في شرقي افريقيا ثم امتثلت البرتغال ادارة عدوتها المقتدرة فقام الشعب بمظاهرات شديدة اوشكت ان تحول الى ثورة. والبرتغال منحطة ولا سيما في أحوالها المالية وهي لا تدقق في سداد ديونها ومآلها الى الافلاس ان لم تصلح شؤونها

الباب التاسع والتسعون

﴿ في بلجيكا ﴾

﴿ فصل ﴾

(في ملخص اخبار بلجيكا من سنة ١٨٦٥ الى سنة ١٨٩٦)

هي اكثر البلاد الاوربية سكانا بالنسبة الى مساحتها ويأهلها ٥٣٤١٥٥٨ نفساً ولها مجلس أعيان ومجلس نواب وملكها يدعى ليوبولد الثاني وليها منذ سنة ١٨٦٥ ارثا عن أبيه ليوبولد الاول . وهي مقسومة الى حزبين حزب الكاثوليك وهو الاكبر وحزب الاحرار وتوجد أحزاب اخرى لا شأن لها

وقد اشتهرت هذه البلاد ببراعة أهلها في الصناعة والزراعة ويكثر فيها اعتصاب الفعلة . وفي سنة ١٨٩٣ عدل دستورها فادخل في الانتخاب كل شاب في الخامسة والعشرين من العمر

وهي محصنة دفعاً للطوارئ التي تمس استقلالها فيما لو حدثت حرب بين دولتين مجاورتين لها

ولها مستعمرة في بلاد الكونغو الحرة . وقد اقيم فيهما معرضان عامان في سنتي ١٨٨٥ و١٨٩٤ فنجحا نجاحا عظيما .

الباب المئة

﴿ في هولنده ﴾

﴿ فصل ﴾

(في ملخص اخبار هولنده او البلاد الواطئة الى سنة ١٨٩٦) .

يقطن هولنده ٤٧٩٥٦٤٦ نفساً وهي بزراعتها وصناعتها من أغنى الدول ولها المقام الثاني بعد انكلترا من حيث المستعمرات والثروة . وقد جففت فيها بحيرة مساحتها ١٨٠ كيلومتراً لتحرث وشرع في تجفيف بحيرة ثانية وسيشرع في الثالثة وكل هذا يزيدها تحولا . ولهولنده مجلس نواب ومجلس أعيان ودستور عدل أولا في سنة ١٨٤٠ ثم في سنة ١٨٤٨ ثم في سنة ١٨٧٨ وقد أصلح قانونها الانتخابي قليلا في سنة ١٨٨٧

وملكتها الان ويلهامين ابنة الملك غليوم الثاني الذي خلف اباه غليوم الاول في سنة ١٨٤٩ وعاش الى سنة ١٨٩٠ وبوفاته الملك غليوم الثاني انفصلت غرندوقية لوكسبرج عن عرش بلجيكا لانه غير جائز تمليك النساء عليها وجعل اميرها ادولف الذي كان قبل ذلك صاحب دوقية ناسو .

على أن هولنده لم تتداخل في مشاكل اوربا منذ سنة ١٨٤٠ مجاراة لبلجيكا وعملا بمصلحتها الخاصة

وتجري حيناً بعد حين حركات اشتراكية لكثرة الفعلة الذين فيها وذلك كل ما يزعجها في داخلها .

الباب المئة والواحد

« في الدانمرك »

فصل

(في ملخص اخبار هذه الدولة الى سنة ١٨٩٦)

يقطن الدانمرك ٢٢٩٩٥٦٤ نفساً ولها مجلس أعيان ومجلس نواب ودستور وضع في سنة ١٨٤٩ وابدل في سنة ١٨٦٦ وفي سنة ١٨١٥ فقدت بلاد نروج التي انضمت الى اسوج وفي سنة ١٨٦٤ افقدها الالمانيون بعد حرب عنيفة ولايات لوينبرج وهلستن وسلسويج ومع ذلك فان لها اهمية كبيرة من حيث هي مدخل بحر البلطيق .

ومالكها يدعى خرستيان التاسع تولاها في سنة ١٨٦٣ وقد زوج احدى بناته للبرنس دي غال والاخرى لامبراطور روسيا اسكندر الثالث وأذن لثاني ابنائه ان يكون ملكا لبلاد اليونان

وهو يحب الاستبداد في الحكم ويميل عن الاحرار وهم الاكثرون في مجلس النواب الدانمركي الى حزب المحافظين ومن غرائب اموره انه استوزر المسيو استرب مدة ١٧ سنة وكان وزيره على خلاف مع النواب مدة ١٢ سنة ولم يعزله الى أن استقال .

﴿ الباب المئة والاثنان ﴾

(في اسوج ونروج)

﴿ فصل ﴾

(في ملخص اخبار اسوج ونروج الى سنة ١٨٩٦)

عندما توفي الملك شارل جان الرابع عشر وهو برنادوت الشهير خلفه على أسوج الملك اوسكار الاول (١٨٤٤ — ١٨٥٩) ثم خلف اوسكار شارل جان الخامس عشر (١٨٥٩ — ١٨٧٢) ثم خلف هذا الملك اوسكار الثاني على أسوج ونروج مضمومتين . وهو ملك سلمي عاقل محب للعلوم منشط للاداب وله مآثر تذكر فتشكر في هذا الباب . ولاسوج دستور وضع في سنة ١٨٦٧ وفيها مجلس للاعيان ومجلس للنواب . وفي نروج مثل ذلك غير ان هذين البلدين لا يتفقان تمام الاتفاق على ما يظهر وربما انفصلا في عهد غير بعيد لما بينهما من المنافسات الظاهرة ولا يزرع من الاراضي الاسوجية والنروجية الا قليل فعولهما في الدخل على الاخشاب والجلود بانواعها وبعض المعادن وما يصاد من حوت البحر وسمكه . ولهما اسطول تجاري ينيف على ١١٥٨٦ سفينة

ويقطن أسوج ٤٨٧٣١٨٣ نفساً ونروج ٢٠٠٠٩١٧ نفساً وهم كبار الاجسام ذوو عزم وذكاء

فهرست

صفحة

صحيفة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

﴿ انتهى الجزء الثاني وفهرسته ﴾

﴿ والحمد لله ﴾

وقد وقعت أغلاط مطبعية متعددة في هذا الجزء لم نر حاجة لذكر صوابها لسهولة التنبه لها

